شخصية موسى النبي

اعداد

محمود القليني

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيـع

٢٤٢
ا. م

القليني ، محمود .

شخصية موسى النبي/ محمود القليني.- ط١.- دسوق:

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع .

٣١٢ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : ٢- ٦٧٣- ٣٠٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١. الأنبياء . ٢.موسى - الشخصية.

أ - العنوان

رقم الإيداع : ٥١٨٩ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتـف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣

E-mail: elelm_aleman٢٠١٦@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر

هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣

محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

٢٠٢٠

المحتويات

المقدمة

هذا كتاب عن شخصية " موسى " – عليه السلام – ، لا أدعى أنى قد أتيت فيـه بجديـد لا يعرفه الناس ، كما لا أدعى أنى قد وفيت حـق " موسـى " عـلى البشـرية ، ذلـك لأن الأنبياء لا أحد يستطيع أن يوفيهم حقهم سوى الله – y – لأنه وحـده القـادر عـلى ذلك . ولكن الذى أستطيع أن أدعيه أنى قد اقتربت كثيرا – على قدر وسعى وجهدى – من تلك الشخصية الجليلة العظيمة النبيلة القوية الأمينة ، ووقفـت طـويلا متـأملا مفكرا دارسا فاحصا أمام جوانب إنسانية من شخصيته قبل أن يوحى إليه ويكلمه الله – y – وبعد أن أوحى إليه ، وأدركت كم هى عظيمة وجليلـة ورائعـة شخصـيات الأنبياء قبل أن يوحى إليهم ، وأن الوحى يزيد شخصـياتهم عظمـة وجـلالا وروعـة وقدسية ، وأن نور النبوة كامن فيهم منذ أن خرجوا إلى الوجود ، قد يدركه المبصـرون ،ويغفل عن إدراكه الغافلون ، ولكن الذى لا شك فيه أن النبى – أو من سيصير نبيـا – يدرك أن شيئا ما كامن داخله ينتظر اللحظة المناسبة ليظهر ، أن هنـاك دورا مـا هـو يتهيأ له ، ويعد له ، هذا الشئ الكامن داخله ، وهذا الدور المنتظر أن يؤدى هو ما يجعل الشخصية تتسم بالقلق والانتظار والتطلع والاستشراف .

فى هذا الكتاب حاولت إلا أشغل عن " موسى " بشئ ، أو أشاغل القارئ عن موسى بشئ – شأن بعض الكتب التى ألفت عنه – بل إنصب كل اهتمامى عـلى " موسـى " منذ أن كان جنينا فى بطـن أمـه – تلـك المـرأة المؤمنـة الصـابرة المحتسـبة المبتليـة – ، ورجحت أن جملة المؤثرات والضغوطات والمشاعر والحالة الوجدانية التـى تعرضـت لها الأم أثناء

الحمل والوضع والرضاعة ، وتلك الفترة التى قضتها برفقة رضيعها فى قصر فرعـون والتى كانت تحاول خلالها أن تخفى مظاهر أمومتها الطاغية ، أو تخفـف مـن حـدتها ، وتهدئ من غلوائها ، لتظهر للآخرين أنها ليست بأمه ، وأنها مجرد مرضع ، وأن كل ما فى الأمر أن الرضيع استعذب لبنها ، واستطاب رائحتها ، واستكان إلى حضنها الدافئ ، وهدأ إلى هدهدتها الناعمة والرقيقة ، وإن كانـت فى حقيقـة الأمـر أمـه التـى حملتـه وولدته وأرضعته ، ولكن قدرها ألا تظهر هذا ، بـل تظهـر غـيره ، حتـى وإن غلبتهـا أمومتها فعليها أن تمحى الأثر الذى تركته فى نفوس من حولها ، حرصـا عـلى سـلامة وليدها ورغبة فى البقاء بجانبه . كل هذه العوامل والمؤثرات قد أثرت – بشكل مـا – عـلى شخصـية موسـى ، وصـاغت وحـددت المـزاج العـام للشخصـية ، وتعاونـت وتضافرت مؤثرات بيئية واجتماعية كثيرة لتؤصل وتعمق من تلك المـؤثرات ، فمـثلا ظاهرة الخوف وظاهرة عقدة اللسان ، ظاهرتان بارزتـان فى شخصـية " موسـى " – عليه السلام – كانتا من أثر ما تعرضت له

الأم من ضغوطات أثناء الحمل والوضع والرضاعة ، وكان من الممكن ألا يكون لهـما هذا الأثر البارز، لولا أن هناك ما قوى من شأن تلك الظاهرتين ، " فموسى " مرسل إلى أكبر طاغية ، بل تعدى كـل صـور الطغيـان والعتـو والجـبروت ، ليـدعى لنفسـه الألوهية ، وفرعون على أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ ، وموسى عليه ذنب يخاف أن يقتل لأنه قتـل نفسـا ، وموسـى يخـاف أن يضـيق صـدره ، ولا يتسـع للمجـادلات والمهاترات التى

سيقابل بها من الآخرين ، وموسى يخاف ألا ينطلق لسانه فى مثل هذا الموقف العصيب ، موقف مواجهة فرعون والملأ والحاشية وكل سدنة النظام من كهنة وسحرة وغيرهم .

إذن يشاء قدر " موسى " أن يكون لديه استعداد وميل فى شخصيته لهذه الظواهر ؛ويشاء قدر موسى أن ما يواجهه ويتعرض له من شأنه أن يقوى ويعمق ويؤصل من تلك الظواهر .

ولكن كل هذا – المؤثرات الوراثية والمؤثرات البيئية والاجتماعية – ما كان ليمثل قيدا على شخصية " موسى " ليؤدى دوره ويواجه قدره ، وهنا مكمن قوة الشخصية ، أنها تتحدى نفسها ، فلا سلطان للميول والمؤثرات الوراثية - وإن كانت موجودة – فالإرادة هى المهيمنة ، وهى المتحكمة والمسيطرة ، وهى القادرة أن تجعل المؤثرات الوراثية ليس لها أدنى تأثير ،وأن تتخطى وتتجاوز المعوقات البيئية ، وتواجه التحديات الاجتماعية ، فالإرادة والإيمان أهم عنصرين اعتصم بهما " موسى " فى مواجهة عالم الظلم والكفر والعصيان .

وإذا كنا فى هذا الكتاب نبغى تجلية الصورة النفسية ، أو الطراز والنمط الشخصى لموسى ، فإن هذا لا يتم بدون وضع تلك الصورة فى إطارها الصحيح، أو فى موضعها من السياق التاريخى فقد كان هناك محوران رئيسيان تعاطت معهما شخصية موسى :

الأول : النظام المصرى الحاكم وعلى رأسه فرعون ، ووضحت الأسباب والعوامل الجغرافية والتاريخية والسكانية التى بلورت وصاغت هذا النمط والأسلوب فى

الحكم والسيطرة والهيمنة داخل حدود مصـر وخارجها ، ولأسباب كثيرة نجح هـذا النظام فى إفراز حاكم منحه مطلق الصلاحيات وخوله كافة التفويضات ، وخلع عليه الكثير من

صفات التقديس والتنزيه والعلو بحيث يدرج فى مصاف الألهة ، بل يدعى ذلك بكـل صلف وتكبر ، بعد أن إدعى أنه يملك مصر وأنهارها . إذا نظرنا إلى نظام بهذا الشكل ، وعلى رأسه حاكم مهـيمن هيمنـة كاملـة عـلى مقـدرات البلـد .ونظرنـا كـذلك إلى مكونات شخصية موسى وما جبل وفطر عليـه مـن حـب العـدل وإيثـار الإنصـاف ونصـرة المظلوم ، وكراهية الظلم والعسف ، والانتصاف للضعيف ، فلابد أن نتوقـع أن صداما – من نوع ما – لابد أن يقع بين الاثنين ، ولم يخف موسى موقفه المعـارض والمتمرد والناقد لهذا النظام ، ويزداد

خطورة موسى ، وخطورة موقفه ، أنه يعتبر محسوبا على هذا النظام ، فقـد كـان ينظـر إليه كأمير مصرى ، لأنه تربى فى القصرـ ومكـث سـنينا هنالـك ، فالنقـد والمعارضـة والهجوم على النظام من داخل النظام نفسه ، وليس من خارجـه ، وهـذا فى حـد ذاتـه يعتبر سابقة خطيرة لم تحدث من قبل .

وأركان هذا النظام لن يقفوا صامتين أو مكتوفى الأيدى أمام ما يفعله موسى وما يقوله ، وأظن أنهم فكروا كثيرا وأجهدوا أنفسهم ، فسجنه أمـرلا يسـتطيعونه ، وكـذلك لا يجرأون على قتله ، فهو أمير مصرى ، وأمير مصـرى لـه مكانـة كبـيرة داخـل القصرـ وخارجه ،إذن ينبغى تدبير مكيدة ، تكون نتيجتها تشويه سمعته أمام كل المصريين

والقضاء على صفته كأمير مصـرى وكذلك إخراجه أو إبعاده عن مصر ، وكان تـدبير أو توريط موسى فى جريمة القتل ، التى نرى أنها كانت مدبرة من بعض أركان النظام المصرى ، وبعض زعماء وشيوخ بنى إسرائيل أنفسهم ، رغبة فى إبعاد موسى من مصر . وتم لهم ما أرادوا وأخرج موسى من مصر .

الثانى : بنو إسرائيل ، وأهم الملامح الشخصية الجامعة لهؤلاء القوم ، ونوعية العلاقة التى ربطتهم بالمصريين ، وتطورتلك العلاقة ، وما شابها من توترات وأزمات ومآزق ، وأيضا علاقة موسى بهم ، فتلك العلاقة فى غاية الغرابة والغموض ، ومرد ذلـك أن هؤلاء القوم لا

يمثلون نسيجا واحدا لأمة ، ولا يسعون لتحقيق هدف واحـد ، يجمـع خطـاهم عـلى طريق واضح الملامح ولكن أينما حلوا تجد التناقض والتنـافر والاخـتلاف والتـدابر ، يريدون شيئا فى العلن ، ويريدون غيره فى الخفاء ، يظهرون شيئا ويبطنون أشياء ، دائما يفاجئونك بما ليس متوقعا بالمرة ، هل كانوا يعتبرون موسى نبيا ومخلصا لهم ؟ إذن لماذا لم يطيعوه فى كثير من المواقف ؟ بل أنهـم عارضـونه وخالفونـه جهـارا وبكـل تعنـت وصفاقة وتبجح ، هل كانوا يريدون حقيقة الخروج من مصر ليبدأوا حياة كريمة تليق بهم كحملة مشعل التوحيـد ؟ إذن لمـاذا لم يـدخلوا الأرض المقدسـة ، وهـى البـديل الأوحد عن مصر حتى ولو لم يكن ذلك ، فالله قد أمر بذلك ؟ .

لماذا تكرر غدرهم بنبيهم ، تارة حينما رموه بالفاحشة وبرأه الله ، وتارة حينما عبدوا العجل ، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ، أظهرت وجلت ووضحت خطوط وملامح وسمات تلك الشخصية العظيمة ، وكما قلنا – فى بعض فصول الكتاب – إن بنى إسرائيل يعتبرون أهم إبتلاء إبتلى به موسى –عليه السلام– .

❋ بوضع الشخصية بين هذين الإطارين تتضح الصورة ،بعدما ظهرت مناطق الظل ومناطق الضوء.

❋ بوضع الشخصية بين هذين الإطارين تتبدى الصورة بعدما اكتملت التفاصيل الهين منها والجليل .

وفى النهاية تتجلى شخصية " موسى " كأعظم ما تكون الشخصية تكاملا وعلما وحكمة وقدرة ، ورغبة جارفة وشوقا متأججا أن تتخطى وتتجاوز حدودها وقدراتها وإمكاناتها لتطل على عوالم أخرى ، وتستشرف وجودا أكثر نقاءا وطهرا وقدسية ، لتحظى بمكانة أشد ما تكون قربا من الله .

الفصل الأول
الكتابة عن الأنبياء
الكتابة عن الأنبياء والرسل يسيرة وعسيرة فى آن واحد .

يسيرة لأن القرآن تكفل بالحديث عنهم ، ولم يفرط فى هذا من شيء ، ومنحهم ما يستحقونه من إجلال وتقدير وثناء وتعظيم ، بحيث لم يترك المجال لأحد أن يقدم أو يضيف شيئا ، ثم أنه المصدر الأوحد والأوثق والأصدق والأحق فى المعرفة بهذا الصنف الشريف والكريم من البشر .

وعسيرة لأن الكاتب ليس أمامه إلا أمران :

الأول : أن يكرر ما جاء فى القرآن عن النبى والرسول ، وهو بذلك لم يضف شيئا ولم يأت بجديد ، وخير له ألا يكتب ويترك الناس والقرآن طالما كتابته لم تضف شيئا ولم تأت بجديد .

الثانى : أن يحاول أن يضيف شيئا ، ويأتى بجديد ، معتمدا على كتب التاريخ وما ورد فيها من أخبار وأقاصيص عن الأنبياء والرسل ، ولكن تلك الكتب تحمل فى ثناياها كل ما تتصف به الطبيعة البشرية من نقص وإعوجاج ووهم وخرافات وقصور وضيق أفق وعتامة طبع وميول وأهواء وتعصب وتحيز، ومهما حاول الكاتب أن يغربل وينخل ما فى تلك الكتب ، فإنه فى النهاية واقع فى أسر الطبع البشرى ، وهو يكتب عن نوعيات وإن لم يتجاوزوا تلك النوعية البشرية ، إلا أنهم يجسدون ذروة التمام والكمال البشرى ، أو أن طبيعتهم البشرية خلصت وسلمت وتطهرت من كل نقائص وعيوب الطبيعة البشرية ،

لتناسب وتتواءم مع المهمة المقدسة التى كلفت بها ، وهـى التلقـى مـن الله ، والتبليـغ للبشر ـــــ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة الكهف:١١٠]

- نعم ، هم بشر ، ولكن فتحت أمامهم مدارج عليا للإرتقاء والسمو .
- نعم ، هم بشر ولكن حملوا بأقدس رسالة من السماء لأهل الأرض .
- نعم ، هم بشر ، ولكن كلفوا بأجل دعوة من الله للإنسانية جمعاء .

لذلك فلو نظرت إليهم كبشر فقد ظلمتهم ، ولو تعاملت معهم بغير ذلك فقد أسرفت عليهم .

لذلك فالكتابة عن النبى ليس بالأمر السهل ولا اليسير .

وأن تكتب عن نبى مثل " موسى " – عليه السلام – فهذا أمر فى غاية الصعوبة والعسر .

لأنك مع شخصية النبى بصفة عامة مطالب أن تكون قريبا جدا منها ، وبالطبع هذا القرب ليس مكانيا ولا زمانيا ، لأنه محال ، ولكن القرب العقلى ، والدنو الوجدانى ، قريبا من تلك الآمال النبيلة والأهداف الشريفة والمقاصد السامية التى يسعى كل نبى أن يحققها رغبته الأكيدة والصادقة فى إسعاد البشرية بعد أن يخلصها من كل الشرور والأدران ، أمنيته أن يصوغ من الإنسانية المعذبة المشتتة المتنازعة المتفرقة كيانا واحدا متجانسا متراحما متفقا متوافقا ، مستمتعا بحياته ، محققا المقصود الإلهى من الوجود الإنسانى .

أن تكون قريبا جدا من تلك الروح المعذبة القلقة التى ما خلقـت إلا لتجاهـد جهـادا عظيما ، وتكافح كفاحا جليلا ، من أجل إنقاذ الغرقى من بحار الإثم ، من أجل إحياء الموتى من قبـور الكفـر والعصـيان ، مـن أجـل إرشـاد الضـالين فى صـحراء الظلـم والاستبداد ، من أجل تنبيه الغافلين عن الغاية والهدف من وجودهم فى تلك الحياة .

أن تكون قريبا جدا من هذا الضمير اليقظ دوما ، الذى يضنى ويشقى نفسه من أجـل أن يرتفع بالبشرية إلى مكان ومكانة تستشرف منه أنوار العبودية لخالق الكون ؛ لتشهد له بالوحدانية ، لأن جوهر سعادتها فى هذا التوحيد .

ومع موسى النبى – بصفة أخص – مطالب أن تكون مكانه ؛ لتشـعر بـما يشـعر بـه ، تفكر فيما يفكر فيه ، أن تضع نفسك فى نفس المواقف التى ساقته الأقدار أن يكون فيها ، فهى مواقف نادرة وعجيبة ، لم يسبق لأحد من البشـر أو الأنبياء أن مر بها ، مواقـف قاهرة لمن لم يؤت قدرا من العزم والقوة والصلابة ، وإيمانا راسخا ثابتا برسالته .

مطالب ان تغوص فى أعماق وأغوار تلك الـنفس الجليلـة النبيلـة ؛ لتصـل إلى المكـون والمحرك الأول لكل أفعال وتصرفات تلك النفس العملاقة العظيمة .

مطالب أن تستبطن هذا المخلوق المتقد والمشتعل بنـار ونـور حـب العلـم والمعرفـة ، والمشغوف والمتيم بالوصول إلى أقصى ما يسمح به العقل البشـرى ، ويطيقـه ، بـل أن يتجاوز ذلك ليعى ويدرك ما وراء تلك الحدود .

مطالب أن تكون ((موسي)) الرؤية والإدراك والتصرفات والأفعال.

بغير هذا أنت لا تكتب عن النبى وإنما عن أى شخص آخر .

بغير هذا أنت لا تكتب عن موسى وإنما عن شخص آخر يشبهه أو يتسمى باسمه .

بدون كل هذا ، أنت تبعد عن الشخصية ، بل تنأى الشخصية عنك ... وبالتالى تضل عن الحقيقة .

أو تضل الحقيقة عنك .

ودعنا لا نبالغ – حتى وإن بالغنا – إذا قلنا إن شخصية النبى هى التى تختار من يكتب عنها ، لأنها تضع شرطا واحدا لمن يريد أن يكتب ، وهذا الشرط هو ((الحب)) .

ولا نقصد بالحب هذا الميل أو النزوع الوجدانى الغامض والمبهم فى نفس الوقت نحو شخص بعينه ، وإنما نقصد بالحب هذه الرغبة المتأججة والمشتعلة والمحفزة والمثيرة للإنسان أن يعرف أى شيء وكل شيء، عن شخصية النبى ، ليست معرفة أو فهم أو وعى أو إدراك عقلانى ، وليست قرب أو دنو وجدانى ، وليست امتزاج كيانى ، وإنما نوع من ((التشرب)) إلى حد الإرتواء بشخصية النبى .

سعى حثيث لا ينقطع ولا يتوقف ولا يفتر نحو تلك القمة من الكمال والتمام البشرى.

محاولة نبيلة لسبر أغوار تلك الشخصية التى وقع اختيار الله عليها لتكون رسولا عنه – y – إلى الإنسانية .

رحلة شريفة مع وفى تلك الشخصية التى نجحت أن تؤدى مهمتها وتقوم بدورها بكل شجاعة واقتدار ، فى أن تمهد وتذلل وتنير وتقيم طريقا إلى الله ، وتأخذ بيد الإنسانية لتهديها إلى خالقها وبارئها ، ومبدع هذا الكون العظيم ، وما فيه من دلائل وبراهين وعظات وعبر ، تمد سبيلا إلى القلب من الإيمان واليقين .

وما كتب عن موسى لا يتناسب مع مكانتـه ، وربـما انصرـف الكتـاب بسـبب اهـتمام القرآن به (١٢٤) آية ، وكثرة وروده فى القـرآن ، واحتفالـه بـه منـذ أن ولـد ، وتلـك المساحة العريضة التى منحها القرآن له .فربما كان هذا مدعاة للباحثين والكتاب أن لا يمنحوه جزءا من اهتمامهم وبحثهم ، ونسوا أن من يهتم القرآن به فهو مبرر لأن يهـتم به أيضا ، ولكنهم – أظن – قالوا ماذا سنضيف بعدما أضافه القرآن لموسى والتوراة ؟ مع العلم أن القرآن لم يكن مانعا من التفكير والبحث والدراسة ، بل هو دافع وحاض ومحفز عليها ، وتلك هى الحكمة فى أنه أجمل أشياء ولم يفصلها وكان مـن الممكـن أن يفصلها ، وغفل عن ذكر أشياء وكان من الممكن أن يذكرها، وأشار بطريـق خفـى إلى أشياء وكان من الممكن أن يصرح بها .

" عرض القرآن الكريم لكثير من قصص الأنبياء السابقين مقتصرا على مواضع العظة والعبرة ، مكتفيا من القصة بما يحقق الهداية ويـوحى بمتابعـة الحـق ولـذا لم يتعـرض للتفصيل ، فلم يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيهـا ولا أسـماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعـض الحـوادث ، وإنـما تخـير مـا يمـس جـوهر الموضوع وما يحرك العقول وينبه القلوب إلى الخير وينفرها من عاقبة الشر " [١]

وموسى من الشخصيات التى تستحق أن نقـف أمامهـا طـويلا - وكـل شخصـيات الأنبياء والرسل – مفكرين متأملين بـاحثين ، عـن سر عظمـة وقـوة وأصـالة ومتانـة وسـمو ورقـى وعبقريـة تلـك الشخصـية الإنسـانية ، فـالمواقف الصـعبة والحرجـة والأزمات والمآزق

١– القرآن والتفسير – د . عبد الله محمد شحاته – صفحة (٢٤٨)

والعقبات التى مر بها موسى وأبتلى بها ، أخرجت وأفرزت أعظم وأجل ما فى الشخصية ، وزادته – شأن الأنبياء والرسل والعظماء – قوة وصلابة وعنادا أن يكمل رسالته ، ويحقق هدفه النبيل وغايته الشريفة ، وأهم وأخطر العقبات تمثلت فى عقبتين

الأولى : فرعون مصر .

كان قدر موسى أن يكون رسولا إلى أكبر وأعتى طاغية عرفته الإنسانية ، تجاوز كل حدود الجبروت إلى أن يدعى لنفسه الألوهية ، يذهب موسى إلى هذا الملك الإله محاط بكل أشكال وأنواع السلطة والجبروت والقوة والسلطان ، يدعوه لينبذ تلك الألوهية الكاذبة الفارغة ، التى يدعيها كذبا وبهتانا ، ويؤمن بالإله الحق والصدق ، ولكن ما كان لفرعون أن يتنازل عن تلك المكانة العالية التى تبوأها معتمدا على الظلم والوهم والخرافات ، لينزل إلى أرض الواقع ، وليؤمن على يد موسى ، الذى هو مهين ولا يكاد يبين فى نظره ، وكانت خاتمته كخاتمة كل طاغية وجبار . ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [سورة النازعات:٢٦]

- **الثانية : بنو إسرائيل**

لقد أبتلى موسى فى حياته كثيرا ، تلك الابتلاءات منها ما كان هينا ، ومنها ما كان عظيما ، وجميع الأنبياء والرسل قد أبتلوا ، ولكن لم يبتل نبى بقومه كما أبتلى موسى ، إن موسى يوضع فى مصاف العظماء من الأنبياء بسبب قومه ، **ويحار المرء حينما يسأل نفسه** من أين استمد موسى الصبر على تعنت وتشدد بنى إسرائيل ؟

من أين استم موسى الحلم على إعوجاج خلقة وأخلاق بنى إسرائيل ؟

من أين استمد موسى القوة لتحمل عتامة وقسوة وطبع بنى إسرائيل ؟

من أين استمد موسى تلك الطاقة الجبارة ليكون قادرا على مواجهة ومجابهة غلظة قلوب ، وظلمة عقول ، وتصلب أعناق بنى إسرائيل ؟

لقد حاول أن يعيد تربية بنى إسرائيل ليصلهم بهذا النبع الصافى ، نبع التوحيد من لدن إبراهيم – عليه السلام – مرورا بإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام .

وجاهد ليعيد صياغة ضمائر ووجدان هذا الشعب.

وكافح لينشأ جيلا يكون قادرا على حمل رسالته ودعوته ، حتى يظل بنو إسرائيل على الطريق الذى وضعهم عليه لا يحيدون عنه .

هاتان العقبتان – على ضراوتهما – أخرجتا أعظم وأجل ما فى شخصية موسى – وكل جوانب شخصيته عظيمة وجليلة – وأهلته ليأخذ مكانا ومكانة متميزة بين الأنبياء والرسل .

- **تقييم النبى:**
- ولكن هل من حقنا أن نسأل هل نجح موسى فيما كلف به ؟
- هل حقق موسى كل الأهداف التى كان يريد تحقيقها ؟
- هل وصل إلى كل الغايات التى كا يضعها فى فكره وضميره ؟

تلك الأسئلة تستبطن نوعا من تقييم النبى .... وهذا ليس من حقنا ، وليس بأيدينا المعايير التى تتيح لنا تقييم النبى أو الحكم عليه ، لأن الذى تولى هذا هو الله – y – فهو – وحده – الذى يقيم ويحكم، وقد وضع – y – معيارا للحكم والتقييم ، وهو

أن يقوم النبى بالتبليغ ليقيم الحجة على قومه ، وتلك هى مهمة ودور الرسل الكـرام .

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [سورة المائدة:٩٩]

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة النور:٥٤]

فالرسل ليسوا أوصياء على الناس ، ولا مجبرين لهم عـلى الإيـمان ، وإنـما كـل دورهـم ينحصر فى التبليغ ، وسواء انتفع قوم الرسل بهذا ، أم لم ينتفعوا ، عملوا بمقتضاه أم لم يعملوا ، فهذا خارج اختصاص ومهمة الرسل ، وإن كان شرف طبع الرسـل ، ونبـل مقصدهم ، تجعلهم يتجاوزون دورهم محاولين أن يهدوا قومهم بكل السبل والطرق ، باذلين كل الجهد وأقصى الطاقـة ، والله – y – يخفـف مـن غلـوائهم ويهـدئ مـن حماسهم . ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة القصص:٥٦]

والرسل لا يؤدون هذا الدور على قدر وسعهم فقط ، وإنما يعتبرونـه مسـألة وجـود ، فهم لا يشعرون بوجودهم وكيانهم إلا من خلال تأدية هذا الـدور ، فكـل تفكـيرهم وطاقاتهم وإمكانياتهم مسخرة لتأدية هذا الدور ، وهو إن لم يؤد هذا الـدور أوحالـت عقبات دون ذلك فجميع الآم وأحزان الوجود وهمومه تثقل فؤاده . وقد مر موسى – عليه السلام – بتلك المشاعر والأحاسيس ، حينما وجد قومه – فى نهاية المطاف – لا يسمعون له قولا ، وتخلوا عن دخول الأرض المقدسة ، حينئذ لجأ إلى الله ليحكم بينـه وبيـنهم . وكان حكم الله يتناسب مع عظيم جرمهم وكبر عصيانهم .

الفصل الثانى
فرعون

قد تحمل لفظة ما بعض المعانى الغريبة عن معناها الأصلى وبمرورالوقت تصبح المعانى الغريبة أو الطارئة هى الأشد ألفة وذيوعا من المعنى الأصلى للفظة ، مثل كلمة (فرعون) فمعناها : لقب ملك (مصر) فى التاريخ القديم ، فكل الحضارات القديمة كانت تطلق على ملوكها لقب ، مثل الحضارة الفارسية أطلقت على ملوكها لقب (كسرى) ،والحضارة الرومانية أطلقت على ملوكها لقب (قيصر) ، وظل هذان اللقبان لا يدلان إلا على المعنى الأصلى والمقصود، ولكن الأمر اختلف مع الحضارة المصرية ، فلم يعد (فرعون) لقب يطلق على الملك فحسب ، ولم يعد يدل على مركز أو مكانة أو منصب ، وإنما أصبح يدل على صفة مطلقة وعامة يتسمى به أى فرد اتصف بتلك الصفات ، فهو يدل على الكِبر والعُجب والعتو والطغيان ،وأى شخص اتصف بتلك الصفات ، فاللفظ الجامع الذى يطلق عليه هو (فرعون) .

ولكن ما الذى جعل هذا اللفظ يختص بتلك الصفات دونا عن بقية الألقاب فى الحضارات الأخرى ؟

ربما لأن الملك أو الحاكم فى الحضارة المصرية لم يكن مجرد حاكم أو ملك ، تتجمع فى يده بعض أمور أو شؤون الرعية أو الشعب ، بل كان واسع الاختصاصات مطلق التفويضات ، كثير الصلاحيات ، ليس هناك أمر أو شأن خاص بالشعب أو المحكومين إلا ويملكها فى يده ملكا مطلقا ، مشيئته هى النافذة ، أمره هو المطاع بدون تعقيب أو مناقشة ، سواء فيما يخص الأمور الدنيوية أو الأمور الدينية ،وقد ذكرالقرآن تلك السطوة

المطلقة والهيمنة الكاملة من جانب الفرعون على المحكومين فى أكثر من آية . ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة القصص:٣٨] فهولم يتخيل ولم يدر بخلده أن يكون هناك إله غيره ! ويأخذه العجب أن يكون هناك إله غيره يتوجه الناس إليه بالعبادة والطاعة . ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة غافر:٢٩]وتعقيبا على أنه إله فالرأى ما يراه ،وسبيل الرشاد هوما يدلهم عليه ، ليس هناك رأى آخر مع رأيه ، وليس هناك هدى إلا هداه ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الزُّخرُف:٥١]

فهو إله .

وهو صاحب الرأى .

وهو المالك لمصر .

ولكن من أين اكتسب كل تلك الصلاحيات ؟!

ومن الذى منحه كل تلك السلطات ؟

اكتسبها من الظلم والجبروت والطغيان والعتو والبغى .

وأجبر الشعب المظلوم والمقهور والمذلول على الاعتراف بتلك السلطات ، والصلاحيات التى لم تخول لإنسان من قبل فى تاريخ الإنسانية وفى سجل الحضارات . كل هذا جعل فرعون يتجاوز كل الحدود، ويتعدى كل الخطوط . ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة يونس:٨٣]

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القصص:٤]

وبمرور الوقت أصبح هذا الوضع الشاذ والمنكور وضعا مألوفا ومعترفا به ؛ وذلك لأن هناك شرائح من المجتمع وفئات تجد لها مكانا مميزا ، ومناصب عالية ومنافع كثيرة لأنهم سدنة هذا النظام والحكم ، وهم الكهنة ورجال الملك والحاشية .

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة القصص:٨]وشئ آخر جعل تلك الأرض تستمرئ هذا الحكم الظالم والنظام الطاغى ، تستمرئه وتعتاده ولا تثور عليه ، أو تنتفض ضده ، هو اعتقادها الراسخ أن بقاء حياتها مناطة بهذا الحكم الصارم ، والحاكم الظالم ، فالحياة هنا تعتمد على النهر ، والمجتمع يرتكز على الزراعة ، والنهر والزراعة فى حاجة إلى يد قوية وأوامر مطاعة ، وحكومة مرهوبة الجانب من الجميع ، حتى لا يستأثر أحد بماء دونا عن الآخرين أو يعتدى أحد على أراضى ومحاصيل جيرانه .

" لابد – يعنى – من مجهود بشرى جماعى ضخم حتى تعد الأرض مجرد إعداد لاستقبال البذرة . وبعد هذا فلا بذرحتى توصل المياه إلى الحقول أى لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلى مساقى الحقول . حتى تزرع إذن لابد لك أولا من أن تعيد خلق الطبيعة ، ثم ما جدوى تلك الشبكة إذا لم تسيطر على أعناقها ورؤوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟

- أعنى أى جدوى منها بغير ((ضبط النهر))؟
- وأكثر من هذا، ما جدوى الجميع بغير ((ضبط الناس)) ؟

إن زراعة الرى إذا تركت بلا ((ضابط)) يمكن أن تضيع مصالح الناس المائية فى مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية . ذلك أن كل من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسئ استعماله إما بالإسراف أو يحبسه تماما عمن يقع أسفله ، أى أن كل حوض علوى يستطيع أن أن يتحكم فى حياة – أو موت – كل حوض سفلى ، وكل من يقع على أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع على نهايات الترع . كذلك يملك للمحباة والتحيز أن يسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمن تريد إن العلاقات المائية داخل الوادى بأكمله أشبه ما تمون بقانون الأوانى المستطرقة ، فكل تغير فيها هنا يستتبعه تغيير هناك ، وأى مضخة كابسة هنا هى بمثابة ماصة هناك .

المحصلة إذن واضحة : بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلى شلال محطم جارف ،وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية ويسيطر على الحقول قانون الغاب والأدغال ولو تركت البيئة المصرية إجتماعية لما تطورت عن الغاب الطبيعى الذى بدأت منه " [1]

---

[1] شخصية مصر – د . جمال حمدان – صفحة (٤٣)

لذلك تجمعت فى نظام حكم الفرعون عدة صفات منها :

- أنه مركزى.
- أنه قوى .
- يتضمن هيمنة دنيوية ودينية .
- حق الفرعون فى الحكم حق مطلق ، لا ينقضه فساده أو ظلمه .
- ليس من حق المحكومين أو الرعية محاسبة الفرعون، أو حتى مناقشة أوامره وأحكامه ، فأقواله قانون ، وأوامره مطاعة ، وأراؤه مقدسة.
- هناك شريحة معينة وفئة مخصوصة تتولى صياغة العقول وأسلوب التفكير وتشكيل نظام التعليم، تمارس هذا بكل تعسف وتعنت ، وتحيط عملها بنوع من السرية والقداسة ، ولا يجوز لأحد التبديل والتغيير لما تقول به ، وإلا حلت علية اللعنة والغضب والنقمة ،وهؤلاء هم الكهنة

" فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكثيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الأشياء وحقائق التكوين وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الإفتئات عليه وإلا كان المفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الأمد بهذه الكهانات جيلا بعد جيل وعصرا بعدعصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الأسرار والطلاسم وابتعدت شيئا فشيئا عن نطاق البحث الحر إلى نطاق المحفوظات والمأثورات "[١] إذن هناك ظروف ودواع استدعت وحتمت هذا النوع من الحكم

---

١ إبليس – عباس محمود العقاد – صفحة (٨)

فوجود النهر هو الذى شكل وصاغ نمط الحياة قديما فى مصر . " يمكننا أن نستنتج أن زراعة أرض النيل قد عدلت تكوين السلالات والكيان الإجتماعى وهناك أثر الأريستوقراطية مالكة الأراضى (البات pat) ونعلم أنه كانت هناك قبور للأغنياء وقبور بسيطة.ويمكننا أن نستنتج أن الحاجة إلى تحسين الأراضى اقتضت حكومة مركزية . وقبضت المناطق على السلطة الملكية بالتناوب ، ونمت الأقسام السياسية (الأقاليم) ، التى بدأت فى الأتحاد والاندماج ، إما طوعا أو كرها "[١] وبمرور الوقت لم تعد الزراعة والنيل هما عماد الحياة الأول ، وإنما الحكومة المركزية بكل أجهزتها وإدارتها ، وعصب تلك الحكومة ومدبر أمرها هو الفرعون ؛ لأن أى اضطراب فى أمورالحكومة وأجهزتها- وهذا لا يحدث إلا إذا ضعفت يد الفرعون وتقلصت هيمنته وسيطرته – ينتقل أثره على الفور إلى الحياة ونظام سيرها فى مصر .

" لم تتكون هذا المملكة المركزية المنظمة إلا بالتوفيق بين السيطرة على رواسب الطمى ، وتوزيع المياه على كل جزء من أجزاء المملكة وجمع آلاف العمال المزودين بالفئوس والمقاطف فحسب . فإذا حدثت أزمة سياسية ، اختل نظام توزيع المياه ، وبعد فترة قصيرة من ذلك يختل الاقتصاد ويتدهور "[٢]

وإذا كان المصريون القدماء يقدسون النيل لأنه واهب الحياة ، وغرز فى نفوسهم الحب والإعلاء من قيمة الحياة ، فإن هذا الحب والتقديس انصرف بصورة طبيعية ومنطقية إلى القائم الأول على النيل ومنظمدورة الحياة وتوزيعها على سائر الأقطار ، هذا الأمر يمس

---

١ معجم الحضارة المصرية القديمة – صفحة (٢٥٢)

٢ المصدر السابق – صفحة (١٧٧)

صميم الحياة وأستمرارها وبقئها فى مصر ـ إذن كـان شـعور المصــريين نحـو فرعـون مزيجمن الحب والتقديس والخوف والرجاء ، نفس مشاعرهم نحو النيل ، فهم يحبونه ويقدسونه ويخافون من فيضانه وهيجانه ، وفى نفس الوقت يرجـون خصـبه وعطائـه المتجدد والمستمر

هنا حدث امتزاج أو تماثل بين النيل والحاكم .

" وفى ظل هذا الإطار الطبيعى يصبح التنظيم الاجتماعى شرطا أساسيا للحياة ويتحتم على الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة أعـلى تـوزع العـدل والماء بين الجميع – سلطة عامة أقوى بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد على نهـر فيضـى فى حياتها ومصيرها . وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح وإنما بـين الاثنين يضيف الرى سيدا آخر هو الحاكم ، هنا يصبح الحكم والحـاكم ((وسـيطا)) بين الإنسان والبيئة أو وصيا على العلاقة بينهما وهمزة الوصل بـين الفلاحـوالنهر ، أى أن الفلاح لا يتعامل مع الماء مباشرة وإنما من خلال الحاكم ، وبتعبير آخر فإن الحكومة – فكرة وجهازا – هى بالضرورة أداة التكامل الأيكولوجى بين البيئة والإنسـان إنهـا تبدأ نتيجة وضرورة جغرافية ((لتنتهى عاملا جغرافيا)) بكل معنى الكلمة "[1]

أضف إلى ذلك أن الفرعون كـان يمثـل الحمايـة والأمـن ؛ ذلـك لأن جغرافيـة مصر ـ مفتوحة على العالم بدون حواجز طبيعية من ناحية الشرق ومـن ناحيـة الغـرب ومـن ناحية الشمال ، فهاجس التعرض للغزو والهجوم من أى طامع أو مغامر كـان قـائما فى عقول وضمائر

---

١ شخصية مصر – د . جمال حمدان – صفحة (٤٣ و ٤٤)

المصريين ، هذا عزز من مكانة ومكان الفرعون فى القلوب لا سيما بعد حرب التحرير وطرد الهكسوس من مصر .

على هذا لم يكن الفرعون لدى المصريين إله ، ولا هو بالمعبودبالمعنى المفهوم من العبادة ، ولكنهم نظروا إليه نظرة أنه فوق مصاف البشر ، كنوع من الأمتياز ، أو بما يرمز إليه من أمن واستقرار وحياة وسيادة وسلطان ، أو بما يقوم به من مهام ومسئوليات جسام ومن هذا المنطلق نظروا إليه ، ولكنك فى مثل تلك الأحوال لا تستطيع أن تمنع أن يتحول الإحترام إلى خوف ، والتبجيل إلى رعب وفزع ، والتقديس إلى إرهاب ، لا سيما وإن هذا التحول يصب فى مصلحة الفرعون وييسر مهمته ويوسع من حقوقه ويزيد من سلطته .

" ولعل الحكم الأتوقراطى قد أدى وظيفته فى البداية وإلى حين حيث وضع أسس الحضارة المصرية وأرسى دعائمها ، غير أنه لم يلبث أن تعدى نفسه إلى القهر السياسى والاجتماعى حين أصبح موزع الماء هو مالك الماء . والحاجز بين الرقاب هو المتحكم فى الرقاب وفى هذا التحول كانت ملكية الأرض بالتحديد هى الفيصل فأدوات الانتاج الأساسية فى العالم الفيضى الزراعى هى فى التحليل الخير الأرض والماء خامة الزراعة فالماء وقودها " [1]

ولكن هناك الكثير من المجتمعات والحضارات التى قامت على الزراعة واعتمدت على النهر فى حياتها ، ولم يسر فى ربوعها هذا الحكم الظالم ، والحاكم المستبد الطاغى لذلك فلا الزراعة هى المسؤولة ولا النيل هو المتهم !

---

١ المرجع السابق – صفحة (٤٦)

" وإذا قلنا الأتوقراطية فقد قلنا – أو اقتربنا على الأقل نظريا من – جرثومة الطغيان ، فمن هذه السلطة المطلقة كنقطة ابتداء يكون الانحراف إلى بذرة الطغيان سهلا ، ويكون الخط الفاصل بين الطرفين دقيقا حرجا وبديهى أن الحكم المطلق ليس مقصورا على البيئة الفيضية ومجتمع النهر الهيدرولوجى ولكنه فيهما أيسر منالا وأقرب تحقيقا ، وإذا ما تحقق أكثر اطلاقا وتسيدا دائما ، ومن ثم فهو أقرب ما يكون إلى احتمالات الانحراف إلى الطغيان " [1]

- **الفرعونية**

ولكن هل يستطيع شخص بمفرده أن يقيم مثل هذا الحكم القائم على الإستبداد ، والمستند على الظلم والمرتكز على الطغيان ؟

هل يستطيع شخص بمفرده أن يخضع تلك الملايين ، ويلوى الأعناق ، ويجعل الجباه تسجد له ؟

بالمنطق والعقل لا يستطيع .

ولكن إذا كانت هناك ظروف مواتية تساعد أو تشجع أو لا تعارض ولا تمانع مثل هذا الحكم ، وأيضا هناك إناس يحبذون هذا النوع من الحكم ويؤيدونه ويعضدونه ويؤازرونه ؛ لأنه يحقق مصالحهم الخاصة والشخصية ، وأيضا هناك أنظمة أو أشكال سلطوية لا تستطيع أن تنمو وتستوى إلا فى ظل هذا النظام الذى يحتضنها وترضع منه ما يساعدها على الاستقواء لتكون فى النهاية سندا وعونا له ، **وكان يمثل هذا الوضع أو تلك الحالة :**

---

١ الرجع السابق – صفحة (٤٦)

- عائلة الملك
- كبار الموظفين من وزراء وحكام أقاليم
- كبار الإقطاعيين
- الكهنة .

وغيرهم كثيرون ينتشرون فى طول البلاد وعرضها ، يعملون على استقرار واستمرار وتقوية هذا النظام الظالم والفاسد .

الغريب أن كل هؤلاء كانوا موجودين من قبل وجود الفرعون متخذا هذا الأسلوب المستبد والطاغى ، يمارسون أدوارهم ويجسدون أفكارهم ، لذلك كانوا أول وأخطر وأشد من دفعوا فرعون وساعدوه بل وأيدوه إلى اتخاذ هذا النمط من الحكم ، لذلك فهم الذين شكلوا وصاغوا وأوجدوا الفرعونية .

" وبذلك كله تجمعت كل خيوط القوة فى يد فرعون حتى أفسدته السلطة وتحول الحكم المطلق إليطغيان وجبروت وكبت ، وأصبحت الفرعونية هى الإقطاعية ، والملكية (بفتح الميم) هى الملكية (بالكسر) وذلك بالدقة مفتاح التركيب الاجتماعى فى مصر القديمة ، وليس يقصد بالفرعونية فى هذا فرعون وحده بطبيعة الحالا ، بل وتلك الشرنقة الكثيفة من الإقطاع والكهان والموظفين من القمة حتى ((شيخ البلد)) فكان هيكل المجتمع يتحلل فى عناصره الأولية إلى : ملكية أوتوقراطية طاغية تعتمد على أعمدة ثلاثة :

- لاندوقراطية إقطاعية عارمة (ملاك الأرض)
- وثيوقراطية إقطاعية هى الخرى ومتورمة (رجال الدين)

- إلى جانب بيروقراطية منتفعة متضخمة .

- والكل يقوم على قاعدة عريضة من بروليتارية فلاحة مسحوقة "[1]

• أبشع محتكر في التاريخ

بهذا الشكل ، وبهذا الوضع ، وبتلك الحالة صار الفرعون يملك كل شـيء فى مصرـ كل شيء ، لذلك كان متسقا مع نفسه ومتطابقا مع نظامه حينما قال : ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الزُّخرُف:٥١]هنا هو لا يدعى ملكية جزء أو مساحة من مصر ، ولكنـه يدعى ملك مصر ولايشركه أو يشاركه أحد فى هذا الملك . وقد عبرت الآية الكريمـة أبلغ تعبير من خلال استخدام أسلوب القصرـ(لى ملـك مصرـ) وكـذلك اسـتخدام الأسلوب الإنشائى (أليس) للتقرير ، وكأن الأمر مألوف وطبيعى ولـيس فى حاجـة إلى الإثبات . وانظر إلى كلمة (الأنهار تجرى من تحتى) فالماء عصب الحياة – كما قلنـا –بل هو الحياة ، وطالما تجرى من تحته فهو يملك التصرـف فى مائهـا ، وإذا كـان عـماد النظام فى مصر يدعى ملكية مصر ، فمن هم دونه لهم أن يدعوا ملكية أشياء أخـرى ، وإن لم يكابروا فرعون فى ذلك إلا أن المبدأ موجود وسارى فى ربـوع مصرـ . وبـذلك تنشأ طبقات فى مصر تملك وتتسع ملكيتها وتزداد بمرور الوقـت ، وبـذلك يسـتغلظ نفوذها وتمتدهيمنتها وسلطانها ، وطبقات أخـرى تـزداد فقـرا وعـدما ويهـوم أمرهـا ويضعف شأنها

---

[1] المرجع السابق – صفحة (٤٦ و ٤٧)

" فأما الملكية الأوتوقراطية فيرى البعض ببساطة أن فرعون كان ((أعظم محتكر شهده التاريخ)).

وأما حكم الملاك فكان يمارس على المستوى المحلى بانتظام كدعامات الملكية فى الأقاليم . أما حكم الكهنة فقد وصل إلى درجة خطيرة حقا حيث تضخمت ملكية المعابد غلى حد شاذ وصل فى أيام رمسيس الثالث فى القرن ١٢ ق. م إلى ١٠٧٤٤١٨ فدانا ، ١٦٩ بلدة عدا ١٠٣١٧٥ خادما . بل فى تاريخ آخر وصل إلى خمس سكان مصر وثلث أرضها الزراعية وواضح أن رجال الدين كانوا من أكبر المنتفعين بالنظام مثلما كانوا دعاته وعملاءه ومن أكبر ضواغط المحافظة والأستقرار " [١]

- **مأساة إنسانية**

مجمل تلك الأوضاع شكلت فى النهاية وجمعت خيوط مأساة إنسانية ضحيتها الإنسان البسيط العادى ، أو قل تلك الملايين التى تتحرك على أرض مصر ، يقتاتون بالظلم ويتجرعون الإستبداد ، ويعيشون فى ظلال الطغيان والجبروت أما كل أنظمة الدولة والهيئات فهدفها الأول والأخير حماية هذا النظام الظالم ، ورعاية الفاسدين والمفسدين ، وجعل راية البؤس والعذاب ترفرف فوق رؤوس المطحونين من المصريين ، والغريب أن تلك الصفة هى ما بقيت عليه مصر بعد ذلك لفترات طويلة

" والخلاصة أن المجتمع كان ينقسم تقليديا إلى أقلية تملك ولا تعمل وأغلبية تعمل ولاتملك ، الذين يملكون والذين لا يملكون have haven't ، أو بالأحرى

---

١ المرجع السابق – صفحة (٤٧)

الذين يملكون يملكون وفى كثيرمن الحالات تدهورت الفرعونية إلى ((دولة بوليسية)) تحنى القطاع وحكم الملاك وتجعل الفلاحين فيه ((عبيد الأرض)) . وليست الأهرام فى رأى البعض إلا نصبا تذكاريا هائلا للطغيان ، وهى لا ترمز كماترمز إلى البناء ((الهرمى)) للمجتمع ، وسواء صح هذا أم لم يصح . فإن الفارق بين عظمة وخلود الأثار وبؤس وزوال المساكن العادية فى مصر القديمة إلا وظيفة للطغيان الإقطاعى "[1]

- **لماذا لم تقم ثورة فى مصر ؟**

الحالة التى كان عليها المجتمع المصرى قديما توحى أنه على شفا بركان يوشك على الانفجار ،وكل الأجواء والأحوال والأوضاع والظروف مهيئة لحدوث ثورة ، فما هى إلا شرارة بسيطة وتنفجر الثورة هادرة ؛ فقد جرد هذا النظام الظالم الناس من كل شيء ، لم يترك لهم شيئا سوى العذاب والمعاناة بكافة أشكالها...فلماذا صمت الناس ؟ ولماذا سكتوا؟ ولماذا خضعوا واستسلموا وطال خضوعهم وامتد استسلامهم ؟

أسباب ذلك ثلاثة أمور : عقائدى وجغرافى ونظامى .

- **أما العقائدى** : فهم كانوا يؤمنون بالبعث والخلود تلك العقيدة أو النظرة جعلت هناك ما نسميه بالمعادل الموضوعى ، فإذا كنا فى الدنيا مظلومين ومطحونيين ، والميزان مختل ومعوج .. ففى الحياة الأخرى – البديل أو العوض – سنجد الثواب وحسن الجزاء وسيعتدل الميزان ويستقيم المعوج ،ونحصل على ثواب استقامتنا وبراءتنا فى

---

١ المرجع السابق – صفحة (٤٧ و ٤٨)

هذه الحياة ، وهذا يفسر تلك الدرجة العظيمة والنادرة من الصبر والاحتمال عند المصرى ، فتلك النظرة تجعل المظلوم هو الفائز والظالم هو الخاسر ، وأن الطغاة والجبابرة والعتاة

مآلهم البوار والهلاك ، أما الضعفاء والمساكين والمسحوقين فلهم حسن الجزاء وأطيب الثواب ، والمصرى لا ينقصه الذكاء وسداد الرأى ليدرج نفسه فى أى الفريقين ، فهو يضع عينا على الدنيا والعين الأخرى على الآخرة ، بل فى بعض الأحيان كان يضع العينين على الحياة الأخرى ولا يبالى ولا يهتم ولا يكترث بما يحدث فى الدنيا أو يحدث له

ولاندرى هل ابتكر وتوصل المصرى القديم إلى عقيدة البعث والخلود كنوع من التكيف والتلاؤم بينه وبين واقعه .. أم أن إيمانه بتلك العقيدة هو الذى دفعه أن يقبل ويتحمل ويصبر على الظلم والاستبداد ؟

- **أما العامل الجغرافى** : فأول ما يبحث عنه الثوار أو المناوئين أو المعارضين للحكم والنظام هو الملجأ والملاذ ، كى لا تصل إليهم يد الحاكم الظالم أماكن يختبئون فيها وتضاريس تمكنهم من الكر والفر والهجوم والمباغتة والظهور والبروز وقت اللزوم ، والاختباء والانقباع فى الوقت المناسب .. ولكن لحسن الحظ أو للأسف مصر ليست البلد المثالى الذى يتوافر فيه مثل تلك الجغرافيا .

" فالبلد - المعمور – صغير المساحة ، صارم الحدود : ((عالم متناه)) كالزقاق المغلق ، سهل متواضع ليس فيه من معاقل الالتجاء أو دروب الهرب ما تعرف البيئات الجبلية أو الصحراوية مثلا . ولا يمكن لهارب أو ثائر متمرد أن يبتعد كثيرا عن يد السلطان وقبضته إلا إذا آثر النفى الذاتى تقريبا إلى نهاية العالم فى مستنقعات وبرارى الشمال المنعزلة أومغارات النوبة المهجورة "[١]

ليس فى مصر أماكن تعتبر حضانات للثورة ، بحيث توفر ما تتطلبه أى دعوة أو أى حركة فى بداية أمرها من حماية وإمداد ورعاية . حتى فى دعوات الرسل والأنبياء ، هم – وأصحابهم وأنصارهم – فى حاجة إلى تلك الحضانة ، يظلون قابعين فيها إلى أن تستوى وتستغلظ دعوتهم ، ثم بعد ذلك ينفتحون أو يفتحون أبوابهم على العالم الخارجى ، وحينما يعز وجود تلك الحضانة أو أن المكان لا تتوافر فيه الحضانة ، فإن صاحب الدعوة أو أصحابها يبحثون عن مكان آخر ريثما تنمو وتقوى الدعوة ، وبعد ذلك يعيدون مرة أخرى إلى مكانهم الأول ينشرون الدعوة أو يبسطون الرسالة ، وهذا – كما قلنا – ما لا يتوافرفى مصر أو توفره مصر .

– العامل النظامى : قدر النظام فى مصر أن يكون قويا ، النظام الحاكم فيما يخص هذا الأمر مجبر وليس له الخيرة ، وليس أمامه بديل عن ذلك ، فهذا المكان – مصر – بكل ظروفه الجغرافية والتاريخية والسكانية والعقائدية والفكرية والثقافية أفرز أو أنتج مثل هذا النوع من الحكم . تلك الظروف ثوابت ورواسخ لا تستطيع أن تتجنب أو تغير

---

١ المرجع السابق – صفحة (٤٩)

أو تبدل فيها تنتجه ولكن قد تحدث ظروف أو تجد أوضاع لتجعل هذا النظام رشيدا أو معتدلا أو بعيد إلى حدما عن الظلم والطغيان ، ولكنه فى كل الأحوال هو قوى ،ومـن السهل ومن اليسير الانتقال من مرحلة القوة إلى مرحلة الاستبداد والبطش والطغيـان .

والفترات التى ضعف وتدهور فيها النظام فى مصر – فى الغالب – لم تقم ثورة مستغلة هذا الضعف والتدهور ، مستثمرة عيوب النظام أو أسباب ضـعفه لتطـرح شـكلا أو نوعا آخرمن الأنظمة ، لم يحدث أى استغلال لضعف النظام من الداخل ، وإنما يحدث استغلال هذا الضعف من الخارج ، فى شكل غزاة أو محتلين أومستعمرين ، وتتعرض

مصر لغزو خارجى ، وهذا الغزو يكون بمثابة إنهاء أو القضاء على مرحلة من مراحل أو فترة من فترات هذا النظام .

ولكن تلك الغزوات تكون بمثابـة اختبـار وامتحـات لقدريـة هـذا النظـام ، فحالما يستقوى فى مرحلة أخرى ، ويجمع ويلملم شتات نفسه ، ويستعيد عافيته ويسترد قوته ، يقوم بطرد الغازى أو المعتدى ويمارس ويزاول دوره كما كان من قبل .

الفصل الثالث
السحر

وجد الإنسان ، فوجد السحر .

منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض والبحث والتنقيب عن مصادر القوة وأسبابها يؤرقه ليلا ، ويشغل باله وفكره نهارا ، فقد أدرك إدراكا غريزيا – منذ البدء – أنه لن يستطيع أن يحيا ويبقى ويستمر ويدوم بقاؤه بدون أن يصل إلى ما يجعله الغالب والظافر وسط هذه الغابة

نعم ، فالوجود بالنسبة له غابة قانونها الصراع ، فى كل وقت وكل حين ، وفى كل مكان وناحية صراع بينه وبين الحيوانات ، صراع بينه وبين الطبيعة ، صراع بينه وبين الآخرين ، صراع بينه وبين المجهول صراع بينه وبين نفسه .

هذا المخلوق الغريب والعجيب ، الملقى فى الفلوات الواسعة المحرقة ، أو القابع فى أعماق الجبال فى الكهوف الباردة المظلمة ، أو الذى يعيش مطارَدا ومطارِدا فى السهول والوديان الكئيبة المتجهمة ، لم يشغله أن يسد سعار الجوع – كبقية المخلوقات – أو أن يبحث عن مكان آمن يجد فيه الأمن والاستقرار ، فلا مكان يخلو من الخوف ، ولا مكان بعيدا عن الإغارة والهجوم ، وإنما كان يبحث عن إرضاء رغبة بدأت تتردد داخله ، يبحث عن إرضاء غريزة لا يستطيع إشباعها كما يشبع غريزة الجوع والجنس ، إحساسه وشعوره الغامض والمبهم أنه مختلف عما حوله ، وأمنيته المعذبة أن يكون الغالب والمنتصر ، ليس هذا فحسب ، ولكن المسيطر والمهيمن والمتحكم فيما يراه أمامه ، وكأن الله لم يقدر أن يكون هذا الكون مسخرا له فحسب ، بل أودع داخله رغبة قوية أن يحاول – ما وسعته المحاولة – أن يسخر ما يراه حوله .

ولكى يفعل ذلك لابد أن يلتمس أسباب القوة ليغلب وينتصر ـ ويتحكم ويسيطر لم يمنح قوة جسدية ، فقوة الحيوانات حوله تفوقه بمراحل ، ولم تكن قواه العقلية قد تفتقت بعد عن مواهب وأفكار تعينه كى ينفذ رغبته ، ويحقق أمنيته .

- رغبة جارفة فى الهيمنة والسيطرة بلا حدود .
- فقر شديد وشح فى القوة سواء كانت جسمية أو عقلية .
- كم من الزمن أمضى الإنسان حائرا ومعذبا بين هذين الأمرين ؟
- وكم شهدت جدران الكهوف المصمتة المظلمة الخرساء أرقه وتسهيده محاولا أن يصل إلى المستحيل ؟

وحينما كان يجلس فى الكهف ليال طويلة أمام النار – هذا الاختراع العجيب والغريب والذى سيحدد بداية مرحلة جديدة من تطور هذا المخلوق – مسترجعا ومتذكرا أحداث يومه الحافلة يكتشف أن كل ما حوله يصدر صوتا ، فالحيوانات تصدر صوتا عاليا ومخيفا ، لا سيما المفترسة منها ، وبالأخص حينما تفترس ضحاياها ، والمطر يحدث صوتا حينما يهوى على الجبال والأشجار والأرض ، والرياح تحدث صوتا ، والأشجار والنباتات والرمال والسماء . إذن تلك الأشياء قوية لأن لها صوتا ، فليكن له صوت هو الآخر ، فبدأ يصدر الصوت ضعيفا هينا فى البداية ، ثم قويا مزمجرا ، فبدأت بعض الحيوانات والطيور تخافه وتفر وتهرب من أمامه ، ولكن لم يطل أمد تقليد صوت الحيوانات الغامض المبهم معه ، فقد انتقل إلى مرحلة أخرى ، بدأ فى تكييف وتحوير الصوت – كأى شئ يتوصل إلى معرفته – فأطلق على الأشياء المختلفة المتباينة أصوات مختلفة متباينة أيضا ، فالصوت يتناسب مع الشئ المطلق عليه ، فإذا كان الشئ ضخما

فالصوت ضخم ، وإذا كان الشئ مخيفا فالصوت مخيف ، وإذا كان الشيء هينا وضعيفا فالصوت هين وضعيف ، فالصوت يشابه و يماثل – إلى حد ما –الشيء المقترن به ، كذلك كان هناك أصوات معينة فى حالة غضبه ، وآخرى فى حالة رضاه ، وأصوات يصدرها فى حالة فرحه ، وأخرى فى حالة حزنه وألمه .

لا نستطيع أن نقول إنه فى تلك المرحلة توصل إلى الأسماء ، وإنما هذا الصوت وارتباطه واقترانه باستحضار الشيء أعطاه شيئا من القوة ليسيطر على بعض مفردات وعناصر العالم الذى يعيش فيه ، فمجرد أن ينطق صوتا معينا ، فيستحضر هذا الصوت فى ذهنه مخلوقا ما ، أو شيء ما ، فهذا - بالنسبة له – نوع من التحكم والسيطرة فى هذا المخلوق أو هذا الشيء . ويجب ان نعرف أن الفصل الحاد بين الحقيقة والوهم ، أو بين الواقع والخيال ، لم يكن واضحا لدى الإنسان فى تلك المرحلة ، فليس هناك كبير فرق لديه ، حينما يرى الحيوان وهو عاكف على مضغ العشب فى السهل الواسع الممتد ، والحيوان نفسه على تلك الصورة فى ذهنه ، بل إن الصورة فى ذهنه – والتى يستدعيها الصوت – أكثرواقعية وحقيقة متجسدة ، لأنها – الصورة – يستطيع استدعائها واستحضارها فى أى وقت ، وفى أى مكان ، بينما لا ينطبق هذا على الحيوان وهو يرعى وسط السهل الواسع الممتد ، ويستطيع أن يقتل هذا الحيوان ،ويحمله إلى الكهف ، حيث يكون طعاما سائغا لأفراد القبيلة .

واكتمل هذا الأمر حينما بدأ يرسم وينقل ما بذهنه على جدران الكهف أو يشكله ويجسده بقطع الطين اللينة ، والتى تجف وتجمد بمرور الوقت .

- وما حدث بالصوت .
- وما استحضره فى ذهنه .
- وما شكله ورسمه على جدران الكهف ، وما جسده بيده .
- ما المانع أن يحدث حقيقة وواقعا ؟

لقد حدث بالفعل ، فليس هناك فصل – بالنسبة له – بين الحقيقة والوهم كما قلنا .

الفرق بين الحقيقة والوهم هو اختلاف بين الزمان والمكان .

فتارة يحقق ما يريده خارج الكهف وأثناء النهار .

وتارة يحقق ما يريده داخل الكهف وأثناء الليل .

وما يحدث فى النهار خارج الكهف رحلة صيد ، وعودة بالحيوان المقتول لأفراد القبيلة .

وما رسم وصور داخل الكهف أثناء الليل ، هو أيضا عودة بالحيوان المقتول لأفراد القبيلة .

وبمرور الوقت وتوالى الأجيال أصبح ما يحدث فى الكهف ليلا من أصوات ورسوم ممهدا ومهيئا لما يحدث خارجه . وتطور الأمر أكثر ليكون حافزا ودافعا ، بل أصبح ما يحدث فى الحقيقة والواقع متوقفا ومترتبا عما يحدث داخل الكهف ، من خلال الأصوات والرسوم والتشكيلات والتجسيدات ، وأصبح هو القوة الفاعلة والقدرة المتصرفة ، بل هى الكافية أن تحدث ، ولا يعنينا بعد ذلك ما يحدث فى الخارج .

وبذلك استطاع الإنسان أن يحقق الرغبة فى الهيمنة والسيطرة ، بدون تكلفة من جهد عضلى أو جهد عقلى وهذا هو الإطار العام للسحر، أو الدافع والحافز له ، أما أهم مبدأين من مبادئه فهو الصوت والصورة ، "

غير أنه من الممكن أن نذكر مبدأين من مبادئه الأساسية وكلاهما قائم على فكرة وجود تجاذب خفى بين الأصوات المتشابهة أو فيما بين الأجسام المتشابهة .

كان السحر أولا وقبل كل شئ إيمانا مطلقا بالقوة الخلاقة للصوت ، لم يعتبر الشخص البدائى اسم الكائن الحى أو الجسم وسيلة عملية لتسهيل تبادل الأراء بين الناس ، بل اعتبره الكائن الحى أو الشئ نفسه ، وتزخر قصص الخليقة بفقرات تنص على أنه ما على الخالق إلا أن (ينطق) باسم كل عنصر من مكونات الخلق حتى يبادر ذلك العنصر فى الحال بأن يأخذ مكانه المعين له .

والمبدأ الثانى ، أو الظاهرة الثانية فى السحر المصرى هو القوة الخلاقة للتمثال ، فكما أن النطق باسم إله ما ، كان يأتى به فى حضرة الإنسان ، كذلك صنع تمثال أو عمل صورة لرجل أو لشئ ينقل إلى ذلك التمثال الجديد أو الصورة جزءا من الشخصية الروحية لذلك الرجل أو الشئ ، وهناك وجهة نظر أخرى تقول بأنه كان يمد الإنسان بوسيلة للسيطرة على ذلك الرجل أو الشيء .

وتدخل جميع الطقوس السحرية التى استخدمت التعاويذ والصيغ فى نطاق المبدأ الأول من هذين المبدأين ، ويشتمل المبدأ الثانى على كل محاولة لتمثيل ((الحقيقة)) أو الكائنات باستخدام الصور والتماثيل من حصول الشخص الميت على مائدة زاخرة بالأطعمة أو لدرء الخطر وقت الحاجة بتحطيم تمثال العدو "[1]

---

١ معجم الحضارات المصرية القديمة – صفحة (١٨٧)

- عجز مطلق ، نتج عنه قوة مطلقة .
- هذا هو المفهوم العام لما سمى بالسحر .
- هل السحر علم ؟

وقد مر السحر بمراحل كثيرة ، وتغير وتبدل ، تبعا لتبدل وتغير رغبات وأحوال الإنسان ، ولا نستطيع ان نقول إنه تطور ، فكل ما كتب فى السحر – وليس عن السحر – يعد من الأسرار التى لا يجوز الاطلاع عليها ، وهو إن كتب فيه فبأسلوب تغلب عليه الألغاز والغموض والتعتيم ، وأغلب كتب السحر مجهولة المصدر ، مجهولة المؤلف ، مجهولة الزمان ، مجهولة المكان ، وأغلبها – أيضا – يعتمد على التهويل والتضخيم والمبالغة ، لذلك لا يمكن اعتبار السحر علما ، وإن كان يعلم ويتعلم ، بمعنى أنك تستطيع أن تنقله للآخر ، والآخر يأخذه منك ، ولكن ليس كل ما يتبادله الناس ويشتركون فى ذلك يكون علما .

فالعلم يقوم على الجهر والإعلام والوضوح .

وهذا يقوم على الخفاء والتعتيم والغموض .

والعلم هدفه الإفادة على المدى القريب أو البعيد للإنسانية جمعاء .

وهذا يقوم على الضرر أو إفادة فئة معينة من الناس ، أو أحاد الناس ، وقد تعتمد تلك الإفادة على الضرر بالآخرين .

والعلم جهد إنسانى صرف .

السحر جهد يشترك فيه الإنسان مع الجن والشياطين .

العلم لحمته وسداه المنطق والعقل .

والسحر لا يجافى شيئا قدر تجافيه المنطق والعقل .

العلم محاولة شريفة ونبيلة لا تخلو من الجهد المضنى والتفكير الطويل للوصول إلى أسباب ومصادر القوة فى الكون .

والسحر محاولة خبيثة ولئيمة للاستحواذ على مصادر وأسباب القوة واحتكارها دونا عن الآخرين .

السحر في القرآن:

وقد لخص القرآن الكريم قضية السحر تلخيصا معجزا فى آية فى سورة البقرة .

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة البقرة:١٠٢]

نلاحظ هنا أموركثيرة منها :

السحر يوجد حيث توجد القوة ، أو يتخيل وجودها ، فكل مصدر من مصادر - القوة أو سبب من أسبابها يجهل مصدره يعزى إلى السحر ، أو عدم الاعتراف والاقرار بمصدر هذه القوة – مع العلم بها – يرجع – أيضا – إلى السحر ، إذن فالسحر يوجد

- حقيقة أو تخيلا – مع الجهل بمصدر القوة ، أو مع إنكار وجحود هذا المصدر .

ولم تعرف الإنسانية ملكا كانت دعائمه القوة مثلما كان الأمر مع ملك ((سليمان)) عليه السلام . " كانت معجزات سليمان عليه السلام ، أن يركب الريح ، وأن تجرى بأمره وأن يتحكم فى الجن ويستخدمها فى الأعمال على اختلافها ، ويحضرها ويصرفها ، ويطلق بعضها ، ويقيد بعضها ، وأن يجمع الطير إذا شاء ويرسلها إذا أحب ، وهكذا مما طلبه وأجيب إليه ، وحدثتنا عنه الآيات ، فى قوله سبحانه وتعالي﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة ص: ٣٥-٣٩] ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة النمل:١٧] ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النمل:٢٠] لأول مرة فى التاريخ الإنسانى كله – فيما نعلم – يجتمع الإنس والجن والشياطين فى صعيد واحد ، ويكونون تحت قيادة موحة ، ويخدمون هدفا واحدا ، وهذا فى حد ذاته قرب ما بين العالمين ، عالم الجن وعالم الإنس ، أو ألغى الهوة الفاصلة بينهما ، وجعل هناك تعاون – من نوع ما– ما بين الإنس والجن ، كل منهما يعاون الآخر حسب طبيعته ، وكل منهما يعرض ويقدم خدماته نظير ما يراه مكافئا لتلك الخدمات من أجر . أما الجن فلديهم العديد من مصادر القوة وأسبابها ، أما الإنسان فهو فى مسيس الحاجة إليها ولا يملكها ، ولكن ما الذى سيدفع الجن لتقديم خدمات للإنسان ؟

وما الذى سيقدمه الإنسان للجن نظير تلك الخدمات ؟

الاضلال والجحود والكفر .

سيعطى الجن الإنسان بعضا من مصادر القوة – على الحقيقة أو على الوهم والتكذيب – فى سبيل أن يضل الإنسان ويجحد ويكفر ، وبمجرد أن تؤمن بأن هناك مصدر من مصادر القوة والحول عند غير الله ، فهذا إضلال وجحود وكفر وكان أن وجهت أول السهام والطعنات (لسليمان) عليه السلام ، ومحاولة نقض نبوته ورسالته ،" فى ضوء هذه المعجزات نشط السحر وكثرت أباطيله ، ودأب الساحرون على إفكهم ليقاوموا هذه المعجزات ويكذبوها فى إعتبار الناس ، ويصوروا لهم أن سليمان لا يأتى بمعجز ، ولا يختص بتأييد من الله ، حتى تأثر بذلك جمهرة من البسطاء وحسبوا أنه لا فرق بين ما يصدر عن دعاة السحر وما يأتى به سليمان ، وأدى بهم ذلك إلى أن يزعموا للناس أن كتبهم التى يعتمدون عليها فى التعاويذ والرقى والأبخرة واستخدام الجن هى نفسها من كتب سليمان وكأنهم نجحوا أو كادوا فى اقناع أفراد من القوم بأن الكفر الذى يجرونهم إليه هو من دعوة سليمان التى جاء بها .

وغنى عن الايضاح أن هذا نقض للرسالة من أصلها ، وأنه غاية ما يصدر عن المخالفين من خيانة الله ، وكيد خبيث لرسله والله لا يهدى كيد الخائنين ، وإنما يبتلى بعض عباده "[١] وحينما يسند الشياطين القوة والحول إلى أنفسهم ، ويعرضوا خدماتهم على الإنسان بأنهم أصحاب قوة وحول فقد كفروا ، وكل من يتصل بهم بأى صورة من الصور –

---

١ نفحات من القرآن الكريم – الشيخ – عبد اللطيف السبكى – صفحة (٦٠)

وفق هذا المنطق – فقد كفر ، أو هم يحاولون تكفيره . " قال صاحب الكشاف : وقوله تعالى (عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ) أى على عهد ملكه وفى زمانه ، وذلك ان الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها إلى الكهنة ، وقد دونوها فى كتب يقرءونها ويعلمونها للناس ، وفشا ذلك فى زمان سليمان – عليه السلام – حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون :ما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره ، وقوله تعالى : ﴿... وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ...﴾ [سورة البقرة:١٠٢] معناه : وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد إضلالهم ، وصرفهم عن عبادة الله – تعالى – إلى عبادة غيره من المخلوقات . ففى الجملة الكريمة تنزيه لسليمان – عليه السلام – عن الردة والشرك وتبرئه له من عمل السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زورا وبهتانا ودلالة على أن ذلك السحر الذى نسبوه إليه وباشرته الشياطين نوع من الكفر "[١]

- **الشياطين والسحر:**

هنا بدأ السحر مرحلة أخرى ، كان فيها مضى عمل إنسانى بحت ، رغبة معذبة مستحيلة لامتلاك القوة ، والعمل بصورة أو بأخرى للتوصل إلى هذا الهدف ، بأى شكل من الأشكال ، هنا تدخل الجن وعرضوا على الإنسان ، أو الإنسان هو الذى طلب ذلك ،

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – صفحة (٢٢٦)

ليصل إلى القوة ، قد اعترف الجن بذلك . ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [سورة الجن:٩] فالآيات تبين أن هناك تعاونا واستعانة من الإنس بالجن ، وأن الجن – كما هو معروف – يقدرون على ما لا يقدر عليه الإنس ، فهم – الجن – يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع ليعلموا ما يدور بين الملائكة من أحاديث، ليأخذوها ، ثم يقوموا بتحريفها وتزويرها ، وإخبار الإنس بها ، رغبة فى الإيهام أنهم يعلمون الغيب ، " من تدبير الله فى ملكه أن يفضى إلى الملائكة بما كان غيبا ثم حان وقته فلم يعد غيبا ، والملائكة فيما بينهم مناجاة بما ألقى إليهم من شئون كونية ، وكانت للشياطين جولات علوية تمكنهم أن يسترقوا السمع مما يدور بين الملائكة ثم تهبط الشياطين بما تلقفته ، وتخلط حقا بباطل ، فتضيف إلى ما سمعت كثيرا من الأكاذيب الشيطانية ...وينتهون بذلك كله إلى أناس من الأشرار نصبوا أنفسهم للضلال ، واتخذوا الشياطين أولياءهم ، فأصبح شياطين الجن وشياطين الإنس أعوان فتنة ، ودعاة إفساد (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون).ثم ظهرت موالاة أناس للجن بشكل واضح فى عهد إدريس عليه السلام ، وكان علم السحر فاشيا حينئذ بين الناس ، فاستطاع السحرة أن يستعينوا بما يأخذون عن الشياطين (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا).

وكانت الوسيلة لهؤلاء المفسدين إلى السحر تجارب وقعت لهم ، وصيغا حفظوها من كتب لا ندرى مصدرها ، كما كانت المنكرات وسيلتهم فى التقرب إلى الشياطين ، فهم يرددون ما يوسوس إليهم مردة الجن ، ويفعلون من الكفريات ما يعجبهم ، ويستهينون بما لا يقدم عليه إلا من خبث نفسه ، وفسدت طويته وطاب له أن يمعن فى الشر ، قولا وعملا وعقيدة ليرضى شهوته وشيطانه .

راجت أباطيل السحرة بأرض بابل – العراق – فجرف الناس تيار السحر ، وفتنتهم تخيلاته ، حتى ألتبس عليهم الحق بالباطل وزعم أو زعم كثير منهم ، جواز الأخذ به على الاطلاق فى غير حرج وتزعزت عقيدة الناس فى كثير من الحقائق الدينية ، فظنوا أن السحرة يعلمون الغيب ، ويخبرون بالمستقبل ، وأن مقام السحرة أشبه بمقام الأنبياء وهكذا "[1]

- **الملائكة والسحر:**

أوصل السحر الناس إلى منزلق خطير للأسباب التالية :

- أصبح للسحر مكان هام وخطير فى حياة الناس ، وهذا من شأنه أن يفسد ويدمر تلك الحياة .
- وبالتالى أصبح السحرة يمثلون الملجأ والملاذ الأول والأخير، وهم – فى الحقيقة – رسل الفساد والإفساد فى كل مكان يكونون فيه .
- أضفى السحر على أهله – حقيقة أو وهما – هالة من التقديس والاجلال مكنتهم أن يعبثوا بمصائر وأقدار الناس .

---

١ نفحات من القرآن الكريم – الشيخ عبد اللطيف السبكى – صفحة (٥٧ و ٥٨)

ضعف إيمان الناس بالله ، بل أوشك أن يقضى عليه ، لأنه أصبح لدى الناس خلطا والتباسا بل يكاد يكون تطابقا بين المعجزة والسحر وبين النبى والساحر ، بالنسبة لهم لا فرق ، فكل نبى ساحر وكل ساحر نبى ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة النمل:١٣] ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾ [سورة الزخرف:١٣] ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [سورة القصص:٣٦] ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٤٧] ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة ص:٤] ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴾ [سورة القمر:٢] وهذا فى حد ذاته قمة الفساد والإفساد ، وبهذا أوصل السحر الناس إلى الدرك الأسفل من الضلال والضياع بحيث لا يصلح معهم شيء ، ولا يستطيع شيء أن يصلحهم .

وما كان الله ليذر الناس هكذا، والضلال والفساد يختم على أذانهم وعيونهم وقلوبهم . فأرسل إليهم ملكين - ولم يرسل نبيا – لأن الهدف إنقاذ مقام النبوة السامى من هذه التراهات ، والرحض عن وجه النبى الوضيء هذه الغشاوات . هذان الملكان يأخذان بأيدى الناس يدخلونهم فى تجربة عملية ، لا يحذرونهم من السحر ، ولا يكرهونهم فى السحر ، ولا يبعدونهم عن السحر بل يعلمونهم السحر ذاته ، وكما يقولون (لا يفل الحديد إلا الحديد) ، وقد اختار الله هذا الوقت رحمة بالناس ، لأن الأمر وصل إلى منتهاه ، واختير هذا المكان بصفة خاصة – بابل – مع أن السحر كان منتشرا فى العالم كله

لأن هذا المكان كان قد طم فيه السحر وطغى . " والذى انزل عليهما هو وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به ليعرفاه الناس فيتجنبوه على حد **قول الشاعر**:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه .

فالشياطين عرفوه فعملوا بـه ، وعلمـوه للنـاس ليسـتعملوه فى الشرور والمآثم بينما المؤمنون عرفوه واستفادوا من الاطلاع عليه فتجنبوه . هذا واختصت بابل بالإنزال ، لأنها كانت أكثر البلاد عملا بالسحر ، وكان سحرتها قد اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم فى أبدانهم وعقولهم وأموالهم ، ثم جروهم إلى عبادة الأصنام والكواكب فحدث فساد عظيم ، وعمت الأباطيل فألهم الله – تعالى – هاروت وماروت أن يكشفا للناس حقيقة السحر ودقائقه ، حتى يعلموا أن السحرة الذين صرفوهم عن عبادة الله إلى عبادة الكواكب وغيرها قد خدعوهم وأضلوهم ، وبذلك يعودون إلى الصراط المستقيم "[1]

ولم يتوقف عمل الملكين على تعليم الناس السحر ، بل بعد ذلك حذروهم من مغبة السحر ، وسوء منقلب من يعمل بـه ويستخدمه فى الاضرار بالنـاس وأن تعليمهم الناس السحر ما هو إلا فتنة وابتلاء ، حتى يكون الناس على بصيرة من السحر وعلى بينة من أمرهم فلا يكفروا ، وكأن السحر أكبر وأخطر منزلق إلى الكفر .

" وقوله تعالى : ﴿...وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ...﴾ [سورة البقرة:١٠٢] بيان لما كان ينصح به الملكان من يريد تعلم السحر منهما ، والجملة حالية من هاروت وماروت .

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد الأول – صفحة (٢٢٨)

والفتنة ، المراد بها هنا الابتلاء والاختبار ن تقول : فتنت الذهب فى النار ، أى اختبرته لتعرف جودته ورداءته .

والمعنى : أن الملكين لا يعلمان أحدا من النـاس السـحر إلا وينصـحانه بقـولهما إن مـا نعلمك إياه من فنون السحر الغرض منه الابتلاء والاختبار لتمييز المطيع من العـاصى ، فمن عمل به ضل وغوى ، ومن تركه فهو على هدى ونور من الله ، ولاظهار الفـرق بين المعجزة والسحر ، فحذار أن تستعمل ما تعلمته فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين . كما كفر السحرة بنسبتهم التأثيرات إلى الكواكب وغيرها من المخلوقات . فالمقصـود من تعليم الملكين للناس السحر ، فضـح أمـر السـحرة الـذين كثـروا فى تلـك الأيـام وادعوا ما لم يأذن به الله ، واظهار الفرق بين المعجزة والسـحر حتـى يعلـم النـاس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بمرور الأيام أنهم أنبياء ليسـوا كـذلك ، وإنـما هـم أفاكون ، وأخبروا على أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتنة للمبالغـة فى الاقـرار بـأنهما لا يملكان نفعا ولا ضرا لأحد ، وإنما هما فتنة محضة وابتلاء من الله لعباده لتمييـز المطيـع من العاصى "[1] وللسحر أضرار وكوارث ومصائب لا حصر لها ، ولكن أخطر وأبشـع وأفظع ما يفعله هو تمزيق العلائق والوشائج بين الناس ، تبديد تلك العهود والعقـود والمواثيق بين الناس وبين الله والناس ، وإذا مزقت أو قطعت تلك العهود والمواثيـق ، فقد وصلت إلى الفساد والاضلال من أقرب وأسهل طريق ، وإذا حدث بـين النـاس ذلك ، هان عليهم كل شيء ، وأكثر ما يمس حياة الناس اليومية أو أكثر مـا يهـدد أى مجتمع إذا ضعفت تلك الرابطة

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد الأول – صفحة (٢٢٩)

أو وهن العقد بين المرء وزوجه. هنا مركز الصلاح فى المجتمعات ، كما أنه موطن وبؤرة الفساد ، وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة . " وخصص سبحانه هذا اللون من السحر بالنص عليه للتنبيه على شدة فساده وعلى شناعة ذنب من يقوم به . لأنه تسبب عنه التفريق بين الزوجين الذين جمعت بينهما أواصر المودة والرحمة "[1]

- **تقييد أثر السحر:**

أما أن للسحر أثر ، وللساحر تأثير ، فلا نستطيع أن ننكر ذلك .

وقد يعز على البعض أن يعترف بذلك ، بحجة كيف تنعتون السحر بكل تلك الأوصاف الفاسدة ، وتصفون الساحر بكل تلك السمات المضللة ثم تقولون بعد ذلك إن له تأثير ؟ !!

ومن قال إن الفساد والضلال ليس له تأثير بل لتجدن كل ما هو ضار ومفسد ومضلل له تأثير فى الإنسان أشد وأكثر – فى بعض الأحيان – من الصالح والهادى ، ذلك لأنه يصادف هوى من النفس ، ويرضى غرائز ونوازع الإنسان الملحة عليه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن طبيعة الإنسان وجبلته قابلة – وبشدة – للتأثير مع تفاوت فى الدرجة والقدر بين كل إنسان وآخر ، ولكن ما من إنسان إلا ويتأثر، حكمت وقضت بذلك الطبيعة والخلقة والجبلة ، وهذه نقطة الضعف التى يلج منها الشيطان إلى

١ المرجع السابق – صفحة (٢٢٩)

الإنسان ويستغلها ، فالشيطان ليس له كل هذا الهيلمان والقدر والقوة ، ولكن الضعف في طبيعة الإنسان بدليل قوله – تعالى – ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) ﴾ [سورة النساء:٧٧]ولكن هذا الضعف مع قابلية تأثر الإنسان يصبح قوة ، أو إذا أجيد استخدام هذا الضعف لم يعد ضعيفا .

فالسلاح الأزلى للشيطان هو (الوسوسة) ، مجرد كلمة من حرفين مكررة ، ولا قدرة ولا سلطان للشيطان على الإنسان ، وقد نص القرآن على هذا الأمر فى سورة إبراهيم ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [سورة إبراهيم:٢٢]

- دعوة من الشيطان.
- استجابة من الإنسان .

وقد حسم الشيطان القضية بهذا الأمر ، ولأنه لم يفعل الكثير ، وليس لديه من القدرات ولا من السلطان ما يجبر الإنسان على أن يتبعه ، فاللوم لا يقع إلا على الإنسان ، لأنه هو الذى قبل الدعوة وكان من الممكن أن يرفضها ، وهو الذى استمع له وكان من الممكن أن يصم أذنيه .

فالإنسان مادة خام قابلة للتشكيل ، قابلة للتأثير ، قابلة للاستهواء ، قابلة للايحاء ، هذا مبدأ عام ، وقانون خلقى يحكم الإنسان ولا مراء فيه ، تلك القابلية، والتى هى بالطبع وليست بالعقل والإرادة – وإن كان العقل والإرادة يرشدانها إلى حد ما – تفسر الكثير من الأمور التى يحار العقل فى تفسيرها ، فهذا التفسير قد يتخطى الزمان ويتخطى المكان ، ويتخطى الأحياء إلى الأموات ، ويتخطى الحاضر إلى الماضى ،ويتخطى الواقع إلى الأحلام ، ويتخطى المعقول إلى اللامعقول ، والبعض – على مدار التاريخ الإنسانى – استغل تلك القابلية وزاد من اتساعها لدرجة أنه جعل الكواكب والنجوم والأفلاك تاثيرا على الإنسان ، وأن كل تلك الأشياء على قدر ونصيب فى تشكيل قدر الإنسان .

البعض – ومنهم السحرة – استغل تلك القابلية بالحقيقة تارة ، وبالوهم والخيال تارة أخرى ، وبالخرافات والتراهات مرة ثالثة . ويظهر هذا بوضوح عند الضعفاء شخصية وعقلا ووجدانا ، فهؤلاء هم أول الضحايا ، ويقرر علم النفس هذا كحقيقة ثابتة " ومن الحقائق المقررة فى علم النفس ومن خبرات الحياة اليومية أن الشخصية التى تقع تحت تأثير السحر أو الحسد تكون شديد القابلية للإيحاء ، والإيحاء هو التصديق والإيمان بالشيء الذى يقال أو يوحى به بغير براهين تساق وبغير أدلة يستعين بها الموحى ، والواقع إن الإقناع بمثابة سيطرة عقل على عقل آخر بصدد الموضوع الذى يتم الإقناع والإقتناع به . أما الإيحاء فإنه سيطرة وجدان على وجدان آخر ، أعنى سيطرة الموحى بوجدانه على الموحى إليه وعلى وجدانه وعواطفه . نعم إن هذه

السيطرة تتخذ لها موضوعا معقولا من الموضـوعات التـى يـتم الإيحـاء بهـا . ولكـن الصبغة الغالبة فى الموقف أو الأداة المستخدمة لا تكون المنطق والأدلة والشواهد بـل الوجدان والاستمالة .

على أن القابلية الشديدة للايحاء تعنى فى نفس الوقت بطلان كل مقاومة نفسية بـإزاء الشخص الذى يقوم بالايحاء . فالموحى إليه يكون قد سلم فى هذه الحالة كل مقاليـده للموحِى ، أو بتعبير آخر يكون فى حالة انسحاق نفسى أمام الموحِى، وفى مقابل هـذا الموقف الاستسلامى اللامتعين ، هناك موقف التحرر النفسـى والتعـين ، ففـى حالـة القابلية الشديدة للإيحاء يفقد الشخص حريته النفسية وتحديد معالم شخصيته وتمايزها من الشخصيات الأخرى ، وينتهى إلى حالة من اللاتعين ومن انمحـاء الشخصـية ... إنه يصير بمثابة مرآة عاكسة لما يقدم إليه بغير أدنى تعديل لما تستقبله مـن مـؤثرات أو ايحاءات " [1]

تلك القابلية ليست صفة ثابتة ، وليست بمعدل واحد عند كل الاشخاص ، بـل هـى متفاوتة وبنسب مختلفة ، وهذا راجع إلى أشياء كثيرة ، منها الشخصية الثقافة ، التعليم ، التجارب ، البيئة ، الزمان ن المكان . الخ

---

١ السحر والتنجيم – د . يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (١٤٥ و ١٤٦)

- **الخوف .**

يعتبر الخوف من أهم العوامل المساعدة لاضعاف مقاومة الشخص ، فهو بمثابة الأرض الخصبة التى تقبل أى بذرة من البذور التى تلقيها فيها ، فالخائف مثل الغريق يمسك ويتمسك بأى شئ يمتد إليه ، حقيقة أو وهما ، صدقا أو كذبا، فهو يتمنى أن يخرج أو يهرب من تلك الحالة النفسية ، وكلما حاول الخروج كلما ازداد خوفه ورعبه ، لأن الخروج من حالة الخوف لا يقتضى هروبا وإنما مواجهة .

" وغنى عن القول إن التذرع بالشجاعة والاستمساك بالجرأة لما يدرأ عن الإنسان القابلية الشديدة للإيحاء. ومعنى هذا بتعبير آخر أن الخوف من أهم العوامل التى تسبب وقوع الشخص فريسة للإيحاء فلكى يسيطر شخص عليك من الناحية النفسية ، فلابد له أن يبدأ ببث الخوف فى نفسك ، ومن ثم فإنه يستطيع أن يسلبك إرادتك النفسية وبذا يمكنه أن يضع فيك البذور النفسية الى يريدها . فإشاعة الخوف فى نفس الموحى إليه أو المسيطر عليه لابد أن يبدأ باقتلاع كل مقومات الشجاعة ورباطة الجأش من نفسك قبل أن يقدم ايحاءاته " [1]

- **شخصية الساحر .**

جل الاهتمام كان منصبا على السحر فقط ، مع العلم ليس ثمة سحر بدون ساحر ، ولن تكتمل معرفتنا بالسحر بدون أن نعرف مكونات شخصية الساحر أو الوازع والدافع الذى حدى بالشخصية أن تمارس مثل هذا العمل .

---

١ المصدر السابق – صفحة (١٥٢)

ليس أى إنسان يصلح أن يكون ساحرا لمجرد رغبته فى ذلك ، فالساحر قبل أن يكـون ساحرا بالفعل ، كان ساحرا بالقوة ، بمعنى أن الساحر شخصية حـائزة – بـالفطرة – على قدرات ومواهب فوق العادة ، يتمتع بصفات وسـمات لا يتمتـع بهـا الآخـرون ، وهذا وحده لا يكفى ، فلابد لتلك الشخصية أن تعرف وتعى القدرات ، وتعمل على تنميتها وصقلها والتحكم فيها وإجادة استخدامها واستعمالها بكل قدرة وتمكن وذكاء ، وأن تمزج كل هذا بالعلم والفن ، أو بأى أداة أو أساليب التـى تمكنهـا أن تكـون لهـا وضع

ومركز خاص ، بما تقدر عليه من أعمال وإنجازات تفوق أعـمال وانجـازات الإنسـان العادى .

وليس هناك نمط ثابت مـن هـؤلاء ولا طـراز مسـتقر ، ولـيس قـدراتهم متشـابهة أو متطابقة ، فمنهم من تجعله قدراته الشخصية وإمكانياته العقليـة فى الصـف الثالـث ، ومنهم من يتمكن أكثر فيكون فى الصف الثانى ، ومـنهم مـن يتفـوق ويبـز الآخـرين فيكون فى الصف الأول من القدرة والمهارة .

" يقول بن خلدون فى مقدمته بشأن شخصيات السحرة : ((والنفوس السـاحرة عـلى مراتب ثلاثة : يأتى شرحها . فأولها المؤثرة بالهمة فقط مـن غـير إلـه ولا معـين وهـذا الذى تسميه الفلاسفة السـحر ، والثـانى بمعـين مـن مـزاج الأفـلاك أو العنـاصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات ، وهو أضعف مرتبة من الأول والثالث تأثير فى القوى المتخيلـة فيتصرـف فيهـا بنـوع مـن التصـرـف ويلقـى أنواعـا مـن الخيـالات والمحاكات وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه

المؤثرة فيه ، فينظر الراؤون كأنها فى الخارج وليس هناك شئ من ذلك ، ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة ثم هذه الخاصية تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها . وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة ، ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهى لذلك وجهة إلى غير الله وسجود إلى غير الله كفر ، فلهذا كان له سحر والكفر من مواده وأسبابه)) "[1]

وسواء كل تلك الصفات التى يتصف بها السحر كانت على وجه الحقيقة أو الوهم والخيال ، أو كانت مبالغة خارجة عن الحد المعقول ، وسواء وجد هذا الساحر المتصف بكل تلك الصفات بالفعل أم أنه شخصية متخيلة كمئات الشخصيات التى صاغتها عقول وضمائر البشر ، إلا أن هذا كان يتعامل معه – من قبل الناس – كحقيقة ثابتة لا تقبل الشك ، وفى هذه الحالة أنت لا تبحث عن الحقيقة مجردة ، وإنما تبحث عنها وهى متلبسة بقلوب وعقول الناس . وقد بذل الساحرون مجهودا جبارا واتخذوا أساليب لا حصر لها ، واستعملوا أدوات غاية فى الابتكار والمهارة ، ولجأوا إلى حيل عجيبة وغريبة ليكتسبوا احترام وتبجيل الناس وتقديرهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليكونوا قادرين على ممارسة هذا النوع من العمل بكفاءة وحسن إداء ليصل إلى النتيجة المرجوة .

---

١ السحر والتنجيم – د. يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (١٣٤ و ١٣٥)

" أما شخصية الساحر فإنها لا تكون غالبا شخصية عادية ذلك أن الطقوس السحرية تعزف به عن الحالة المألوفة للشخصية العادية ، فعلى الساحر أن يتذرع بخبرات معينة وأن يشبع شخصيته بها ، وعليه فى نفس الوقت أن يراعى فى حياته مجموعة من الممارسات الايجابية عليه أنة يتحاشاها تماما فى فترات معينة فمن حيث الممارسات الإيجابية فعليه أن يواظب على مجموعة من الطقوس والتدريبات السحرية التى تتصل بتشكيل وجدانه وعقليته ، أما الطقوس السلبية فإنها تتلخص فى الامتناع عن القيام بتناول بعض الأطعمة والامتناع أيضا عن الاضطلاع بممارسات معينة والانقطاع عن الناس لفترات طويلة وأيضا الصوم الانقطاعى لفترات محدودة قبيل ممارسة السحر والاتصال بالعالم الفوقانى ، فتلك الطقوس تجعله ((يدخل)) و ((يخرج)) من العالم . والواقع أن الغالبية العظمى من السحرة كانوا أطباء متخصصين فى علاج مرض ما ثم يمموا السحر الأبيض . حيث أن السحر الأسود كان من اختصاص الساحر المؤذى sorcier وقد ساد الاعتقاد بأن الساحر صاحب السحر الأبيض magician متمتع بقوة أكبر مما يتمتع الساحر المؤذى ، وأن بمقدوره مقاومة تأثير أعماله المؤذية . وبالاضافة إلى أن الساحر من النوع الأول يكون موهوبا بقدرة خاصة ، ولديه استعداد شخصى معين فيجب أيضا أن يخضع لتدريب طويل . ولعل الخصائص الشخصية الى غرست بالفطرة فى شخصية الساحر هى التى تميزه من سائر الناس، وهى الخصائص الشاذة التى تجعل منه شخصية فريدة فى كل اعتبار سواء من الناحية الجسمية أم من الناحية العقلية ، أم من ناحية السلوك أو طريقة التعامل مع الآخرين ، أضف إلى هذا إفادته من فرصة مواتية بالذات فى ممارسة حرف معينة مرغوب فيها مثل التحكم فى المعادن وصنع السيوف وصنع العقاقير" .

• السحر فى مصر:

وجد السحر فى مصر كما وجد فى كل المجتمعات الإنسانية ، إلا أن السحر فى مصر كان له وضع خاص ، فهذا مجتمع يقوم أساسا على القوة ، يقدس القوة فى كل صورها وأشكالها وأنواعها ، وكما قلنا إن السحر أقصر وأيسر طريق للحصول على القوة ، ولأن المجتمع قوى ، والسحر وسيلة إلى القوة ، فقد كان السحر فى مصر يمارس بنوع من الرقى والسمو ، فهو لم يلجأ إليه لتعويض نقص، أو لجبر كسر ، أو الاضرار والإتلاف والإفساد ، وإنما للحماية والدفاع ، " استخدم السحر لحماية المخلوقات البشرية ، وفى بعض الأحيان لحماية الألهة وفى أغلب الأحوال كانت استعملاته دفاعية فحسب (أعطى الرب البشر كسلاح ضد الشدائد وعاديات الدهر) " [١]

لذلك لم يستنفد السحر فى مصر أغراضه أو طاقاته وإمكانياته فى تحقيق أهداف عارضة أو رغبات وقتية . ونستطيع أن نقول إن السحر فى مصر خطا خطوات واسعة ،ومر بمراحل متعددة واستطاع – إلى حد ما – أن يلج ميدان العلم تارة ، ومجال الفن تارة أخرى .

" أما المصريين القدماء فقد عرفوا نوعين من السحر : سحر مشروع وآخر ممنوع ومخالف للقانون ، وقد أعتقدوا أنه بواسطة السحر يمكن تنظيم الحياة الأخرى ، ويمكنهم بواسطته الحصول على ما يرغبون وأن يخضعوا القوى الطبيعية بواسطته . والواقع أن السحر المشروع كان مشابها للعلم وقد استهدف وقاية الناس من الأخطار ، التى تهددهم كالحيوانات المفترسة والأمراض ونحوها . ولقد تذرعوا بطريقة

١ معجم الحضارات المصرية القديمة – صفحة (١٨٧)

التعاويذ والتمائم التى كانت تؤدى بصحبة طقوس دقيقة . وكانت عبادة الموتى ترتكز بصفة أساسية على بعض الطقوس السحرية "[1]

- **الدين والسحر:**

شئ آخر ميز السحر فى مصر ، وجعله مختلفا عنه فى بقية المجتمعات ، وهوموقع ومركز الدين فى المجتمع المصرى القديم ، فالحضارة المصرية القديمة ، ملمح أساسى من ملامحها الدين ، بل لا نغالى إذا قلنا إن الدين بمثابة النواة التى تبلورت حولها وعلى أساسها قامت الحضارة المصرية القديمة ، ولا ندرى هل الدين هوالذى دفعهم إلى التعلق والتمسك بفكرة ومعنى الخلود ، أم فكرة ومعنى الخلود هو الذى جذبهم تلك الجذبة القوية إلى الدين ؟

أم أن أحدهما سبب والآخر نتيجة ؟

المهم أن كليهما – الدين الخلود – مظهر من مظاهر قوة تلك الحضارة.

لأن الدين من الثوابت والرواسخ فى الحياة الإنسانية .

والخلود رغبة شريفة وأمنية نبيلة تعلن عن سمو ورقى تلك الحضارة .

والدين – تلقائيا – يستدعى السحر ، لأن الدين يفتح أفاقا رحبة وأبوابا واسعة للنفس الإنسانية لتبحث عن عوالم أخرى غير هذا العالم ، ويلج بها إلى مجالات وميادين للإيمان والاعتقاد بكائنات وذوات ومخلوقات علوية ، لا وجود لها إلا فى النفوس والضمائر ، وفى هذه الحالة لن يعدم السحر أبوابا ونوافذا ليدخل من خلالها ليبذر بذوره ويؤثر تأثيره .

---

١ السحر والتنجيم – د . يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٨٦)

" والواقع أن الدين والسحر يتشكلان أساسا من مقومين يشتركان فيهما على حد سواء : الاعتقاد فى كائن أو كائنات علوية غيبية لها اتصالات علـى نحـو أو آخـر بالإنسـان سواء بطريق كباشر ، كأن تكون متجسدة فى شكل إنسـانى أم فى هيئـة حيوانيـة أم فى بعض الجوامد كالكواكب أو العناصر ، أو كانت اتصالاتها بالإنسان بطريق مباشر أى عن طريق بعض المقربين منها كالأنبياء أو الملائكة أما المقوم الثانى فى كل مـن الـدين والسحر ؟، فهو الطقوس التى تمارس بشكل جمعى أو بشكل فردى "[1]

بل فى بعض الأحيان يختفى الخيط – وهو ليس رفيعا – الفاصل بين الدين والسـحر ، ويختلطان بل قد يمتزجان ويصيران شيئا واحدا . " والواقـع إن السـحر يحتـل رقعـة كبيرة فى النصوص الدينية التى خلفها قدماء المصريين . ولعل من المستحيل تقريبـا أن نميز عندهم بين الترانيم والصلوات وبين التعزيمات والصيغ السحرية ، وذلك أن ثمة آلهة قدموا باعتبار أنهم سبق أن عاشوا على الأرض ، وأن بعض أولئك النـاس الآلهـة قد قاموا بأعمال خارقة "[2]

وقد استفاد استفادة كبرى من هذا الأمر – امتزاج الدين بالسحر فى المجتمع المصرـى السحرة ، فقد أصبح لهم مكانة خطيرة تفوق رجال الدين الخالص ((الكهنـة)) ، ولم يعد يقف تأثيرهم عند عامة الشعب ، بل تعداهم إلى أن يتدخلوا فى مجال السياسة ، بل ويجاهرون الملك بالمعارضة والمخالفة ،" وصار لأفرادها قدرات سحرية على نحـو أو آخر ، وقد صاروا قادرين على إحراز قدرة على التأثير فى مجرى السياسة ، ولقد كان

---

١ المصدر السابق – صفحة (٢٠٩)

٢ المصدر السابق – صفحة (٨٦)

لهم فى مصر وبابل بصفة خاصة نفوذ يفوق نفوذ الملك نفسه عندما كان يصطدم بهم ، فلقد هزموا إخناتون عندما اعتبروه ((ملحدا)) " [1] من أجل كل هذا كان للسحرة فى مصر القديمة كل هذا القدر والهمية والخطورة .

فهم رجال دين . وهو أولو علم .

وهم أصحاب حيل . وهم أرباب حرف وصناعة .

وهو بارعون فى فهم دخيلة النفس الإنسانية ، وما يؤثر فيها وتتأثر به .

ولهم سطوة كبيرة على عامة الشعب .

ولهم نفوذ غير منكورعلى الملك، وبالتالى على النظام الحاكم .

وهم يدركون – عن بصيرة – تلك المكانة الخطيرة والجليلة ، فعملوا على تأصيل وترسيخ تلك المنزلة عند الحاكم والمحكومين ، بأن يتبعوا مجموعة من العادات والتقاليد ، ويسيرون على نظام صارم من شأنه أن يؤكد ويؤصل تلك المكانة .

" يقول صاحب صناعة السحر فى مصر القديمة " (إن السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيلة والطهارة للساحر الطيب ، وفى اعتقادهم على الدوام أن الألهة إنما يقترب منها كل طاهر القلب ، سليم النية ، وكانوا ينشأون على الإيمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على البدن وتعوق طالب المعرفة) ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الأسرار إلى أقسام ودرجات ، فمنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر وجنوده وقوامه الصلوات والرياضات الروحية .

---

١ المصدر السابق – صفحة (٨٠)

ومنه العلم الذى يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار، وقد يدخل فيه السحر الخبيث ، بحكم الضرورة على غير اختيار .

ومنه السحر الخبيث للأغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان الأبرار أن يشتغلوا به ، وإن واجب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقباه "

فرعون والسحرة":

وكأن فرعون قد استحضر كل ما كان يتمتع به السحرة من نفوذ وسلطان وسطوة ، ورأى أنهم أصلح وأفضل من يتحدى موسى ، ولأمر ما لم يقم فرعون بقتل موسى ، ولأمر ما لم يقم بسجنه مع أنه أعلن هذين الأمرين ، وعلى ما يبدو أنه استشار من حوله فأشاروا عليه بأمر تحدى السحرة لموسى ، ، لأنه كفيل – فى حالة تغلب السحرة على موسى – أن يقضى على موسى ودعوته ، ليس هذا فحسب بل يثبت ويؤصل ويدعم ألوهية ومكانة فرعون .

وقد روت سورة (الشعراء) وسورة (الأعراف) هذا الموقف مع اختلاف طفيف ، ولكنه يدل دلالة واضحة على الإعجاز القرآنى ، ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الشعراء:٣٧] ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [سورة الأعراف:١١٢] قال صاحب الكشاف "فإن قلت عزى هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء وأنه قال للملأ وعزى ههنا إليهم :

قلت قد قاله هو ، وقالوه هم فحكى قوله ثم وقولهم ههنا ، أو قاله ابتداء فتلقفته منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه الناس على طريق التبليغ كما يفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة ، والدليل عليه أنهم أجابوه فى قولهم (أرجه وأخاه

وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم " [1] وكأن ما قاله الملك – بالمفهوم الحديث – محضر رسمى ، سجل وكتب فى أوراق رسمية ، فما قاله الملك للملأ حوله ، نقله الملأ لمن هم دونهم ، ولكن بين ما قاله الملك للملأ ، وبين رواية الملأ لما دار بينهم وبين الملك هناك اختلاف طفيف ، وهو يدل على الحالة النفسية للملك ، أو مراعة الملأ للحالة النفسية للملك ، أو لما يرون من الملك ، فقد قال الملك : (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) .

وقال الملأ : (يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) .

فى كلام الملك ذكر (بسحره) ، وهذا يدل على شدة اهتمام الملك أن يصف موسى بالساحر ، وأن أداته هى السحر ، وأيضا تحريض من الملك على موسى ، ولأن هذا السحر سينصب أثره على منزلة ومكانة الملك دونا عن غيره .

ما قاله الملأ فى حضرة فرعون (وابعث فى المدائن حاشرين) ، أما ما رواه الملأ بعد ذلك (وأرسل فى المدائن حاشرين) ، فنظر لما لاحظه الملأ من انفعال الملك ، وتلهفه ورغبته الأكيدة فى ابطال دعوة موسى ، قالوا فى حضرة الملك (ابعث) ، أما وهم يرون ذلك فقالوا (أرسل) ، ونلاحظ أن فى (ابعث) فيها من القوة والإصرار والسرعة أكثر مما فى (أرسل) .

---

١ تفسير الكشاف – المجلد الثانى – صفحة (١٠٢)

قال الملأ وهم فى حضرة الملك : (يأتوك بكل سحار عليم) .

وقالوا وهم يرون ما دار بينهم وبين الملك (يأتوك بكل ساحر) ، فدرجة حماسهم مرتفعة وحرصهم البالغ والمبالغ فيه لمحاولة إرضاء الملك ، وأنهم قادرون على أن يلجموا موسى بكل سحار ، و (سحار) صيغة مبالغة ، وكأنهم يريدون أن يقولوا له كما يحدث عندنا : (كله تمام ياأفندم ، والأمن مستتب ، وكل شئ تحت السيطرة) .

أما وهم يرون كلام الملك – وهم ليس فى حضرته – فقد ضعف أو فتر حماسهم ، وليس هناك ضرورة تستدعى المبالغة ، فقالوا (يأتوك بكل ساحر) ، و (ساحر) اسم فاعل ، وهو أقل دلالة على الحدث من (سحار) .

فالاختلاف بين القولين – الملك والملأ – يظهر بوضوح حالة الملك النفسية ، أنه قلق ومتوتر ، وربما يكون قد داخله شك فى أن الأمر ليس بالهزل ، وأن شخصية موسى – وهو الخبير بالشخصيات – ليس بشخصية ساحر مثل هؤلاء السحرة التى تغص بهم الطرقات ، وينتشرون فى الدروب ، فثبات موسى وقوته وإصراره وقبوله التحدى بكل جرأة وشجاعة ، وعدم إكتراثه بالتهديد والوعيد ، وكلامه ومنطقه وفكره ، إزاء كل تلك الصفات التى يتصف بها موسى ، أى إنسان حتى ولو كان فرعون سوف يتأثر به ، فشخصيات الأنبياء والرسل ، لها سلطان وهيمنة ، بما اقتبسوه من الحق والعلم والحكمة ، وبما أيدهم به الله من الاهتمام والرعاية .

وكل ما حدث من فرعون نوع من العُجب والكِبر والتجبر ، ومع ذلك نلمح فى داخله شيئا من الخوف والتوجس ، " وروى أنه دعا برؤساء السحرة ومعلميهم فقال لهم ما صنعتم ؟

قالوا قد عملنا سحرا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فإنه لا طاقة لنا به . وروى أنهم كانوا ثمانين ألفا ، وقيل سبعين ألفا ، وقيل بضعة وثلاثين ألفا ، واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر ، وقيل كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى ،

وقيل قال فرعون لا نغالب موسى إلا بما هو منه يعنى السحر "[1] ولم يغب عن بال موسى ، أن السحرة هم أخر معقل يتحصن فيه فرعون ، وأنهم هم السلاح الأمضى الذى يستخدمه فرعون ضد موسى ، فحاول موسى قبل المبارزة أن يختبر هذا السلاح أو أن يفله ، أو أن يمنحهم فرصة للتراجع ، أو ينصحهم لعله يجد أذنا صاغية وقلوبا واعية ، أو إن شئت فقل إنها حرب نفسية شنها موسى قبل المبارزة الحقيقية لينال من تماسك أعصابهم ويضعضع من قوتهم ، ولا شك أن كلام موسى وما لمسوه من صفات وسمات شخصيته قد أثر فيهم ، قبل المبارزة وفى أثنائها وبعدها ، وربما يكون هذا هو السبب الذى سارع بهم إلى إعلان إيمانهم ، لأنهم وجدوا تطابق بين ما عرضه وقدمه موسى من منطق ، ونتيجة المبارزة ،﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ [سورة طه:٦٤] أى قال موسى – عليه السلام – للسحرة

[1] تفسير الكشاف – المجلد الثانى – صفحة (١٠٢)

الذين التقى بهم وجها لوجه بعد أن حشدهم فرعون أمامه فقال لهم : الويل والهلاك لكم ، لا تفتروا على الله – تعالى – كذبا ، بأن تقفوا فى وجهى ، وتزعموا أن معجزاتى هى نوع من السحر فإنكم لو فعلتم ذلك أهلككم الله – تعالى – وأبادكم بعذاب عظيم من عنده .

وجملة (وقد خاب من أفترى) معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها ، أى : وقد خاب وخسر كل من قال على الله – تعالى – قولا باطلا لا حقيقة له ، وفرعون أول المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا فى ركابه أو أن تطيعوا له أمرا .

ويبدوا أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها الطيب فى نفوس بعض السحرة بدليل قوله – تعالى – بعد ذلك (فتنازعوا أمرهم بينهموأسروا النجوى) والنجوى المسارة فى الحديث .

أى : وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم وتهديده إياهم بالاستئصال والهلاك إذا مااستمروا فى ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم . (وأسروا النجوى) أى : وبالغوا فى إخفاء ما يسارون به عن موسى وأخيه – عليهما السلام – .

فمنهم من قال – كما روى عن قتاده - : إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له .

ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر. ومنهم من أخذ فى حض زملائه المترددين على منازلة موسى – عليه السلام – لأنه جاء هو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان ولسلب المنافع التى تأتى لهم أى للسحرة عن طريق السحر .

ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذى استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة فى النهاية ، بدليل قوله – تعالى – بعد ذلك : (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) .

فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون ، وإلى أنهم بذلوا أقصى جهدهم فى تجميع صفوفهم ، وفى تشجيع بعضهم لبعض حتى لا يستلب موسى – عليه السلام منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم ...

أى : قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجى والإسرار ما استقر عليه رأيهم ، من أن موسى وهارون ساحران (يريدان) عن طريق سحرهما أن يخرجا السحرة من أرضهم :مصر ليستوليا هما وأتباعهما عليها .

ويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى . أى بمذهبكم ودينكم الذى هو أمثل المذاهب **وأفضلها ، وبملككم الذى أنتم فيه وبعيشكم الذى تنعمون به "** [1]

الجميع خائفون .

الملك خائف على نفوذه وسلطانه وملكه .

الملأ والحاشية خائفة على منافعها وما يغنمونه من الوضع القائم.

السحرة خائفون أن يتغلب عليهم موسى، وبذلك تضيع عليهم الوعود المبذولة من الملك.

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد التاسع – صفحة (١٢١ – ١٢٢)

موسى نفسه خائف أن يسيطر السحرة بما لهم من سطوة وهيمنة على الناس ، ويسدوا منافذ الاستقبال لديهم ، فلا يستطيعون أن ينفذوا إلى الحق أو أن ينفذ الحق إليهم .

- وشتان بين خوفهم وخوف موسى .
- فهم خائفون من الحق ، أن يبدد دنياهم ومكاسبهم ومناصبهم ومكانتهم ومنازلهم
- أما موسى فخائف على الحق ، أن يضل الناس عنه ، أو يضللوا عنه .

الفصـل الرابـع
الدين عند القدماء المصريين

لم يكن لدى المصريين القدماء دين بالمفهوم المتعارف عليه لدينا الآن ، كـذلك لم يكـن لديهم عقيدة متكاملة متناسقة منسجمة مع تصور للإله والكون ، ولكن كل ما هنالك نوع بسيط وساذج من العبادة ، " فالديانات كما نتصـورها اليـوم هـى قبـل كـل شـئ مجموعة محددة من المعتقدات يرتبط بعضها ببعض بربـاط وثيـق وتنسـجم مـع فكـرة أساسية عن الإله ، فالإيمان التام بهذه العقيدة فى نصها وروحها هو اعتناق لهذه الديانة ، أما إدخال عناصر غريبة فيها أو تفسيرها بروح مغاير فهو زندقة فى نظر هذه الديانة ، بل إن الأخلاق والعبادات ، حتى ولو أقرت سننا وعادات قائمـة مـن قبـل يجـب أن ترتبط بهذه العقيدة أو ((تلابسها)) كما يقولون . وهذه العقيدة مدونة عـادة فى كتـب مقدسة ترجع حقا أو عرفا إلى ابتداء ظهور الدين وفيها تجد العقيـدة نصـها الرسـمى النهائى فى جوهره على الأقل ، وتتلخص العقيدة فى شهادة تعادل تلاوتهـا الاعـتراف العلنى بهذه الديانة.

والأمر على خلاف ذلك تماما فى الديانة المصرية القديمة ، فلكى نفهم جوهرها يتحتم أن نعكس قواعد الفكرة الحديثـة ، فلـيس الاعتقـاد أساسـها بـل العبـادة ، وبالنسـبة للظروف التى تطورت فيها العبادة المحلية ، أى تحية إله يسمى كذا معترف به علانيـة ربا أو سيدا لبلدة كذا ، فالديانة المصرية هى فى جوهرها العبادة الفعلية للآلة المـالكين شرعا لأرض مصر ذلك هو مبدؤها ورباط وحـدتها "[1] ولا ينبغـى أن تخـدعنا كثـرة وتعدد

---

١ مصر – اتيين دريوتون وجاك فانديه – تعريب – عباس بيومى – صفحة (٦٤)

الألهة فى مصر وشدة تدين المصـرين القـدماء ونفـاذ هـذه السـمة فى جميـع أنشـطتهم اليومية ، فإن هذا لا ينفذ إلى الجوهر ، لأن كل هذا لم يتبلور فى النهاية أو يكشـف عـن عقيدة تجذب إليها الكثـيرين ، بحيـث لا يرتضـون عنهـا بـديلا ، فبـالرغم مـن قـوة وسلطان الكهنة وانتشار المعابد فى كل مكان ، إلا أنه لم يكن هناك كتاب مقدس يجمع أويحصـر أركان تلك العقيدة ، بحيث ترضى المؤمنين والمؤيدين لتلـك العقيـدة ، مـن ناحية ، ومن ناحية أخرى تمثل صورة جدلية لمضامين تلك العقيـدة داخليـا ، وأيضـا بينها وبين عقائد أخرى إن وجدت . " على أنه يستحيل عبادة الآلهة هكذا دون تكوين فكرة عن طبيعتها والبحث فى صفاتها وصلاتها بعضها ببعض كما هو ثابت ، من كثـرة الصيغ الفقهية المدونة على الأثار ، لكن يجب أن يلاحظ أنه بالرغم مما بلغتـه نظريـات رجال الدين من النشاط والتنوع بل ومن التكاثف فإنها لم تهيـئ كتبـا مقدسـا بـالمعنى المفهوم تحدد الاعتقاد وتقدمه إلى الإيمان باسم السلطة الإلهية . أما المجموعات الذائعة التى سميت تجوزا بالكتب المقدسة وهى كتـاب الأهـرام وكتـاب التوابيـت وكتـاب الموتى فما هى إلا موسوعات من صيغ عملية مفيدة للأشـخاص فى حيـاتهم الأخـرى وتتبين أهميتها الثانوية بالنسبة لجوهر الديانة المصرية بيانا كافيا من ظهورها واختفائهـا تباعا دون أن يلحق بهذه الديانة أى تغيير كما يجدر أن نلاحـظ أن العـرض الفقهـى لم يعن قط بالجدل الكلامى كما هى سيماء المذاهب الكلامية الحقة التى تتمثل فى دين ما ، وأخيرا فإن الوثائق سمحت فى آن واحد وبالاعتماد على أدلة جدية بتفسير الديانة

المصرية تفسيرات متناقضة ، تبدأ بأشد عبـادة الطلاسـم fetichisme انحطاطـا إلى أكثر العقائد الرمزية ysymbolisme لباقة فى التخريج "[1] ولكننا لا نستطيع أن نقبل عبادة بدون عقيدة

أو نتصور عبادة تؤدى بدون رصيد من العقيدة تضمن بقاء واستمرار تلـك العبـادة ، فهما – سواء كانت إحداهما سابقة عن الأخرى ، أو إحداهما الأصـل والأخـرى هـى الفرع – متلازمتان ، نعم ، كانت هناك عقيدة ولكنها عقيدة شخصية ، نسبية متفاوتة ، تختلف باختلاف الشخصـيات وكـذلك الأمكنـة . وربـما كـان ضـعف العقيـدة ، أو وجودها على هذا الوضع الغريب والعجيب ، يرضى فكرة التعادل بين الآلهة ، بحيث لا تطغى وتعلو آلهة على أخرى ، أو تضعف وتنحط آلهة ، فالمطلوب أن تتعـايش كـل الآلهة فى وئام وسلام جنبا إلى جنب ، ذلك لأن كل إله لـه معبـده الخـاص وممتلكاتـه وكهنته ، وهذا الوضع متوارث منذ أزمـان موغلـة فى القـدم ، هـذا الوضـع مـا كـان للملك أن يغيره أو يبدله أو يتدخل فيه ، وإنما كان يرى أن من واجبه المحافظة عليـه ، فهو يريد أن تستمر وتبقى العبادة فى أجزاء المملكة على هذا النمط ، من خلال كونهـا رباط يربط البشر بالدولة والنظام وفى النهايـة بالملـك ، أمـا أمـر العقيـدة أو المسـائل الذهنية ، فهذا الأمر متروك للكهنة يفسرونه كيفما يشاءون .

١ المصدر السابق – (٦٥)

" ذلك بأن ما نسميه العقيدة كان فى نظر العبادة تفسيرا شخصيا يختلف باختلاف الأمكنة والأوساط ، وفى بعض الحالات باختلاف الأشخاص ، أما العبادة باعتبارها منشأة من منشآت الدولة ومصلحة عامة فلم يكن لها من شارع ولا منظم غير الملك الذى كان من واجبه أن يضمن بقاءها فى كل وادى النيل بأن يهيئ معابد ذات موارد ثابتة لجميع آلهة بقاع الدولة المختلفة الشرعيين وأن يكرمهم فيها بألقابهم التقليدية . ولم يكن تنوع التقاليد التى كان الملك قواما على توارثها ليرتاح إلى توحيد فى العقيدة من

شأنه أن يحط قدر عدد من الآلهة المحليين لهم المكان الأعلى وممتلكاتهم الخاصة منذ أزمنة لا تعيها الذاكرة ، فكان الملك إذن يحيى العبادة فى كل مكان لكنه كان يترك المسائل الذهنية لعناية الكهنوت المحلى حتى ولو كان هو نصيرا لمذهب معين كما كان ملوك الأسرة الخامسة "[١]

إذن كان هناك شئ مباح وكان هناك شئ محظور .

المباح هو تعدد الآلهة ، وكانت هناك حرية واسعة للكهنة يصيغون ما يشاءون من مذاهب تصف تلك الآلهة ، أو مذاهب تفسر خلق الكون وما يتبع ذلك ، وكانت شهرة المعبد وكهنته السبب فى انتشار مذهب ما ، وبالتالى يؤثر فى المذاهب الأخرى التى تتبع معبدا يكون أكثر خمولا وأقل شهرة ، وقد يكون هناك تناقض شديد داخل المذهب الواحد ، فهذا أيضا مسموح به ، بل يعد من طبيعة المذهب .

---

١ المصدر السابق (٦٥)

الشئ المحظور هو الخروج عن الإطار العام الذى يحدده الكهنة ومن قبلهم الملك ، الذى كانت له الكلمة الفصل فى كل تلك الأمور ، " وقد هيأ الكهنة المحليون أسطورة إلهية ومذهبا عن خلق الكائنات وتاريخا مقدسا ، وكانت لهم أراؤهم فى طبيعة إلاههم ، وعلى قدر شهرة معبدهم ينتشر مذهبهم ، فينتقل من مكان إلى مكان مؤثرا فى مذهب المعابد الأكثر خمولا ، لكنه لا يخرج فى مجموعه عن أن يكون رأيا للجماعة الأولى من المؤمنين ، أى الكهنة ، إذ أن الملك هو الحبر الشرعى الوحيد . مذهب هذا شأنه (فضلا من أنه كان ينتقل فى أسمى نظرياته كعلم لدنى ، طبقا لطريقة لا تنفصل عن العقلية المصرية ، وبالتالى من غير اهتمام بنشره بين العامة على نطاق واسع) إن كان له تأثير على

أكثر طبقات المة استنارة فإنه يبقى فى مستوى أحط من مستوى العبادة المقدمة باسم السلطة الملكية ، لذا فإنه كان يترك المجال حرا لأراء أخرى لدى أولئك الذين يتدافعون حول معبد واحد ويتبعون جميعا دينا واحدا اتباعا صحيحا، فمنهم طلسميون fetichistes ورمزيون symbolists ومشبهة anthroporphistes وأنصار روحانية الطبيعة الإلهية ، والمشركون pobytheistes والقائلون بعدة آلهة أحدهم أكبر من الآخر henotheists والموحدون monotheists على مختلف ألوانهم من القائلين بالحقيقة التاريخية للأساطير أويتأويلها إما بطريقة الباطنية allegorque وإما بطريقة الحلول فى الطبيعة naturiste . كل هذه المعتقدات التى لا يمكن التعبير عنها إلا بمذاهب متضادة وجدت مكانا جنبا لجنب فى الديانة المصرية

وتركت آثارا منها فى كتاباتها ، لذا كان من الميسـور تعريـف هـذه الديانـة عـن طريـق عبادتها التى كانت موحدة ، ومن المستحيل عن طريق عقيدتها إذ هى متعددة فى الواقع فضلا عن أنها فسرت بتفسيرات متباينة حسب الوساط "[1]كذلك كـان مـن المحظـور الاتيان بمذهب أو عقيدة تخالف أو تعارض أو تصادر ما هو قـائم وثابـت وراسـخ ، هذا فى حد ذاته ، زاد من ظاهرة التراكم ، وكان هذا التراكم يفتقد التناغم أو التوافـق بين شرائحه وأصنافه وأنواعه ، هذا من ناحية ومـن ناحيـة أخـرى لا جـدوى منـه ، "وزاد الطين بلـة أن روح المحافظـة عـلى التقاليـد عنـد المصريـين وإن لم تمـنعهم مـن التجديد فى الناحية الدينية إلا أنها حالت بينهم وبين هجران الصيغ والعادات الدراسة التى تصبح بفعل الأراء والنظمة الحدث منها عديمة الفائدة بل متناقضة" [2]

من هذا نعرف أن سلطة وهيمنة الكهنة والملك على الوجـدان الشـعبى كانـت هائلـة وقوية فى الظاهر ، وممتدة ومتشابكة بأنشطة أخـرى فى حيـاة النـاس ، ولكنهـا سـلطة وهيمنة تفتقد الأساس الراسخ ، وإن كان هناك أسـاس ، فهـو يسـتند عـلى المصـلحة والمنفعة الشخصية العاجلة ، وقد ظهر هذا بوضوح وجـلاء فى موقـف السـحرة مـن فرعون حينما وقع التحدى بيتهم وبين موسى

---

١ المصدر السابق – صفحة (٦٦)

٢ المصدر السابق – صفحة (٦٦)

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٥٢]

منذ البداية وقبل أن يفعولوا أى شيء ، طلبوا الأجر ، بصراحة وبطريق مباشر أين سلطان فرعون وألوهيته ؟ وكأن لسان حالهم يقول لفرعون : لقد جمعتنا لنؤدى عملا ما ، وفى حالة إنجازه على الوجه الأكمل نريد الأجر ، وكأن الأمر لا يعنيهم ، وكأن القضية ليست قضيتهم هم لا يدافعون عن عقيدة أو مذهب أو فكرة ، ولا يريدون أن يثبتوا شيئا أو ينفوا شيئا ، ولا يعنيهم ينتصر فرعون ، أو ينتصر موسى ، هم داخلون هذه المباراة غير متحيزين إلى أى جانب ، فارغو الفكر والضمير من أى شيء ، هم مقدمون على تأدية عمل وينتظرون الأجر ، ولم يستنكر فرعون موقفهم ولم يتعجب . فهم بعض رعاياه ، وهو الحاكم

والسلطان والإلهة – كما يزعم – المفروض إن طلبوا شيئا أن يطلبوا رضاه..حبه عطفه ..كرمه .. ولا شك ما يطلبونه من أجر مادى سيتحقق إن شملهم برضاه وحبه وعطفه ، هنا لا وجود للمجاملة ولا للخواطر ، العلاقة بين السحرة وفرعون علاقة مادية تعتمد على المنفعة والمصلحة (قال : نعم) لكم أجر ، ليس هذا فحسب (وإنكم إذا لمن المقربين) ، هنا فرعون يسترضيهم يغريهم

. فمكانته وملكه وعالمه كل هذا معلق بما سيفعله السحرة .

وما طلبه السحرة – بكل جرأة وفجاجة – لا يطلب من ملك ، ناهيك عن بقية الأوصاف والألقاب .

وما قاله الملك لا يصدر عن ملك قوى ، له شأن عظيم بين رعيته ، وكأن الأمر بين اثنين من عامة الناس يتساومان : هل ستدفع لى أجرا إن أديت لك هذا العمل ؟

نعم سأدفع ، وسأجزل لك العطاء (إكرامية) .

وربما يكون السحرة على درجة من الذكاء والحذر والاحتياط للأمر ، فما يحدث بينهم وبين موسى نوع من التحدى . مباراة ..مبارزة .. واحتمال فوزهم وارد – فى ظنهم – كما إن احتمال فوز موسى وارد أيضا ، فههنا هم لا يطمعون فى الأجر بقدر ما يرغبون فى تجنب بطش وانتقام فرعون ، وهم يعلمون أخلاقه وطباعه أكثرمن غيرهم ، فنحن لنا أجر إن كنا الغالبين ، فإن لم نكن من الغالبين والفائزين على موسى ، فأكثر ما يفعله فرعون فى تلك الحالة ، أن يمنع عنا الأجر ، وأن يحرمنا من قرباه ... وهذا فى حد ذاته شيء طيب ، طالما لا يتضمن البطش والعذاب والانتقام من السحرة .

وما توقعه السحرة حدث .

انتصر موسى عليهم .

ووقع الحق وبطل ما كان يعمل السحرة .

إلى هنا كان المتوقع أن ينصرف السحرة سالمين ، وإن كانوا سيحرمون من الأجر الذى طلبوه ، ومن القربى التى وعدهم بها فرعون .

ولكن لم يفعلوا ذلك ، ولم يفكروا فى أمنهم وسلامتهم ، وكيفية الخروج من هذا المأزق الذى وضعهم فيه موسى .

الذى حدث أنهم اجتازوا مراحل إيمانية كثيرة ، أو مراحل تسبق الإيمان ، ووصلوا إلى قمة الإيمان (فألقى السحرة ساجدين) .

- مجرد اعترافهم بهزيمتهم هذا شئ يرضى موسى .
- مجرد اعترافهم بانتصار موسى ، هذا شئ سيسعد موسى .
- مجرد انصرافهم بدون تعقيب هذا شئ لن يغضب موسى .

ولكن أن يسجدوا ويعلنوا إيمانهم بكل صراحة وقوة أمام فرعون وأمام الملأ ، فهذا ما لم يكن فى حسبان فرعون أو حسبان أحد من الشهود ، ولم يكن فى حسبان السحرة أنفسهم .

ويغضب فرعون ، ويرغى ويزبد ويزمجر ، ويهدد (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين) .

إنه يتمسك بآخر مظاهر قوته ، ويتحصن بآخر حصون سطوته وسلطانه، وهو الانتقام

والبطش والطغيان ، وأسند الفعل إلى نفسه ، مع العلم أنه ليس الذى سيعذبهم ، ولكنه سيأمر ذبانيته ، ولكن لمزيد من التخويف والإرهاب .

ويعتبر ما قاله فرعون حكما واجب التفيذ ، وهو فى منتهى البشاعة والقسوة ، ظننا من فرعون أنه سيردع السحرة ، ولكن كان رد السحرة عليه أقوى وأشد ، وحسم قضية إيمانية ، فى لحظات غاية فى الحرج والتأزم (قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون) ، فما تظنه يا فرعون أنه رادع وزاجر ما هو إلا مرحلة على طريق الإيمان ، والعبرة بالنهاية .

وأصبح السحرة وكأنهم خلقوا خلقا آخر ، يتبرأون من ماضيهم وأفعالهم وموقفهم- من قبل – من موسى ، ولكن يشفع لهم أنهم كانوا سباقين إلى الإيمان، ولكن أغرب وأعجب لقطة فى هذا المشهد هو سرعة إيمان السحرة ، ليس هذا فحسب ، ولكن قبولهم بكل تسليم ورضى ما سيجلبه الإيمان عليهم من غضب ونقمة وانتقام فرعون .

الفصل الخامس
بنو إسرائيل فى مصر

هل كان لبنى إسرائيل تواجد فى مصر قبل " يوسف " عليه السلام ؟

التاريخ لا يخبرنا شيئا عن هذا وإن كنا نظن أنه كانت هناك علاقة من نوع ما تربط بنى إسرائيل بالمصريين ، وفى أغلب الأحوال هى علاقة تجارة ، وإنه كان منهم من يـذهب إلى مصر يقضى وطره ،ويمكث بعـض الوقـت ، ثـم يعـود مـرة أخـرى إلى مكانـه أو مستقره فى أرض كنعان . ولم يكن لدى بنى إسرائيـل اسـتعداد أو قابليـة أن يسـتقروا ويقيموا فى مصر .

ولم يكن لدى المصريين رغبة أو ضرورة أن يقبلوا بوجود الإسرائيليين بين ظهرانيهم .

وهناك أسباب تخص الإسرائيليين ، وأخرى تخص المصريين .

أما الأسباب لدى الإسرائيليين ، فخاصة بشخصيتهم المنغلقة والتى لا تقبل الامتـزاج أو الانصهار فى المجتمعات التى تتواجد فيها . " ومع ذلك وعلى الفور نفهم أن العزل السكنى residential segregation هو قانون اليهودى فى المدينة . وكثيرا ما يرتد هذا العزل إلى قوانين الدول والشعوب التى يعيش اليهود بـين ظهرانيهـا ، يفرضـونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو البارياه pariah كما يعبر ماكس فيبر ، وكذلك إحكاما للرقابة عليهم وحصرا لإخطارهم ، ولكن كثيرا أيضا ما يرجع هذا إلى صنع اليهود أنفسهم ، سعيا منهم كأقليـة مسـحوقة إلى التركـز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة . لقد بدأ اليهود رحلا فى

عصـر التوراة وظلوا رحلا فى عالم الشتات وككل قطعان الرحل أبوا إلا أن يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات "[1]

هم يريدون الحفاظ على سمات وملامح شخصيتهم – وهذا هاجس تـاريخى وفكـرى وعقائدى – وسبيلهم إلى ذلك هى العزلة عمن حولهم " وهذه العزلة أو الانغلاق هما ((جوهر)) اليهودى فيما يقول ((بروند باور)) ولو قـد تخلـص اليهـودى مـن هـذا الجوهر الدينى ،وتجوهر بالجوهر الإنسانى الأعم ، لألتقى مع غـيره مـن النـاس عـلى هذه الأخوة الإنسانية واندمج الفريقان بعضهما فى بعض وانحلت عقدة اليهود "[2]

وهناك سبل وطرق كثيرة تفعلها المجتمعات أو الأمم للحفاظ عـلى سـمات وملامـح شخصيتها ، وتلك الطرق والسبل لا تمنعها من أن تنفتح وتتعـاطى وتمتـزج مـع بقيـة المجتمعات ... بل أن شخصية الأمم لا تتضح وتتميز ولا تتحدد إلا فى وجود الآخر ، وتتضح أكثر وتتميز بمقدار هذا التعامل وقوته ، لأنـك فى حاجـة إلى أن تتطلـع عـلى الآخرين لتأخذ ، ليس هذا فحسـب ، ولكـن لتنحـى وتبعـد وتنفـى بعـض الملامـح والسمات التى تمنعك مـن أن تاخـذ مـن الآخـر وتعيـد تعديلـه أو تخليقـه ليتناسـب ومزاجك – وأيضا – لتنحى وتنفى ما يتعارض مع تطورك وتقـدمك وتغـيرك ، لأن شخصية المجتمعات والأمم ليس شيئا ثابتا متحجرا ، ولكنه كائن حى يعدل من البيئة لتناسبه ، ويعدل من نفسه ليتواءم مع البيئة أو الوسط الـذى يعـيش فيـه ، بمعنـى أن الثبات والجمود ورفض التعديل والتغيير يتعارض وسنن الخلق .

---

١ اليهود أنثروبولوجيا – د . جمال حمدان – صفحة (٥٠و ٥١)

٢ الإسلام والفكر المعاصر –د . حلمى مرزوق – صفحة (١٦٧)

فالشخصية اليهودية لا تريد أن تأخذ من الآخر شيئا ، فلديها – هكذا تتصور – كل ما تحتاجه من دين وعقيدة وميراث وتراث ، وفى نفس الوقت لا تريد أن تعطى أو تمنح الآخرين شيئا مما لديها ، لأنها تعتقد أن ما لديها هوما يخلق لها التميزوالتفرد والخيرية عن الآخرين ، فإن أعطت ما لديها فأين الفضل؟ وأين الميزة ؟ وهذا ما يخلق لها إحساسا بالاعتزاز والفخر تحول بمرور الوقت وتوالى الأجيال إلى حب الذات والتيه والإعجاب بها ، والذى بدوره تحول إلى احتقار والنظرة الدونية التى ينظرون بها إلى الأمم الأخرى .

فهم من صنف آخر ، من طينة أخرى ، هم صنف ممتاز والآخرون منحطون ، هم الأرقى والآخرون متخلفون . " وليس من شك فى أن انزواءهم هذا الموروث الأصيل يجعل النظرة إليهم من جانب البلاد التى يعيشون فيها نظرة شك وريبة ، ثم تتأيد هذه الريبة بسوء المسلك – والاصرار على العبث والخيانة والإيمان بآمال تتعارض مع آمال الشعب الذين يقيمون معه على أرضه ومن هنا كان نبذهم والحقد عليهم والكراهية لهم " [1]

[1] التطور التاريخى لبنى إسرائيل – عماد عبد الحميد النجار – صفحة (٦٩)

وهناك شئ آخر جعل هناك هوة بين الإسرائليين والمصريين ، أن الإسرائليين موحدون بينما المصريون وثنيون ، إذ خط التوحيد لديهم موصول من إبراهيم – عليه السلام – إلى يعقوب . ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [سورة البقرة:١٣٣

والتاريخ لا يحدثنا عن أى جهد قام به بنو إسرائيل لنشر تلك العقيدة ، أو الدعوة إليها ، بل هم يضنون ويبخلون بالدعوة لاعتقادهم أن تلك ميزة تميزهم ، أو فضل يتفاضلون به عن الآخرين ، " والواقع أن اليهودية ، وحدها من بين الأديان السماوية هى التى تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية فى أنها ديانة ((مقفلة أو مغلقة)) أى تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبدا . وإذا كان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه إلى نوعين: ديانا (جغرافية) وديانات (عنصرية) – يعنى على الترتيب ديانات محلية التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه – فإن اليهود يمثلون شذوذا يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة "[1] فهم لا يرون فى أنفسهم دعاة أو هداة أو مرشدين ، العقيدة لديهم لم تغير من شخصيتهم كما هى العادة ، ولكنهم غيروا وبدلوا من العقيدة لتزيد من تأكيد وتأصيل سمات وملامح شخصيتهم ، لذلك تحولت العقيدة – حسب

---

١ اليهود إنثروبولوجيا – د . جمال حمدان – صفحة (٣٦)

فهمهم لها وتبديلهم لها – إلى خط دفاع ، إلى سياج حماية ، إلى حصن يلجأون إليه خوفا من الضياع أو الذوبان ، ومن يرى فى عقيدته هذا ، – حتما – سيرى فى الآخرين أعداء ومعتدين ،ويحس من نفسه دائما أنه فى حالة استنفار أو فى حالة دفاع مشروع عن النفس .

" واليهود كما هو معلوم لا يتحولون عن عقائد آبائهم وأجداهم وإن خالفت كل ما تعلموه ودرسوه ودرجوا على التفكير فيه ، لأن عقيدتهم بالنسبة إليهم أكثر من عقيدة دينية : هى جنس ومعقل دفاع فى وجه الأمم التى يعادونها وتعاديهم . فهم أحوج الناس إلى التوفيق بين العقيدة والفكرة لفهم الدين على النحو الذى يستبقى الصلة بينهم وبين أسلافهم ولا يقطع الصلة بينهم وبين الزمن الذى يعيشون فيه " [1]

فكانت العقيدة سببا من أسباب الجفوة والفجوة بينهم وبين الأمم الاخرى ، بل سبب من أسباب العداء ، وإن لم يكن هذا من شيم العقائد أو أصحابها .

أما فيما يخص المصريين : فقد كان الإسرائيليون جنس طارئ وغريب عن المجتمع المصرى فى ملبسه ومأكله ومشربه وفكره وعقائده ،واليهود أنفسهم لم يقوموا بأى جهد يذكر فى العمل لإزالة أو التخفيف من إحساس المصريين بأنهم جنس مختلف عنهم ، بل أنهم – بما كانوا يفعلونه – يؤصلون هذا الإحساس والشعور .

وكان أول تواجد حقيقى وفعلى لبنى إسرائيل فى مصر ، فى عهد يوسف – عليه السلام – ،" نزل يعقوب إسرائيل الله بأولاده فى عهد يوسف – عليه السلام – ولم ينزل فى الكتاب الكريم شيء عن بنى إسرائيل . وإسرائيل بمصر بعد ذلك إلى عهد ولادة موسى ولكن التوراة

---

١ الله – عباس محمود العقاد – صفحة (١٤١)

ذكرت أن يعقوب وبنيه لما أقاموا فى مصر خيرهم فرعون فى الأرض التى ينزلون بها ، فقالوا – بناء على تعليم يوسف – إنهم رعاة ماشية . وطلب يوسف إلى فرعون أن يسكنهم أرض جاسان أو جاشان وهى فى شمال بلبيس من بلادها سفط الحنة الآن . ويقول العلماء إنها نواحى الصالحية –وكانت العلة فى طلب يوسف ذلك أنها أرض مراع وهم رعاة ماشية .

ويلوح لى أنه عمل ذلك ليبعدهم عن مخالطة المصريين بقدر الإمكان حتى يكونوا بمنجاة من وثنيتهم وحرصا منه على بقاء ذراريه على التوحيد، وذلك أن المصريين كانوا يقذرون الرعاة ولا يخالطوهم لأن ذلك نجاسة لديهم "[1] إذن أخذ اليهود مكانة ومنزلة عند المصريين ، كرامة ليوسف – عليه السلام – والمكان الذى أسكنهم إياه كان بعيدا عن مراكز تجمع المصريين إلى حد ما ، حرصا على عقيدتهم أن ينالها شيء من وثنية المصريين ، وأيضا ليمارسوا حرفتهم وهى الرعى. ولكن يأتى حكام لا يرعوا مكانة اليهود التى كانوا يتمتعون بها فى عهد "يوسف" ، وبعده ، هؤلاء الحكام اضطهدوا اليهود وساموهم سوء العذاب ، وكان هناك رأيان يبرران ذلك :

الأول : الخوف من تكاثر بنى إسرائيل واستفحال أمرهم ، ويصبحون قوة تهدد أمن مصر لذلك أراد الحكام إضعافهم وتحجيمهم بأن يقتل ذكورهم ويستحيى نساءهم .

الثانى : أن الملك رأى رؤية فسرها الكهنة أنه يولد فى بنى إسرائيل مولود يكون على يده نهاية وموت هذا الملك . ولمنع ذلك أمر بذبح كل مولود " جاء ملك لمصر لا يعرف يوسف ولا فضله على مصر وغيرها . ورأى بنى إسرائيل يكثرون فخاف أن يكونوا إلبا

---

١ قصص الأنبياء – د . عبد الوهاب النجار – صفحة (١٤٩)

((أى قوة وحزبا)) لأعداء أهل مصر فأراد أن يقتل كل ذكر مـن أولادهـم حتـى لا يكثر عددهم ويكون منهم ما يحذرون على المصرـيين – يقـول المفسرـون : إن الكهنـة أخبروا فرعون بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبنى إسرائيل فوجه همه إلى قتـل أبنائهم واستحياء نسائهم ، وهذا يحتمل ولا بعد فيه ، فأمر قـابلتى المصرـيين ، وكـان اسم أحداهما ((شفرة)) والثانية ((فوعة)) بقتل كل ذكر تلده عبرانية ، وأمـا البنـت فتبقى ، فلم يفعلا ما أمرتا به ، ولما سألهما قالتا : إن العبرانيات قويات ، فهن يلدن قبل أن تأتى القابلة، وكان ذلك الملك أمر بإذلال العبرانيـين وتسـخيرهم فى عمـل اللـبن والبناء وغير ذلك من الأعمال الشاقة ، ووكل بهـم مـن يتـبعهم حتـى لا يجـدوا مـس الراحة رجاء أن يقلـل ذلـك مـن نسـلهم ، فلـم يفـد ذلـك فرعـون وآلـه فائـدة لأن العبرانيات كن يحملن كثيرا ، ثم أمـر فرعـون جنـوده أن يلقـوا كـل ذكـر مـن أولاد العبرانيين فى النهر ليموت . "[1] هذا العقاب الذى تعدى كل صور القسوة والتنكيـل ، والذى يهدف – على المدى البعيد – إلى استئصال تلك الأمة وإبادتها ، لابـد أن يكـون له ما يبرره وما يسوغه ، وما ذكر من مبررات لا يصمد أمام المنطق والنقـد . فـالخوف من أن يكونوا حزبا له قوته وشأنه ، علاج هذا أن نفرقهم أن نطردهم ، أو أقوم بسجن زعمائهم ، أو قتل أو نفى البعض ، ولكن لا يقتضى ذلك الحكم بالذبح .

أما القول بأن سبب هذا العقاب يسـتند إلى رؤيـا رآهـا الملـك ، أو تأويـل الكهنـة أو إخبارهم له بأنه سيولد ولد فى بنى إسرائيل تكون نهاية ملكه على يـده ، فهـذا تفسـير للتاريخ بأثر رجعى ، أو أنه أقرب إلى الحكايات والقصص الدراميـة ، مـن أن يكـون تفسيرا لأحداث تاريخية حدثت .

---

١ المصدر السابق (١٥٣)

وفى غالب الأمر أنه قد حدث شيء من بنى إسرائيل كان فيه تهديد لأمن مصر- والمصريين مهادنة عدو . التواطئ مع عدو ، التقاعس فى دفع عدو إخلال بالأمن. نقض عهد ، نكث وعد .

أى شيء من هذا القبيل ، من شأنه أن يعرض هذا البلد للخطر والضرر . والتاريخ والوقائع تحدثنا أنه قد حدث من بعضهم مثل هذا على عهد محمد – ﷺ – ، فقد حدث أن بنى قريظة نقضت عهدها مع الرسول ، وتواطئوا مع الكفار على المسلمين ، وحكم النبى الصاحبى " سعد بن معاذ" فيهم ، والغريب أن الحكم كان الذبح !

ولكن الحكم لدى النبى كان عادلا يتناسب مع حجم الجرم لأنه ذبح الرجال ، فهم الذين فعلوا ، وتحملوا وزر ما فعلوا ، وهم المقاتلة بصفة خاصة .

ولكن حكم فرعون لا يتناسب مع أى صورة من صور الجرم الذى يمكن أن يرتكبه أو يفعله بنو إسرائيل ، وكذلك يجافى العدل ، لأنك تقتل من لا ذنب له ، وهو ليس عقابا ولكنه إنتقام ،ولا يوجد فى التاريخ الإنسانى كله من تفتق ذهنه عن مثل هذا الإنتقام .

والذى يؤكد أن ما فعله فرعون ببنى إسرائيل ليس بسبب رؤيا أو نبؤة كهنة ، أن الذبح كان يتم عاما ويبطل عاما خشية أن يتناقص عدد بنى إسرائيل ، ويشكل هذا ندرة فى الأيدى العاملة ، فلو كان الذبح للرؤيا التى رآها فرعون أو لكلام الكهنة فمن يضمن أن يكون المولود فى العام الذى أبطل فيه الذبح ؟

وقد عاصر بنو إسرائيل أهم وأخطر حدث فى حياة المصريين ، وأظن أنها أقوى وأشد وأقسى محنة وأزمة تعرض لها المصريون ، وهى اغتصاب الهكسوس لبلادهم والذى امتد لحوالى ٢٥٣ سنة ، من سنة ١٧١٠ قبل الميلاد ، إلى سنة ١٤٥٧ قبل الميلاد .

وامام هذا الحدث وجد بنو إسرائيل أنفسهم أمام أمرين ، إما أن يظلوا على ولائهم للمصريين ويتحملوا معهم وطأة هذا الاحتلال الكئيب المهين المتمثل فى الهكسوس ، وإما أن يتنكروا للمصريين ويتواطئوا مع المحتل الغاصب، على أهل البلاد لينعموا بما يفيضه عليهم المحتل من أنعام المأخوذة أصلا من أهل البلاد ، ويحصلوا على مكانة ومكان لم يحصلوا عليها من قبل .

أظن أن الوقت والتردد لم يطل بهم ليختاروا الأمر الثانى للأسباب التالية :

أنهم لا طاقة لهم بأمور الصراع والمقاومة والحرب والدفاع والاشتراك مع المصريين حتى يتم طرد الغاصب المحتل ، والتاريخ يحدثنا أنه لم يعرض على بنى إسرائيل مثل تلك الأمور إلا اختاروا الأمر الأسهل والأسلم ، فهم يؤثرون السلامة على الردى ، فهم ليسوا أهل مجالدة أو كفاح أو قتال ، وموقفهم حتى وهم مع نبى الله موسى واضح حينما طلب منهم دخول الأرض المقدسة ، وفيها الجبابرة فرفضوا الدخول إلا بعد أن يخرجوا منها ، ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [سورة المائدة:٢٤] بمنطقهم وفكرهم ، إن تلك البلاد – مصر – ليست بلدهم ، مع أنهم مكثوا بها حوالى (٣٥٠) سنة ، والمفروض أن تلك المدة كافية أن تدمجهم فى نسيج المجتمع المصرى ، إلا أنهم ظلوا منعزلين وبعيدين أن يذوبوا فى المصريين ، فلماذا يدافعون عن بلاد ليست بلدهم ، وينافحون عن أرض ليست أرضهم ، ويرحضون الأذى عن شرف ليس شرفهم ؟!كان بنو إسرائيل يعرفون وضاعة مكانتهم عند المصريين ، فهم مواطنون درجة ثانية ، بل ليسوا مواطنين ، إنهم

مجرد عبيد ، بل هم رجس ، " ومما يجدر الإشارة إليه أن يعقوب وأهله يعرفون قدرهم من المصريين فى ذلك الوقت فهم بنص التوراة ذلك المصدر الأساسى الأول لتاريخهم ودينهم يرون أنهم مجرد عبيد بالنسبة للمصريين خاصة فى بداية عهدهم بها فتسجل التوراة (سفر التكوين الإصحاح ٣٩ وما بعدها) أن يوسف قبل أن يعرفه أخوته سألهم ((أسالم أبيكم الشيخ أحى هو بعد فقالوا : عبدك أبويا سالم هو حى بعد ((يتناول السفر بعد ذلك ما يردده من أن المصريين يتأففون من مواكلتهم ومشاربتهم فيقول إن يوسف هيأ لهمطعاما يأكلوه وحدهم لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عن المصريين " [1]

- وهذا الوضع جعل بنى إسرائيل يحقدون على المصريين ، لا سيما وهم يرون فى قرارة نفوسهم أنهم الأفضل والأكرم ، ووقوع المصريين تحت نير الهكسوس يرضى فيهم إحساسهم يالتشفى فى المصريين ، بل يدفعهم أن يكونوا إلبا مع الهكسوس على المصريين ، وربما يكونوا قد عرضوا على المحتل معاونته أو على الأقل ترحيبهم ورضاهم عن هذا الوضع الجديد ، فى سبيل أن يأخذوا مكانة ومنزلة عنده حرموا منها طويلا عند المصريين ، " هذا وقد عاش بنو إسرائيل فى مصر حياة رغدة فى ظل حكم الهكسوس الذى رأى ذلك الحكم أن يتخذ منهم قوة ضد أهل البلاد الأصليين وتكاثروا كثيرا حتى بلغ عددهم حوالى مليونين إذ تذكر التوراة (سفر الخروج) أن موسى حينما خرج مع قومه كان عدد الرجال ٦٠٣٥٠٠ مقاتلا وقد حرصوا كعهدهم ألا يندمجوا فى المصريين إما لطبيعتهم الموروثة حيث كانوا من قبل إذ لم يندمج إبراهيم فى

---

١ التطور التاريخى لبنى إسرائيل – عماد عبد الحميد النجار – صفحة (٢٩)

بنى كنعان ولا فى المصريين من قبل حينما رحل إليها أو لأن المصريين يحتقرونهم فى نفوسهم لانضمامهم إلى السلطان الغاصب واتخاذه منهم سندا لجبروته .

وظل الحال كذلك طوال حكم الهكسوس لمصر الذى امتد حوالى ٢٥٣ سنة مائتين وثلاثة وخمسين عاما من سنة ١٧١٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٤٥٧ قبل الميلاد "[1]

ولكن الأمر لم يدم كما يشتهى بنو إسرائيل ، فقد انتفض المصريون بقيادة " أحمس" العظيم ، وتمكنوا من طرد الغاصب ، " وفى أواخر هذا العهد تمكن أمراء طيبة من المصريين الأصلاء بقيادة (أحمس) من إنهاء الحكم الأجنبى على البلاد وطرد الهكسوس وبذلك بات وضع بنى إسرائيل فى ظروف لا يحسدون عليها بعد أن سقطت السلطة الحامية لهم والتى كانت تذود عنهم وتوطد لهم الامتياز والتعالى على أهل البلاد الأصلاء "[2]

إلا أن التاريخ لا يخبرنا أن الإسرائيليين قد نالوا عقابا من نوع ما على يد "أحمس " وربما يكون بسبب انشغاله بعد طرد الهكسوس باعادة النظام ومحو أثار ما فعله الهكسوس بالبلاد ، " على أن أحمس لم يمسهم بسوء لانشغاله فيما يبدو فى طرد الغاصب ودعم النظام داخل البلاد وعندما قامت الأسرة التاسعة عشرة ومن ملوكها منفتاح ورمسيس الثانى ذلك الفاتح العظيم ظهر الشعور الصادق للمصريين قبل بنى إسرائيل الذين سقطت عنهم أردية السلطة الباغية على حكم البلاد ، فلم ينس لهم الشعب انحيازهم إلى الطغاة المتسلطين من الهكسوس وتعاليهم على أهل البلاد الأصلاء وهم الذين قدموا

---

١ التطور التاريخى لبنى إسرائيل – عماد عبد الحميد النجار – صفحة (٣٠ و ٣١)
٢ المصدر السابق – صفحة (٣١)

عبيدا ورجسا كما تقول التوراة ، فبعد أن تركهم أبوهم إسرائيـل ظـل هـؤلاء الأبنـاء يرتعون فى خير البلاد وهم متعاونون مع الغزاة وقد اكتشف الشعب المصرى بعـد أن تحررت إرادته أن بنى إسرائيل يتأمرون عليه حتى أن التآمر قد وصـل إلى عمـل ضـد سلامة الدولة ، فقد ذكر ((شاروبيم)) فى كتابه الكـافى أن الإسرائيليـين ثـاروا ثـورة عاتية ضد ((منفتاح)) فزحف عليهم ... وقرئت على عمارة فى طيبة أنشأها ((منفتـاح)) الأول أنشودة له ذكرفيها تنكيله ببنى إسرائيل بسبب ثورة ثاروهـا ضـد السـلطان المصرى ،ويعلل الكتاب هذه الثورة بأنها كانت نتيجة للوضع الجديد فى حكـم الـبلاد فهؤلاء – الإسرائيليون – الذين ألفوا الامتيـازعلى المصرـيين وإيثـار الهكسـوس لهـم ردهم الحكم المصرى إلى ما يجب أن يكونوا عليه فكلفـوا بحـرث الأرض – وتشـييد المبانى وإقامة العمران كما يفعـل المصرـيون–ولـيس مجـرد صـياغة الـذهب والفضـة والتجارة " [1]

• أكبرعملية إخصاء فى التاريخ

وعلى ما يبدو تم مناقشة أمـر ووضـع وموقـف بنـى إسرائيـل فى مصرـ ، وكـان مـن الضرورى اتخاذ موقف حاسم وحازم منهم بعد حدوث ماحدث منهم ، ووضع عـلى مائدة البحث كل جرائرهم وعيوبهم وفضائحهم ومساوئهم .

وكان بنو إسرائيل يتميزون بوضع غريب وشاذ .

---

١ المصدر السابق – (٣١ و ٣٢)

فالدولة المصرية لا تستطيع الاستغناء عنهم ؛ لأنهم يمثلون يد عاملة لا يمكن الاستغناء عنها ، ولا شك أن بعضهم وصل إلى أجهزة الدولة وحصلوا على خبرة ودراية ليس من السهل تعويضها ، بالإضافة أنه لا يمكن إخراجهم من مصر ـ وهم يعلمون كل كبيرة وصغيرة عنها ، فلا يأمن جانبهم من أن يتعاونوا أو يتواطئوا مع أعداء مصر .

وفى نفس الوقت هم يمثلون نقطة ضعف فى الدولة المصرية ، ومنطقة سكانية أوكتلة سكانية هشة يمكن أن يتكرر أن يحدث منهم ماحدث أيام الهكسوس ، فالاحتمال قائم أن يستغلوا ضد مصلحة وأمن الدولة المصرية ، فقد أثبتت التجربة أن لا أمان لهم .

بالنسبة للرجال والشباب فيمكن استغلالهم فى أعمال مهينة تقتل فيهم كل إحساس بالنخوة والرجولة ، واتخاذ أسلوب فى معاملتهم يمحى كل نوازع المقاومة أو الإحساس بالذات أو حتى بالآدمية ، ولكن ماذا سيفعل مع الأجيال الجديدة ، فيمكن تنشئتهم على غير ذلك ، وبث فيهم روح المقاومة والتحدى ... فما هى إلا بضع سنين حتى يأتى جيل جديد يحمل صفات وخلال غير مرغوب فيها من قبل المصريين .

إذن ليس أمامهم- المصريين – إلا سد هذا المنفذ ، أو تجفيف هذا الرافد، بأن يذبح الذكور من المواليد ، وبذلك يتم تغيير التركيبة السكانية لبنى إسرائيل ، وبمرور السنوات سترتفع نسبة الإناث ، وأولئك لا خوف منهن ولا بأس ، بل هن يستغللن فى خدمة المصريين ، وقد يتزوج المصريون منهن ، وإن لم يتم القضاء على بنى إسرائيل – على المدى الطويل – فعلى الأقل هذا يعمل على إضعافهم ، وجعلهم أمة مخصية ، يأمن جانبها .

وقد عبر القرآن عن الحالة المذرية والمهينة التى وصل إليها بنو إسرائيل ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة البقرة:٤٩] ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأعراف:١٤١] ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص:٤]

أما لماذا قبل بنو إسرائيل هذا العذاب وتلك المهانة فهناك أسباب منها :

* أنهم يرون كل ما يحيق بهم عقابا على ما ارتكبوه من جرم ، نعم ، إن هذا العقاب لا يتناسب مع ما اجترموه ، ولكن من حيث المبدأ هو عقاب ، أما كون العقاب يزيد أو ينقص فهذه مسألة أخرى .

* ليس هناك بديل ... فلو خرجوا من مصر هاربين أومهاجرين ، فإلى أين يذهبون ؟

* استمرأوا الذل والمهانة والمسكنة ، فبعض مقومات الشخصية السوية قد انمحت أو أصابها الخمول والذبول ، مثل الغضب والنخوة والغيرة والمقاومة والإصرار .. تلك الصفات التى تميز الشخصية لم يكن لها بروز أو ظهور .

قسوة وشدة وبطش الحكم المصرى ، لم يدع لهم فرصة ووقتا يدبرون فيه أى نـوع مـن التدبير يكون من شأنه إخراجهم من هذا الوضع الشاذ والغريـب والمهـين ، وقـدعبر القرآن عن تلك الشخصـية بقولـه : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١١٢] نعم ، لا أحد يقر فرعون عما فعله ببنى إسرائيل .

ولا أحد يقر المصريين على تلك المعاملة السيئة والمهينة التـى كـانوا يعـاملون بهـا بنـى إسرائيل .

ولكن الوضع الذى أصبحوا عليه ، هم السبب فيه أو على الأقل مـن أحـد الأسـباب الرئيسية التى سـاعدت عليـه ، فـأخلاقهم ، وعتامـة طـبعهم ، وطمعهـم وشرههـم وغرورهم وانعزالهم وتكبرهم قد جر عليهم الكثير من المصائب والكوارث . " ولقد صاغ ذلك الموقف العالم المؤرخ الدكتور أحمد بدوى

فى كتابه فى موكب الشمس بقوله : (من الثابت فى تاريخ مصر بناء على ما جاء فى كتب السماء من ناحية وما شهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى أن العبرانيين قد عرفـوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل وكانوا يجيئونهـا أول الأمـر لاجئين يطلبـون الرزق فى أرضها ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم والحيـاة السـهلة الرضـية بـين أهلها الكرام ، ثم يجيئونها أسارى فى ركاب فرعـون كلـما عـاد مـن حروبـه فى أقـاليم الشرق ظافرا منصورا فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء ويعبدون

أربابهم أحرارا لم يكرههم أحد على قبول مذهب أو اعتناق دين وتطيب لهم الإقامة فى مصر وتستقيم فيها أمور الحياة لهم – ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر ويعملـون عـلى افقارهم واضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشـعب ابتغـاء السـيطرة عـلى وسـائل العيش فى هذا القطر ليفرضوا عليه سـلطانهم تـارة عـن طريـق الضـغط الاقتصـادى وأخرى عن طريق الدين والعقيدة . وهكذا تنكـر بنـو إسرائيـل لسـادتهم المصــريين فخانوا عهدهم واستنزفوا أموالهم ورموهم بكل فاحش من القول وباطل من الاتهـام . وكذلك كان مسلكهم فى كل زمان ومكان وتاريخهم يشهد على ذلك ، فإنهم ما حلوا بأرض إلا وأكثروا فيها

الفساد أو أيقظوا بين أهلها شياطين الفتنة "[1] هذا هو حال بنى إسرائيل فى مصر .

يعيشون أزمة أخلاقية خانقة .

ويعانون من مأزق تاريخى فى غاية الخطورة والحرج .

ومعنى استمرار تلك الأزمة ودوام هذا المأزق هو القضاء على تلك الأمة

إذن فهى أمة مهددة فى وجودها وبقائها ، ذلك لأنها لم تقدم شيئا للإنسانية ، ولم يستفد الناس منها شيئا ، بل كان هناك الضرر والأذى ، وجعلت من يحيطون بها يحاصرونهـا ويحاولون تحجيم وجودها إن لم يكن تصفيته والقضاء عليه .

حتى دفقة التوحيد التى أخذها يعقوب عن إبراهيم عليه السلام ، ووصى بها يعقوب بنيـه ، منعوا عنها الهواء وبخلوا بها عن أن ينشروها على العـالمين حتـى أوشـكت أن يقضىـ عليها .

---

[1] التطور التاريخى لبنى إسرائيل – عماد عبد الحميد النجار – صفحة (٣٢ و ٣٣)

النبى والمخلص:

جاء موسى – عليه السلام – وكان عليه عدة أمور :

- الدعوة إلى عقيد التوحيد أو إعادة التوهج إليها ، وهو إذا نجح فى نشرـها فى مصر ، فهذا كفيل أن يعطيها الفرصة لتنتشر فى بقية أرجاء العالم ، نظرا لمكانة مصرـ فى العالم حينئذ
- كسر سور العزلة والقوقعة التى تعيش فيها بنو إسرائيل ، وجعلهم ينفتحـون على الآخر ، لأن بدون هذا الانفتاح لن يتم نشـر عقيدة التوحيد واقناع الآخرين بها .
- محاولة إصـلاح مـا أصـاب الشخصـية الإسرائيليـة مـن اعوجـاج وعطـب وانحراف وشذوذ، ووضعهم على أول الطريق كحملة رسالة عظيمة للإنسانية.
- إعـدادهم إعـدادا روحيـا وفكريـا وعقائـديا ونفسـيا ، ليكونـوا مـدافعين ومنافحين ومحاربين – إذا لزم الأمـر – لإمـداد الـدعوة برصـيد لا ينفـد ، ومعـين لا ينضب ، برجال ومؤمنين لديهم الاستعداد والمقدرة للتضحية بالكثير فى سبيل نصرـة تلك الدعوة ،ونشر هذه العقيدة
- إذا تعذر إحداث كل تلك التغيرات فى مصر – وهو بالفعل متعذر ، بل يعـد من المستحيلات ، نظرا للتناقض والاختلاف بين ما يعتقده المصريون وما يـدعو إليـه موسى – فيجب إخراج وتخليص بنى إسرائيل من يد فرعـون ومـن هيمنـة وسـيطرة المصريين ، ووضعهم فى بيئة مواتية لإحداث كل تلك التغيرات والتحولات .

ونلاحظ أن أدوار موسى كثيرة ومتعددة ، نظرا لعظيم وخطورة المهمة المناطة به ، فهو سيؤدى الأدوار التالية :

- نبى .
- رسول.
- زعيم .
- ثائر .
- مصلح .
- قائد .
- مفكر.

ولا أحد يستطيع أن يؤدى كل تلك الأدوار العظيمة والجليلة والخطيرة ، إلا إذا كانت شخصيته تتميز بالثراء والغنى .

فهل سينجح موسى فى تحقيق كل تلك المشاريع الإصلاحية ، وهل سيجد من بنى إسرائيل استجابة ومعاونة وسندا له فى تجسيد تلك الأمال الشريفة والأهداف النبيلة ؟
الذى نستطيع أن نجزم به أن شخصية موسى مزودة بكل ما يجعلها قادرة على تحقيق كل تلك المشاريع والأمال والأهداف ، بل وأكثر من ذلك بمراحل .
والذى لا نستطيع أن نقطع به قدرة بنى إسرائيل على التعاطى والارتقاء لمستوى وعظمة تلك المشاريع والأمال والأهداف ، وهل بقى فى شخصيتهم نواحى قوة وإرادة وتصميم ورغبة ، بعد ما فعله الزمن والمصريون بهم ؟

الفصل السادس
مفهوم الشخصية

لماذا ندرس الشخصية ؟

قبل أن نجيب عن هذا ، هناك سؤال فى حاجة إلى إجابة وهو ما الشخصية ؟

المادة اللغوية لكلمة (شخص) تعنى الظهوروالبروز والتميز والتحديد .

على هذا فالشخصية مجموعات صفات وسمات يتصف بها الشخص اتصافا أصيلا تميزه عن الاخرين ، " الشخصية personailty هى الصفة أو مجموع الصفات التى يتسم بها الشخص فيتميز بها عن غيره من الأشخاص أو هى الطبع الشخصى أو الفردى المميز وخاصة إذا كان ذا طبع بارز "[١]

ولكن ما الذى يخلق للشخصية أو يهيئ لها هذا التميز ؟

أو ما الذى يسهم فى تكوين ما يسمى بالشخصية بداية ؟

أصحاب النظريات الشخصية يكادون يجمعون أن هناك عاملين يساعدان فى تكوين الشخصية ونموها ،وهما الوراثة والبيئة

" فيما يتعلق بنموالشخصية يكاد يكون من المستحيل فصل أثر الوراثة عن أثر البيئة إلا من الناحية النظرية . ويشبه البعض الشخصية بكتاب تعاونت فى كتابته الوراثة والبيئة حيث أصبح من المتعذر أن نعرف أى فصل كتبته الوراثة وأى فصل كتبته البيئة . أى أن العوامل الوراثية والعوامل البيئية تتفاعل وتتعاون فى تحديد صفات الفرد وفى تباين نموه ومستوى نضجه وأنماط سلوكه ومدى توافقه بالوراثة والبيئة معا "[٢]

---

١ قاموس أكسفورد للغة الإنجلزية

٢ علم النفس الاجتماعى – د . حامد عبد السلام زهران – صفحة (٣٠٨)

ولكن هل الشخصية الإنسانية تشتمل على قسط متوازن ومتعادل من أثر الوراثة والبيئة ؟ أم أن هناك عامل يطغى عن الآخر ؟

" هناك دراسات ترجح أثر البيئة على الوراثة ، كما أن هناك دراسات ترجح العكس ، غير أن الإتجاه الحالى يؤكد أهمية التفاعل بين الوراثة والبيئة واستحالة فصل أثر أحدهما عن الآخر كما يستحيل تحديد أثر كل منهما " [١]

لا أحد يستطيع أن يجزم أيهما أكثر تأثيرا وتشكيلا فى الشخصية ، الوراثة أو البيئة ، غاية ما هنالك ، أن هناك تفاعل وتعاون بين الاثنين – وربما يكون هناك عامل ثالث – حتى إذا سلمنا بوجود هذين العاملين ، فليس بأيدينا شئ قاطع وحاسم يثبت أن الوراثة والبيئة لهما القول الفصل فى تشكيل الشخصية ، فقد يكون لهما أثر غيرمباشر ، أى يحتاجان إلى عوامل أخرى مساعدة ومحفزة ، وفى حالة عدم وجود تلك العوامل المحفزة يلغى أثر البيئة والوراثة ، وقد لا يكون لهما أثر بالمرة " تبين لنا من دراسة الوراثة أنها لا تؤثر فى السلوك بطريق مباشر ، إنما تؤثر بطريق غير مباشر عن طريق التكوينات الجسمانية وهذه التكوينات لها أهميتها من حيث أنها تحدد إمكانيات التفاعل مع البيئة "[٢]

١ المرجع فى علم النفس – د . سعد جلال – صفحة (١١٥)

٢ المرجع السابق – صفحة (١١٦)

وبحكم أنه يتوافر للشخصية الإدراك والوعى والإرادة ، وهذا فى حد ذاته يتيح لها أن تكون وحدة مستقلة عن أى سياق بيئى أو نمط وراثى ، فإن خصية أوسع وأشمل و أعقد من أن تلزم فى تكوينها أو فى تشكيلها بهذين الخطين ، فالشخصية ليست آلة جامدة ندرك مقدما ما سوف تقوم به إذا عرفنا مكوناتها ، وليست خلية حية تؤدى عملا محددا ولا تحيد عنه .

فالشخصية شئ يتميز بما يأتى :

١. الوحدانية

٢. الاختلاف من فرد إلى فرد على الرغم من تشابه الأفراد فى بعض نواحيها بحكم نشأتهم فى ثقافة عامة

٣. أنها عبارة عن صفات الشخص الحالية الثابتة . فإذا كان هناك فرد يتغير من يوم إلى يوم فهذا يعتبر من صفات شخصيته القائمة . وبالتالى يمكن التنبؤ عن طريق هذه الصفات بسلوكه .

٤. أنها تمثل العلاقة الديناميكية بين الفرد وبيئته وهى بالتالى مكتسبة فهى ليست شيئا موجودا عند الطفل منذ ولادته إنما هى نتاج للتفاعل الاجتماعى فنحن نخلق لأنفسنا شخصياتنا بالمواقف التى نجابهها ، والمشاكل التى نقوم بحلها ونغير من شخصياتنا تبعا لتفاعلنا مع الآخرين

٥. وتمثل الشخصية كذلك الشكل الفريد الذى تنتظم فيه استعدادتنا الاجتماعية الديناميكية لذلك يختلف الأفراد فيما بعضهم عن بعض .

٦. والشخصية بالتالى ليست السلوك الظاهر للفرد لكنها استعداد للسلوك فى المواقف المختلفة . وهذا الاستعداد يتكون مما يسمى بالعادات والسمات والخصائص أو القيم والعواطف والدوافع وما إليها "[١]

إذن الشخصية ليست ما غرزته الوراثة ، وليست ما هيئته البيئة ، وليست الأفكار والمعتقدات والمبادئ والقيم والمعايير والدوافع والاتجاهات ، وإنما الشخصية عملية تنظيمية لكل هذه العناصر ، شئ يجمع هذه الكثرة ، يوحد هذا التناقض ؛ ليجعل منه قواما وشكلا مميزا ، ويحدد له اتجاها معينا ، " لذلك تعرف الشخصية بأنها التنظيم الفريد لاستعداد الشخص للسلوك فى المواقف المختلفة ، أو أنها التظيم الفريد للأفكار والمعتقدات والاتجاهات والقيم والعادات التى نظمها الفرد فى شكل أدوار ومراكز يستغلها فى تفاعله مع الغير ومع نفسه "[٢]

ولتعقد وتشابك تلك العملية ، فإنها تحدث وتجرى بدون إدراك كامل من قبل الإنسان لها ، وبدون تحكم وسيطرة أو توجيه ، شأن كثيرمن الأنظمة والممارسات التى تحدث وتعمل فى كيان الإنسان بدون أن يتدخل فى تنظيمها وعملها ، وليس معنى ذلك إن إرادة الإنسان مغيبة هنا ، فالمسئولية التى يتحملها تؤكد عنصر الإرادة ، ففى النهاية هو صاحب القرار فيما يفعله أو فيما يتركه ، ولكن قبل تلك اللحظة عمل الشخصية يتداخل فيه الماضى مع الحاضر غير مستبعد المستقبل ، والموروث مع المكتسب ، والواضح مع الغامض ،والظاهر مع الخفى الخ ." فالشخصية الإنسانية فى بنائها

١ المرجع فى علم النفس – د . سعد جلال – صفحة (٥٣١ و ٥٣٢)
٢ المرجع السابق – (٥٣٢)

تسير بطريقة تفاعلية تراكيبية ، والتفاعل معناه أن أى شيء بالشخصية يتفاعل مع كل شيء بها ، فالموروث يتفاعل مع المكتسب والحصيلة الناتجة عن هذا التفاعـل – وهـى مركب وليس مزيجا – إنما تتفاعل بدورها مع المقومات الخبريـة البيئيـة الجديـدة . ولا شئ يفنى أو يستنفد من الشخصية بل كل شيء فيها يظل حيا وقادرا على التفاعل إمـا بالطريق المباشر وإما بالطريق غير المباشر "

[1]الشخصية الإنسانية بين الثبات والتغير :

لا نستطيع أن نحكم على الشخصية الإنسـانية بالثبـات ، وإلا جـاز أن نحكـم عليهـا بالجمود والتحجر ، ونقصد بالثبات هنا عدم التطور ، وعدم التعاطى أو الاستجابة لما يستجد من أمور وأحداث ومواقف حيوية تحدث فى محيط وعالم الشخصية ، فسمة من سمات الشخصية الحية التطور والتغـير والتجـدد والنمـو ، هـذا الأمـر الشخصى ـ لا تستطيع له ردا ، أو فيه تحكما ، وكأنه مـن لـوازم الشخصـية أو مـن قـدرها أن تتغـير وتتجدد . " الشخصية فى تغير مستمر منذ بدء تكوينها كنتيجة للتفاعـل المسـتمر بـين إمكانياتها وظروفها البيئية التى تعيش فيها متأثرة بها ومؤثرة فيها ، فكل وقت يمر على الشخص أو كل حدث يتعرض له أو ظرف يحيط به يحدث تغييرا – قل أو كثـر – فى هذا الكل الدينامى المتكامل من أجهزته النفسجسمية والذى نصطلح عليـه بتسـميته شخصية " [2]

---

١ التفاؤل والتشاؤم – د . يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٢٣١)

٢ أصول علم النفس الحديث – د . فرج عبد القادر طه – صفحة (٢٥٥)

ولكن نسبة هذا التغير والتطور والنمو تختلف من شخص لآخر للأسباب التالية :

- الزمان .
- المكان .
- الدور .
- المرحلة العمرية .
- طبيعة العصر .
- نوعية الشخصية .
- أهداف وطموحات الشخصية .

أمور كثيرة تسهم وتحدد وتضبط وتقنن تلك النسبة . لذلك قد نرى هذا التطور والنمو واضحا وجليا وملموسا فى إنسان ، وقد يكون غامضا وخفيا ولا ندركه بسهولة فى إنسان آخر ، ولكنه حادث ولا نستطيع أن نجزم بعدم حدوثه ، لأن كل شيء ينمو ويتطور ، عدم النمو والتطور هو سلب لصفة الحياة وحكم بالموت .

- **مفهوم التغير والنمو :**

ونحن نحكم على الشخصية بالتغير والنمو حينما نقارن بين وضعين مختلفين ، مثلا بين عدم القدرة والقدرة ، بين العلم والجهل ، بين القدرة على التصرف بذكاء ومهارة ولباقة فى الأمور المستجدة ، وبين التصرف بغباء وبضحالة وبرعونة ، بين الإدراك والربط بين الأسباب والمسببات أو بين المقدمات والنتائج ، وبين رد كل ما يحدث إلى الصدفة والارتجالية والعشوائية .

أى نحن نضع الشخصية بين أمرين - ما قبل- وما بعد .

ومن خلال الفارق نحدد نسبة النمو والتطور . وإن كان هذا فى حد ذاته من الأمور العسيرة ، لأننا نحن – الذين نحكم ونحدد – فى قبضة وأسر هذا التغيير والنمو ، فكيف لنا أن نرصد تغيرا ونموا ونحدد النسب ونحن فى نفس الوقت متغيرون ؟ !

- **أما لماذا ندرس الشخصية ؟**

لكى نفهم ، وإذا فهمنا الشخصية ، فسوف نقدرها التقدير الصادق ، وهذا التقدير يدفعنا إلى أمرين :

- حب الشخصية ، وهذا الحب سيفتح لى أبوابا لاقترب من جوانب ونواحى العظمة والبطولة ، فهؤلاء – العظماء والأبطال – هم الذين فهموا معنى الحياة والوجود

- فهما سديدا ، لذلك سنستلهم منهم هذا الفهم ؛ ليزداد وجودنا ثراءا ، ويشيع الجمال فى حياتنا ، وإنسان لا ينبض فى كيانه الحب لهؤلاء ، فهو إنسان مظلمة حياته ، فقير وجوده .

- اتخاذ الشخصية قدوة : ضريبة العظمة والبطولة فادحة ، وقد لا يقدر أغلب الناس على دفعها ، وقد لا يدفعنا القدر لنكون عظماء وأبطال ، فليس أقل من أن نسير فى ركاب هؤلاء ونقلدهم ما وسعنا التقليد ، ونحاكيهم بقدر ما نستطيع ، وتقليد ومحاكاة العظماءوالأبطال – فى حد ذاته – نوع من العظمة والبطولة ، وإن تكن فى أدنى صورها وأقل أشكالها ، ولكنها تتصل بسبب بهم .

والوجود الإنسانى يتسم بالتذبذب والتأرجح ، فهو يهبط ويتدنى ويسفل ليشارك المخلوقات الدنيا فى كل شيء ، وهو يعلو ويرقى ليصل إلى درجات علييات من الطهر والنقاء والقداسة ، وتلك من أعظم التجارب التى يحظى بها الوجود الإنسانى ، وقد شاءت إرادة الله – y – أن يكون الأنبياء والرسل من بنى الإنسان ، وهذا فى حد ذاته نوع من التعظيم ، فقد أفاض الأنبياء والرسل الكثير من هذا الإجلال والتعظيم على بنى الإنسان ، لأنهم دليل حى وبرهان خالد أن فى داخل هذا الإنسان إمكانات وقدرات وطاقات أن يجعل من وجوده وجودا شريفا ونبيلا ، وأن يجعل من حياته حياة جميلة ورائعة ، وإذا ما حدث وتحول وجود الإنسان إلى وجود وضيع ومنحط ،وتحولت حياته إلى حياة قبيحة وتافهة ، فبسبب هدر تلك الإمكانات وتبديد تلك القدرات ، وإضاعة هذه الطاقات .

- **شخصية النبى :**

هل شخصية النبى أو الرسول تتسم بالثبات ، بمعنى أنه وصل إلى درجة من العلم والحكمة ومن التمام والكمال بما لا يحتاج معه إلى مزيد ، وما عليه – فى تلك الحالة – إلا أن يتلقى ما يوحى إليه ، ثم يبلغه إلى من أرسل إليهم ؟

أم أن شخصيته تتسم بالتغير والتبدل والنمو ، وبذلك يتدرج فى مدارج التمام والكمال ، وهو فى حاجة إلى مزيد من العلم ومزيد من الحكمة ؟

إذا كان الأمر الأول ، فإن شخصية الرسول قبل الوحى هى هى بعد الوحى ، وإن الوحى لم يضف شيئا جديدا إليه ، بمعنى أنه مجرد مبلغ .

وإن كان الأمر الثانى ، فشخصيته لم تكن وصلت إلى درجة من التمام والكمال ، من العلم والحكمة ، وإن شخصيته – بالتدرج – ترتقى وتسمو وتتعلم من خلال التعاطى مع الوحى ، وليس معنى ذلك أن شخصيته كان يشوبها نقص قبل الوحى ، ولكن ليس للتمام حد يقف عنده ، وليس للكمال نهاية يقنع بها . مع أن النبوة تمثل قمة التمام والكمال البشرى ، وأقصى ما يطمح إليه البشر ، فلا مزيد بعد ذلك .

مع النبى أنت لا تستطيع أن تقارن بين أمرين ، أو بين حالين للشخصية ، مع ما قبل ، ومع ما بعد ، فشخصية النبى فى الأصل نامية متطورة متكاملة تامة ، ليس بها نقص لتكون فى حاجة إلى التمام ، ليس بها إعوجاج لتكون فى حاجة إلى التقويم ، ليس بها جهل لتكون فى حاجة إلى التعليم .

فهى فى نهاية الأفق البشرى ، وعلى قمة التمام الإنسانى .

وهى إذا دخلت فى مواقف للنمو والتطور والتمام والتكامل فلتحقيق المزيد ، فالأمر بالنسبة لها تمام على تمام ،وكمال على كمال ، وتعليم على تعليم وتأديب على تأديب .

فحينما يقول رسول الله – ﷺ – : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى ...) فليس معنى هذا أن الرسول كان فى حاجة إلى تأديب كما يحتاجه كل البشر ، وإنما مقصد الرسول أنه وصل إلى أعلى قمة يمكن أن يصل إليها الأدب البشرى ، وهو وإن كان فى حاجة إلى أدب فهو أدب من نوع آخر يضاف إلى قمة الأدب البشرى ، إلى أدب ربانى هنا فتحت أمام الرسول معارج أخرى من الترقى نحو الكمال وضعت قمم عليا يسعى نحوها الرسول ليتمكن من تحقيق المقاصد الإلهية .

وحساب الله – y – لأنبيائه وعتابه لهم من هذا المنطلق ، ليس لأنهم قصروا أو فرطوا أو لم يؤدوا ما كلفوا به ، فهذا الأمر مفروغ منه وليس فى حاجة إلى تنبيه أو حض وحث ، ولكنهم لأنهم لديهم رغبة شريفة أن يتحملوا ما لايستطيعون تحمله ، ويكلفوا أنفسهم عسرا وعنتا وشدة كى يتجاوزوا تلك الدرجات العلييات بمراحل ،﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٣]﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الكهف:٦]والرحلة التى قدر لموسى أن يقوم بها مع عبد الله، لا ليتعلم عن جهل ، أو يزيل جهلا كما هى العادة مع بقية البشر ، كيف ذلك وقد قال الله – y – فى حقه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة القصص:١٤]وإنما هى رغبة فى المزيد ، أمنية فى الترقى ، حلم من أحلام العروج إلى الأفق الأعلى ، والوصول إلى سدرة

المنتهى ،فأنت مع شخصية النبى تبدأ من النهاية ، تبدأ من حيث التمام والكمال البشرى ، ثم تبحث كيف سلكت تلك الشخصية لتصل إلى درجات أخرى من التمام والكمال ، وما المدى الذى نظرت إليه ، وما المطمح الذى طمحت إليه ؟ وهل نجحت فى الوصول إلى ما طمحت إليه ؟

وإذا لم توفق فى الوصول إليه ، فما دلالة أن تطمح إلى شيء ولا تصل إليه ؟

وهى – الشخصية – ألم تعرف من قبل عدم إمكانية الوصول إلى هذا الشيء ؟ وهى إن لم تعرف ، فهو جهل بقدرتها .وإن عرفت، فهو تحد أو تجاوز لتلك القدرة.

الأمر هنا لا يتعلق بجهل بالقدرات أو بتجاوز لتلك القدرات ، ولكن حينما يتلقى

النبى الوحى من الله ويتعاطى مع الوحى ، يدرك إدراكا قويا مدى سعة علم الله ، ومدى محدودية ما يمكن أن يحصله من علم ، فيحاول أن يوسع – ما أمكنه ذلك – من محدودية تلك المساحة ، متجاوزا تلك الحدود الموضوعة حوله ، متخطيا تلك العقبات التى تحد من قدرته وإمكاناته فى أن يحصل المزيد من العلم ، وهو يقف على أبوابه ويطلع على خزائنه .

والله - y – حتى مع أنبيائه ورسله لا يمنحهم من العلم إلا بمقدار ما يتناسب مع قدراتهم وإمكاناتهم ، وهى جد متواضعة ومحدودة للغاية بالنسبة لله. ومن الأنبياء والرسل من يدرك ذلك ، فلا يطلب من الله إلا ما من به عليه من علم ، ويدرك أن الله لطيف وخبير بخلقه﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [سورة المُلك:١٤]وأن الله – y – لا يبخل على أنبيائه ورسله بالعلم والحكمة ، وأن ما حصلوا عليه من الله هو ما قدره الله لهم ، وليس هناك من حاجة لطلب المزيد ، لأنه لو كان هناك حاجة إلى مزيد لمنحها الله بدون طلب من نبيه أو رسوله.

ولكن هناك من الأنبياء من دفعه شوقه وحبه ورغبته وتركيب شخصيته أن يطلب المزيد غير قانع بما من الله عليه ، والنبى لا يطلب المزيد إلا إذا شعر وتيقن أنه قريب من الله ، والله قريب منه ، أما وإنه حصل على تلك المكانة وتبوأ هذه المنزلة ، فليطلب من الله ما لم يطلبه أحد من الخلق من قبل ، ربما يستجيب الله لطلب نبيه .

ولأن طلب النبى دافعه نبيل وشريف ، دافعه الحب والشوق والرغبة المتأججة فى مزيد من المعرفة والظمأ الشديد لمزيد من العلم بذات الله – y – فالله يستجيب ، ولكن مع استجابته كان رحيما بهم ، رحيما بضعف ذواتهم ، بمحدودية قدراتهم ، بضيق ذواتهم ، بالنسبة لما طلبوه .

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة الأعراف:١٤٣] ؛ليس مستغربا من موسى وهو القوى الجرئ الصادق الصريح أن يطلب هذا الطلب ، بل الغريب ألا يطلبه ، فإن استجاب الله لطلبه على أى كيفية فقد فاز بالرؤية ، فإن لم يستجب الله لطلبه فمجرد الطلب هو قربى ومنزلة عظمى من الله .

وهو طالما نال تلك المنزلة العظمى أن كلمه الله – y – فلم لا تطمح نفسه إلى المزيد والمزيد ؟ ولم لا تهفو روحه إلى الرقى والسمو ويصل إلى منزلة لم يصل إليها بشر من قبل ، وهو التطلع إلى وجه ربه الكريم ؟

" أن موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله تعالى بدون واسطة فسمع مالم يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذى لا شبه له ولا نظير فى هذا العالم ، طلب من الرب تبارك وتعالى أن يمنحه شرف رؤيته وهو يعلم حتما أنه تعالى ليس كمثله شئ فى ذاته ولا فى صفاته التى منها كلامه y ، فكما أنه سمع كلاما ليس كمثله كلام بتخصيص ربانى استشرف لرؤية ذات ليس كمثلها شيء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم ، فلم يكن عقل موسى وهو فى الذروة العليا من العقول البشرية بدليلى العقل والنقل – وهما فى الذروة العليا أيضا – مانعا له من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى – وهما فى الذروة العليا أيضا – ماتعين له منه ، ولكن الله تعالى قال له ((لن ترانى)) ولكى يخفف عليه ألم الرد وهو كليمه الذى قال له فى أول العهد العهد بالوحى إليه : ((واصطفيتك لنفسى ٢٠ : ٤١)) أراه بعينه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لا من الجود الربانى ، فنزه الله وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب فبشره الله بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه – أى دون رؤيته – وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين " [١]

ما دلالة هذا الطلب على شخصية موسى ؟

وأى من الجوانب يكشفها ويضيئها هذا الطلب من جوانب شخصيته ؟

قد نتساءل أحيانا عن السبب الذى من أجله اختار الله – y – موسى ، وهذا التشريف

---

١ تفسير المنار – الجزء التاسع – صفحة (١١١)

والتعظيم والإجلال والمنزلة العلا التى أفاضها الله عليه ؟ فقد قال فى حقه﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة طه:٣٩]﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة طه:٤١] ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٤٤]

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة القصص:١٤] ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة طه:١٣]طلب موسى هو الذى يجيب عن هذا التساؤل ، فالمفروض أن النبى هو أول وافضل وخير من يعرف الحدود التى يلتزم بها أمام الله – y – وقد حصل وأعطى من العلم والحكمة ما لم يؤت أحد من العالمين فى زمانه ، كل هذا يجعله أكثر وأعمق وأشمل البشر معرفة وإدراكا لذات الله ما يجوز مع الله وما لا يجوز ، ما يمكن وما لا يمكن .

ولكن لقوة وعمق وتأصل حب الله فى قلب موسى ، وشدة شوقه ورغبته فى أن يطلب المزيد ، وظمأه الشديد الدائم إلى الله ، مع اندفاعه وطموحه الذى لا يقنع بدون التمام والكمال ، بل قد يجد نفسه مندفعا لتجاوز هذا وتعديه كل هذا تجمع فى لحظة ودفع موسى ليجد نفسه يطلب هذا الطلب .

ماذا يفعل موسى إذا كان قلبه وعقله ونفسه وكل خلية فى كيانه تمنت تلك الأمنية واشتاقت إلى تلك الرغبة ، وهتفت كل جوانحه بهذا النداء .

ليس أمام موسى إلا أمران :

☒ أما أن يدفن كل تلك الرغبات ، ويكظم كل تلك المشاعر ويلتزم بالحدود ويتقيد بالقيود

☒ وإما أن يكاشف الله– y – ويصارحه بمكنون فؤاده – كما هى عادته مع الله – وبذلك ينال ما يتمناه .

ويختار موسى الأمر الثانى ، متحملا كل ما فيه من محاذير ، متمتعا بكل ما فيه من إغراءات .

هنا تظهر جوانب هامة من شخصية موسى ، وكلها تنطلق من مصدر واحد ، أو تصدر عن بؤرة مجمعة ، وهى القوة ، القوة فى الإيمان ، القوة فى الحب، القوة فى الإدراك ، القوة فى الوعى ، القوة فى الفهم ، القوة فى الطلب . كمتسابق مندفع لا يهدئ من غلواء اندفاعه وصوله إلى علامة النهاية ، بل وصوله لعلامة النهاية يغريه ويحفزه ويثيره أن يواصل الجرى والاندفاع ، فإذا كانت تلك العلامة تعلن نقطة النهاية والتمام والكمال ، فهى بالنسبة له نقطة البداية ، هنا لا يوجد خطوط نهاية ، ولكن النهايات هى نفسها بدايات لمراحل أخرى . أنت مع الله فى رقى وسمو دائم ومستمر لا يتوقف ولا ينتهى ، صعود دائم نحو سدرة المنتهى ، ويظل موسى يطلب ويطلب من الله إلى أن يلزمه الله بالتوقف ، أما هو فلم يلزم نفسه ؟

ولم يضع حدودا وقيودا ؟

ولم يرضى بالتمام والكمال إذا كان ورائهما مراحل ومسافات ؟

- **العلم والرحمة**

موقفان يظهران بجلاء ملامح تلك الشخصية العظيمة:

- **الموقف الأول** : طلبه رؤية الله ، أو أن يجعله الله ينظر إليه متجاوزا الحدود ، متخطيا القيود ، متعديا الخطوط ، واصلا بذلك إلى رغبته فى تحقيق أمنية ورغبة لم تخطر على قلب بشر أو نبى أو رسول من قبل ومن بعد ، وواتته الجرأة والقوة أن يطلب من الله ذلك .
- **الموقف الثانى** : مكانه من العلم ، وهنا – أيضا – نجد موسى الراغب فى الزيادة ، غير القانع بما أوتى من علم وحكمة .

ولكن إذا كان فى الموقف الأول قد وصل إلى نهاية النهايات ، وتخطى وتجاوزو وتعدى

فإنه فى الموقف الثانى يبدأ من الدرجة الأولى ، يقنع بأن يكون متعلما وتابعا ومتلقيا ومستفسرا وسائلا ، بل يرضى بأن يكون هناك شروط وقيود وحدود ، تارة يلزمه الآخر بها ، وتارة يلزم نفسه بها ، وفى النهاية لا يستطيع أن يلتزم بتلك الشروط ، لأن النبى أو الرسول مهما ارتقى ومهما أفاض الله عليه من نعمه ومننه ، ففى النهاية هو محدود القدرات .

وكما وضع موسى هناك – الموقف الأول – فى تجربة عملية هو نفسه أحد عناصرها ، وخرج من تلك الترجربة بنتيجة (سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ، أيضا وضع موسى – الموقف الثانى – فى تجربة عملية هو أحد عناصرها ، ليخرج بنتيجة هامة .

ولكن ما الذى دفع موسى ليطلب مزيد من العلم ، ألم يكتف ويقنع بما أتاه الله من علم وحكمة ؟

ما المبرر الذى يفسر رغبة موسى فى أن يعرف المزيد ويعلم الكثير ؟

هل يريد أن يبدأ مرحلة أخرى تكون بدايتها علم وحكمة النبى ، أما نهايتها فلا يعلمها إلا الله ؟

ما طلبه موسى ليس بالغريب ولا هو بالعجيب ، وإنما يتسق ويتفق مع شخصيته فكما طلب فى الموقف الأول الرؤية .

- **طلب هنا العلم .**

" وقد أشار الألوسى – رحمه الله – إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : وكان منشأ عزيمة موسى – عليه السلام – على ما ذكره ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : ((إن موسى – عليه السلام – قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال: أنا . فعاتبه الله – تعالى – عليه ، إذ لم يرد العلم إليه – سبحانه – فأوحى الله – تعالى – إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك))

وفى رواية أخرى عنه عن أبى – أيضا – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن موسى – عليه السلام – سأل ربه فقال : أى رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال له : ((نعم فى عبادى من هو اعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقائه)) "[1]

---

[1] التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد الثامن – صفحة (٥٤٨)

إنها نفس وثابة ، طلعة ، طموحة للعلم ، ظمآنة للحكمة ، لا تهدأ أبدا ، ولا يقر لها قرار ، ولا يسكن لها خاطر ، كلما حصلت على مدد طلبت المزيد ، وكلما صعدت وارتقت وسمت ، رغبت فى أن تعتلى مدارج الكمال ، حتى هذا لا يقنعها ، لأنها تعلم أن الكمال والتمام لا نهاية لهما وأن سر عظمة الإنسان هو فى بحثه الدؤوب والمستمر والمتواصل عن الحقيقة ، وأن الإنسان لو أمضى عمره كله باحثا منقبا ، فليس هذا بكثير ، لأنه من أشرف المقاصد ، وأنبل الغايات ، وأسمى الأهداف أن يقضى الإنسان عمره كله فى البحث .

وهذا ما أراده موسى عليه السلام ؛تبدأ الرحلة بتعيين وتحديد مصدر العلم أو نبع الحقيقة ، وهو ((عبدا من عبادنا)) .

من هذا العبد ؟

من أين جاء ؟

ما اسمه ؟

لم أصبح عبدا من عباد الله ؟

ما مؤهلاته ؟

أى شئ متعلق بهذا الرجل لا نعلم عنه شيئا !!

((من عبادنا)) .

هو واحد من كثيرين ، تحققت عبوديتهم وترسخت .

هذا هو المسموح والمتاح أما ما دون ذلك. فلا .

ولأنه يتصف بتلك الصفات فقد ((آتيناه رحمة)) ، وعظمة وجلال الرحمة أنها ((من عندنا)) ، ليس هذا فحسب ولكن أيضا ((علمناه)) ، وللعلم وسائطه ووسائله وطرقه وأساليبه ، وأيضا له مصادره الكثيرة والمتنوعة ، ولكن هذا العلم كان ((من لدنا علما)) .

الغموض يكتنف مصدر العلم ، عبدا . رحمة علما .

ألفاظ مبهمة . غامضة .. ولكنه غموض لا يدعو للحيرة والتخبط ، ولكن يقود إلى الاطمئنان والتسليم ، لأنه (من عبادنا)) ، و((من عندنا)) و ((من لدنا)) . فالغموض هنا له وظيفته ، له دلالته ، له مراميه ، له حكمته ، التى يجب ألا نسأل عنها ، والخير أن تظل هكذا ، فلو كان فى كشفها وتوضيحها خير لنشرها الله لنا .

- **المكان (مجمع البحرين)**

أما كيف يلتقى بهذا المعلم ؟

أو أين ؟

فقد أوحى الله له مكان اللقاء ، وهو (مجمع البحرين) " ((موضع التقائهما ولعل المقصود بهما التقاء خليج العقبة بخليج السويس أو التقاء أحد فروع النيل القديمة بالبحر الأبيض "[1]

أما كيفية لقاءه ؟ فقد أرود ابن كثير فى تفسيره روايتين

" قال موسى يارب وكيف لى به ؟

---

١ التفسير الوسيط – تأليف لجنة من العلماء – مجمع البحوث الإسلامية – المجلد الثانى – الحزب الثلاثون – صفحة (٨٩٧)

قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فثم هو))

فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح (أى مملح) قد قيل إذا حيى فى مكان فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك)) " [1]

وحينما نتأمل أحداث تلك الرحلة ، قد تثور بعض الأسئلة :

- لم كان اللقاء هو مجمع البحرين ؟
- ولم كان (الحوت) دونا عن غيره هو العلامة أو القرينة ؟
- ولم عاد (الحوت) إلى البحر ، واهتمت الآيات بالحوت تارة (فاتخذ سبيله فى البحر سربا) وتارة (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) ؟
- ولم حدث ما حدث من الحوت ، وموسى عليه السلام نائما – كما يقول المفسرون – ولم ير إلا فتى موسى ما حدث من الحوت ؟
- ولم نسى الفتى أن يقول ما رآه لموسى لا سيما وأن ما حدث كان شيئا عجيبا وغريبا ، ليس من السهل نسيانه أو أن يغفل الإنسان عنه ؟
- وما الحكمة أن يحدث مجاوزة للمكان، ثم يعود مرة أخرى إلى الصخرة، حيث اللقاء بين موسى والعالم ؟

" وإلى هنا كان موسى – ونحن الذين نتابع سياق القرآن – امام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سرا ، وموقفنا كموقف موسى ، بل نحن لا نعرف من هو هذا الذى يتصرف

---

[1] تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – الجزء الخامس – صفحة – (١١١)

تلك التصرفات العجيبة ، فلم ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذى يحيط بنا ، وما قيمة اسمه ؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الإلهية العليا التى لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة ، فعدم ذكر اسمه يتفق مع الشخصية المعنوية التى يمثلها . وإن القوى الغيبية لتتحكم فى القصة منذ

نشأتها ، فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود فيمضى فى طريقه ، ولكن فتاه ينسى غذاءهما عند الصخرة ، وكانما نسيه ليعودا ، فيجد هذا الرجل هناك وكاد لقاؤه يفوتهما لو سارا فى وجهتهما ، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى . كل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل الغامض المجهول فى سياق القرآن "[1]

ليس من الضرورى أن يكون هناك إجابة لكل سؤال .

وليس من اللازم أن نعرف الحكمة من وراء كل حدث من الأحداث .

ولابد أن تكون هناك أسئلة تبقى بلا إجابة معلقة فوق رؤوس البشر إلى أن تقوم الساعة .

ولابد أن تكون هناك مساحات شاسعة، وآماد لا نهاية لها نشعر بوجودها ولكن لا نعلم عنها شيئا . وأخرى لا نعلم عنها شيئا ولا نشعر بوجودها.

وليس من الغريب ولا العجيب أن يكتنف تلك الرحلة التى قام بها موسى الغموض والحيرة ؛بل الغريب والعجيب أن يكون كل شيء واضحا، وأن يكون هناك إجابة لكل سؤال .

---

١ فى ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد الرابع – صفحة (٢٢٨١)

فهى رحلة فى سبيل المعرفة والعلم ، ودائما العلم محاط بالغموض والإبهام ، والحيرة والشك والتردد ، لأنه نقلة من مجهول إلى معلوم ، ومن غموض إلى وضوح ، ومن تردد إلى راحة واطمئنان ، ومن شك إلى إيمان .

لا سيما وإذا كان العلم بمصائر وأقدار .

وخصوصا إذ كان إدراك الحكمة لأحداث وأفعال لا تظهر نتيجتها الآن ولكن مستقبلا

وقدر البشر أمام ما يقفون أمامه من غموض أن يجتهدوا ، وهذا الاجتهاد قد يريحهم بعض الراحة ، فهو يخرجهم – إلى حد ما – من دائرة العجز التى تحيط بهم ، وغاية الاجتهاد أن يصل بهم إلى منطقة يحدث عندها تصالح – من نوع ما – بين ما يحدث وبين عقولهم ، وإن كان هذا يتم على حساب الحقيقة ؛ لأن هذا التصالح نوع من التعسف العقلى ، وهذا غاية ما فى إمكان البشر فعله .

- **مدلول البحر فى الرحلة**

حينما تتحدث الآيات الكريمة وتشير إلى علم الله ، تستعين الآيات بالبحر ، لتدل على سعة وانبساط وشمول وعمق علم الله ،﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الكهف :١٩] ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة لقمان:٢٧]

جاء فى تفسير ابن كثير " يقول تعالى : قل يا محمد لو كان البحر مدادا للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ((ولو جئنا بمثله)) أى بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرا بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة لقمان:٢٧] وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها وقد

أنزل الله ذلك : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [سورة الكهف:١٠٩] يقول لو كانت تلك البحور كلمات الله والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى حتى يكون هو الذى يثنى نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول " [١]

وجاء فى تفسير ((فتح القدير)) " لما ذكر سبحانه أنواع الدلائل نبه على كمال القرآن فقال : (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي) قال ابن الإنبارى سمى المداد مدادا لامداد الكاتب وأصله من الزيادة ومجئ الشيء بعد الشيء ويقال للزيت الذى يوقد به السراج مداد والمراد بالبحر هنا الجنس والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته

---

١ تفسير ابن كثير – الجزء (٣) – صفحة (١٤٦)

وفرض أن جنس البحر مدادا لها لنفد البحر قبل نفود الكلمات ولو جئنا بمثـل البحـر مدادا لنفد أيضا ، وقيل فى بيان المعنى لو كان البحر مدادا والقلم يكتب (لنفد البحـر قبل أن تنفد كلمات ربى) "[1]

ولأن الرحلة ليس هدفها إظهار تواضع ومحدودية علم البشر فقط ، وإنما الإشـارة إلى سعة وشمول وإحاطة وعلو علم الله ، وعجز وقصور البشر عـن إدراك الحكمـة بـما يحدث فى الكون ، فقد استعانت الآيات هنا أيضا بالبحر ، وكان اختيار مجمع البحرين يتناسب مع هذا وأيضا اختيار الحوت ، وعودته إلى البحر ، وحدوث ما حدث منه من عجب فى البحر ، والعودة مرة أخرى إلى مرج البحرين بعد تجاوزه حينما تذكر فتى موسى الحوت ، والسفينة التى أعطبها (الخضر) للمساكين الذين يعملون فى البحر . الرحلة هنا إطارها الواسع البحر ، وخلفيتها البحـر ، والعنصر السـائد هـو البحـر ، وهذا يتناسب ويتلائم مع موضوع وهدف ومقصد الرحلة وهو العلم .

- **أثر البحر فى شخصية موسى**

للبحر أثر عميق فى شخصية موسى ، فقد ساقته الأقدار أن يكون قريبا من البحر منذ طفولته المبكرة ، وكان البحر يمثل رعاية وعناية الله له ، ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة طه:٣٩]

---

[1] فتح القدير – الإمام محمد بن على الشوكانى – صفحة (٤٥٤)

فبدلا من أن يبتلعه البحر فى جوفه ، كأى شيء يقذف فيه يلقيه على البر محافظا عليه من أى ضرر يصيبه ،﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة القصص:٧]فإذا كان البحر مصدر خوف وفزع وتهديد لحياة الإنسان ، فقد أصبح بالنسبة لموسى مصدر أمن واطمئنان وحفظ وصيانة من كل خطر أو ضرر ممكن أن يلحق به وكذلك كان البحر مصدر أمن وأمان وحماية لموسى فى وقت الخطر ، وقت فراره من فرعون ومعه بنى إسرائيل ؟، ليس هذا فحسب بل مجالا لإظهار أكبر المعجزات على يد موسى، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٦٥] ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة طه:٧٧]وإذا كان البحر مصدر نجاة وإنقاذ ومعجزة لموسى ، فإنه فى نفس الوقت كان مقبرة لفرعون وجنوده ، وعظة وعبرة للعالمين﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة القصص:٤٠] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الذاريات:٤٠]أصبح البحر لموسى صورة من صور القضاء على الظلم والطغيان والجبروت ، وأصبح جوفه مقبرة للظالمين العتاة الجبابرة ، حتى حينما قام بحرق عجل السامرى ، لم يكتف بذلك ، بل أصر أن ينسفه فى اليم نسفا ، وكأنه لا يطمئن من القضاء على عجل السامرى إلا بعد أن يلقى فى جوف

البحر بقاياه تأكيدا على القضاء ليس على العجل ولكن أيضا على أثره فى قلوب من عبدوه ،﴿ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ [سورة طه:٩٧]

وهناك أوجه شبه بين شخصية موسى والبحر ، ويتمتع موسى بصفات تجدها ماثلة فى البحر ، فهو – موسى – تارة هادئ ووديع ، وتارة هائج وعنيف ، تارة صبور وحليم ، وأخرى غاضب ومندفع ، تارة منبسط ومتسع الصدر ، وأخرى منقبض وضيق الصدر

ولا يظن ظان أن شخصية موسى شخصية متقلبة لا تثبت على حال أو تستقر على وضع ، ولكن هذه حال الشخصيات الثرية الغنية ، متعددة الجوانب .

سمها مرونة من الشخصية تستدعى الجانب المناسب أو الخلق الملائم للتكيف مع الحالة الطارئة .

سمها قدرة مطلقة لكيفية التعامل بكل حكمة مع المواقف والأزمات التى تصادفه ويصادفها .

- **التكامل فى الشخصية:**

وما من موقف من المواقف التى اتخذها موسى فى حياته إلا واكن متسقا مع شخصيته ، متفقا مع نمط تفكيره ، منسجما مع طبعه ، متمشيا مع رؤيته وردود فعله ، ليس هناك تشتت ولا تفرق ، والنظرة المتعجلة غير المتأنية ،قد تظن أن هناك تناقضا فى الشخصية أو اختلافا فى ردود الفعل ، أو تنازعا فى جوانب الشخصية ، ولكن النظرة المتريثة تجزم أن هناك توافقا واتفاقا فى جوانب تلك الشخصية ، وأن تلك التصرفات المختلفة والمواقف المتصارعة والأفعال المتناقضة يمكن ردها إلى مصدر واحد ، وأنه متى أدرك – بوعى وفهم – تركيب تلك الشخصية ونوعها والمؤثرات التى صاغت الكثير من معالمها فقد عرف كم هى عظيمة تلك الشخصية ، وأنه من الشخصيات المعدودة والقليلة التى تضعها الإنسانية أمام ضميرها وعقلها ووجدانها لتقتبس من ثرائها الكثير .

فهو صبور ، ويمد فى حبال الصبر إلى أقصى آمادها مع قومه فى مسألة ذبح البقرة ، إلى الدرجة التى يظن إن هذا الإنسان لا يعرف الغضب الطريق إليه ، لأنه يعلم أنهم فى نهاية المطاف لابد خاضعون لأمر الله ، وليس أمامهم من خيار مهما حاولوا أن يتعنتوا أو يهربوا من ذبح البقرة .

وهو غضوب ، ويسيطر عليه الغضب وينسيه قدسية الألواح التى كتب له فيها من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ ، وأمره الله أن يأخذها بقوة ، وأيضا ينسيه ما بينه يوبين أخيه من حب وحدب ويأخذ برأس أخيه يجره إليه . ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [سورة الأعراف:١٥٠]

فقد شعر أن قومه خانوه

ومن قبل خانوا الله ، فبعد ما رأوا بأم أعينهم المعجزات ، وبعد هذه النعم والمنن والأفضال من الله عليهم وإحاطتهم بالرعاية والحفظ من قبل الله ، بعد غياب أربعين يوما يعود موسى فإذا هم عاكفون على عبادة العجل !!

إنها صدمة غير محتملة جعلت موسى فى شبه ذهول .

إنها زلزال أفقد موسى توازنه .

إنها مفاجأة غير متوقعة بالمرة جعلت موسى لا يدرى كيف يتصرف مع هؤلاء القوم .

آخر شيء كان يتوقعه منهم ، بل لم يكن يدور فى خلده بالمرة أن يجترأوا على هذا الفعل ؛وكأن كل ما جاهد وتعب من أجله... ذهب كله سدى ، وبدون جدوى .

وكأنه كان يدور فى حلقة مفرغة ، فقد انتهى من حيث بدأ ، حتى هذا لم يبدأ منه ، فقد بدأ يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان به ، وسار مراحل فى هذا الطريق ، وقطع مسافات وآماد فى هذا المسار ، وإذا به يعود فيجدهم عبدة عجل!!

هنا الموقف كله غضب ، ليس موسى هو الذى يتحدث أو يتصـرف ، فالموقف أكبر وأفدح وأفظع من غضب نبى ، أو غضب مؤمن موحد بالله ، كان غضبا يتوازى مع الخيانة العظمى فى حق الله ، كان غضبا لله وفى الله ، لذلك عبرت الآيات تعبيرا يكشف فى وضوح وجلاء عن هذا الموقف الدقيق والخطير﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٤] فالغضب هو الفاعل، هو المحرك ، هو المتحدث ، هو المتصرف ، هو الآمر ، وكأن الغضب غاضب لأن الله غاضب عليهم﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٢] هذا هو موسى – عليه السلام –

لا يرتضى دون الكمال والتمام ، حتى فى غضبه ، لا مثيل له ولا نظير له ، لم يعد بشر من لحم ودم ، ولم يعد نبيا غاضبا ، ولكن تحول إلى غضب ، ولما عاد موسى إلى بشريته ، إلى نبويته ، عاد وأخذ الألواح التى ألقاها من قبل .

وبين إلقاء الألواح وأخذ الألواح مـر موسـى بمراحـل نفسـية ، اسـتطاع خلالهـا أن يتمالك نفسه ويعود إلى سابق عهده من الهدوء والسكينة .

وهو قوى ، القوة فى صورتها التامة والكاملة ، موسى ليس فى يده ضـابط أو ميـزان ، بحيث يمكن أن يستخدم جزءا معينا ومحددا من قوته أو يقف عند حد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، الأمر هنا ليس أمر تدرج حسب ما يستدعيه الموقف ، القوة عند موسـى ليس لها إلا نقطة واحدة ، هى الدرجة القصوى ، بل قد يتجاوزها بمراحـل ، ولـيس معنى هذا أنه رجل لا يتحكم فى قوته ، وأن قوته هى التى تتحكم فيه ، فإذا كان لديه

مخزون وفيض من حيوية يأبى إلا أن يخرج كل ما لديه من مخزون وفيض ، مثل رجل لديه الكثير من المال ، وطلب منه أن يقدم جزءا من ماله فقدم كل ما معه ، هنا لا ننظر إلى المال كثيرا كان أم قليلا ، ولكن يلفتنا الطبع والشخصية والطراز الإنسانى الذى يظل يرقى ويتصاعد ولا شئ يمنعه أو يوقفه أن يصل إلى درجة التمام والكمال .

هذا هو موسى فى جميع أحواله ومواقفه وتصرفاته ، دائما طامحا إلى الغايات العظمى ، مكلفا نفسه فوق ما تطيق ، وأبعد مما تحتم، مستفرغا كل ما يملك من طاقات وما لا يملكه فى سبيل تحقيق هدفه فى أن يصل بعمله إلى التمام والكمال ، هذا ما ينظر إليه موسى ، فإذا غضب فالدرجة العظمى والحد الأقصى من الغضب ، وكذلك إذا صبر ، وقس على ذلك بقية صفاته وخلاله .

- **المحيطون بالنبى:**

هل يدرك المحيطون بالنبى عظمة شخصيته وسموها ورقيها ؟

قد يدركون وقد لا يدركون .

قد يدركون إذا كانوا أسوياء الفطرة ، لديهم تقدير سديد لقيمة الرجل ، بيدهم المعايير الصادقة للحكم على الرجل .

وقد لا يدركون إذا رانت على فطرهم حجب كثيفة تمنعهم من التقدير الحق الصادق لقيمة الرجل ، وتدخلت عوامل أخرى لتميل بهم ميلا عظيما عن العدل والإنصاف مثل الغيرة والحسد والحقد والفساد .

لذلك فجميع الذين سارعوا إلى الإيمان بالأنبياء والرسل أسوياء الفطرة ، وكان بيدهم المعايير الحقة الصادقة فى تقدير الرجال ، هؤلاء آمنوا بالنبى قبل أن يشاهدوا أى دليل أو يقدم لهم أى برهان تثبت نبوته ؛ لأنهم حكموا على الشخصية بالصدق قبل أن يوجد دليل صدقها ، اقتنعوا بما يقول به النبى قبل أن تحملهم المعجزات على الاقتناع به .

فليس من اللازم اللازب أن يكون النبى أو الرسول مؤيدا بالبراهين والمعجزات والدلائل على نبوته ، لذلك أغلب الدلائل والمعجزات لم تنزل ولم تجر على أيدى الأنبياء إلا بعد أن طلبت ، وكان هناك تعنت وتشدد ووقاحة فى طلبها ، وهناك رأوا بأم أعينهم معجزات وبراهين ودلائل على صدق النبى ، ومع ذلك ظل البعض على كفره وعناده وتشدده . " ونحن لم نتعرض للمعجزات التى وردت فى الإنجيل لأن تفسير الحوادث منساق لنا بغيرها ، فليس فى الإنجيل أن معجزات الميلاد حملت أحدا على الإيمان

بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة ، وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر ، وأن الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وأن المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا ، ولكنهم يزعمون أنه من فعل الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح أنه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات " [1]

فقد يحدثك الرجل فتصدقه على الفور .

وقد يحدثك الرجل فتكذبه على الفور .

---

١ عبقرية المسيح – عباس محمود العقاد – صفحة (١٩٥)

وفى حالة التصديق أو التكذيب أنت لا تعرض كلامه على العقل ليظهر مقدار الصدق أو الكذب ، فتلك مرحلة تالية ، ولكن فى المرحلة الأولى يثور سؤال ، هل الرجل صادق أم كاذب ؟

هذا السؤال متعلق بالشخصية ذاتها ، هنا الشخصية فى حد ذاتها دليل وبرهان ،ثم يأتى بعد ذلك عرض الكلام على العقل والوجدان والنظر فيه .

وأنت تفعل ذلك لا لكى تختبر الشخصية أو تمتحنها من حيث التصديق أو التكذيب ، لأن أى مضمون أو فحوى كلام أو حديث ليس بقادر أن يضفى على صاحبه سمة الصدق ، لأن أى كلام أو حديث لا يملك القدرة على إلزام السامع أن يصدقه ، لأن لديه سعة أن يأوله كافة التأويل ، فحينما قرأ الرسول – ﷺ – القرآن على الناس ، وكان القرآن بنظمه وكل ما يتضمنه من نواحى الإعجاز جازما أنه ليس من عند بشر ولا يقدر عليه البشر ، قالوا أنه أساطير الأولين تملى عليه بكرة وأصيلا ، وقالوا إنه كاهن ، وقالوا إنه ساحر أو أن هناك من يلقنه هذا الكلام ،أو هذا القرآن من صنع محمد – ﷺ – نفسه ، وفى كل تلك الأحوال لا يجدون أنفسهم ملزمين بالتصديق .

إذن لا الكلام الذى يقوله النبى ملزم للآخرين أن يصدقوه ، ولا المعجزات التى تجرى على يد النبى دافعا إلى الإيمان به ، فلا يبقى من النبى إلا شخصيته ، هذا الصرح القوى المتين الذى لا أحد يستطيع أن ينال منه أو ينفذ من خلاله .

الفصل السابع
مؤثرات فى شخصية موسى

شخصية موسى – عليه السلام – من الشخصيات الثرية والمعقدة فى نفس الوقت .

ثرية لأنها تجمع بين جوانبها كل النوازع الإنسانية والمشاعر من خوف وغضب وقلق وكبرياء وشرف ونبل وطموح وأمل وإحباط وإيمان وندم وصبر وتململ وضيق .

ومعقده ، لأن هناك الكثير من المؤثرات والضغوطات والعوامل التى ساهمت – بطريق مباشر وغير مباشر – وتضافرت لتصوغ فى النهاية هذا الطراز الفريد والعظيم من البشر ، وهذا الصنف السامى من الأنبياء والرسل .

وهذا التعقيد والثراء فى الشخصية لا يقف حاجزا بينها وبين المطلع عليها، فتلك الشخصية من الوضوح والجلاء والقرب ، بحيث من اليسير علينا أن نقف على حقيقتها ؛ لأنها ضاربة بجذورها فى العمق الإنسانى ، نافذة بأساسها فى الجوهر البشرى ، جامعة كل ملامح وسمات وصفات الرجل ، بكل صدق وصراحة ، وهو يمر بتجارب ومواقف غير مسبوقة على المستوى الفردى وعلى المستوى الإنسانى ، تلك التجارب محصت وصقلت معدنه ، وارتقت به إلى أعلى مدارج الكمال الإنسانى ، لتلج به بعد ذلك مدارج أخرى فى المجال النبوى ؛ ليكون مهيئا ومعدا لتلقى الوحى الإلهى والعطاء الربانى .

تلك المؤثرات والتجارب – فى العادة – يكون لها من القوة والفاعلية إذا تعرض لها الإنسان وهو مايزال صغيرا غضا ، ليس له من العقل أو المنطق ما يجعل للمؤثرات تأثيرا هينا ، أو يجعله يتلقى تلك المؤثرات بنفس قانعة راضية ، واضعا فى إعتباره المبررات والمسوغات ، ومنطق الأحداث ليخفف من وطأة ما تتعرض له النفس من محن وشدائد ، أو يستمد من تجارب عمره وخبراته ما يجعل النفس تصمد وتشتد ، لتكون قادرة على مواجهة قسوة وغلظة الواقع من حولها .

لذلك فإن مرحلة الطفولة والصبا من أهم المراحل التى يتم فيها تلقى المؤثرات والاستجابة لها بعمق ، وبالتالى تترك تأثيرا يبقى إلى آخر العمر ، والإنسان فى تلك المرحلة يتلقى ما تأتى به الأحداث بدون أدنى مقاومة ، فليس لدى الإنسان – فى تلك المرحلة – من القوة أو الشدة ما يجعله يقاوم ما حوله ، أو حتى يرشد من أثر تلك المؤثرات ويحد من عنفوانها ، ولا نبالغ إذ قلنا إن الشخص يتعرض للمؤثرات والضغوطات وهو ما يزال جنينا فى بطن أمه ، فكما تنقل الأم له الغذاء والدماء والهواء – أيضا – تنقل له المشاعر والأحاسيس ، ومحال أن يتكون هذا الكائن عضويا وجسمانيا من كيان الأم يستمد منها الغذاء ، ولا يتاثر بحالتها الوجدانية والشعورية .

" ولكن بالنسبة للجنين فى بطن أمه فإنه كثيرا ما ينفعل لأسباب جسمية بحتة ، فإذا تشنجت الأم غاضبة فأخذت تنخرط فى صراخ مرير فإن انفعالها يصل عن طريق التغيرات الجسمية التى تصيبها إلى جنينها ، فينفعل هو أيضا ويتخذ لنفسه أوضاعا أو حالات انفعالية شبيه بتلك الأوضاع والحالات الانفعالية التى أصابت الأم . ومن الطبيعى أن

الأم التى تنخرط فى حالات مزاجية مبهجة فتنفعل بانفعالات البهجة والسرور أو تنخرط فى ضحك صاخب إنما تنقل انفعالها إلى أطفالها " [1]

إذن الجنين يتأثر بحالة الأم النفسية ، ذلك لأن كيانه غير منفصل عن كيانها ، إن الحبل السرى لا ينقل مقومات بناء الجسم فحسب ، بل أيضا ينقل فيما ينقل كل ما تشعر به الأم من حزن وفرح أو غضب ورضى . " وهذا يدل على أن الصعوبات التى تعانيها امرأة فى أثناء فترة حملها تجد صداها لدى الطفل ، فالشخصية من الممكن أن تتأثر منذ وقت مبكر بانفعالات الأم " [2]

وإن لم يطبع الجنين بطابع الأم طبعا ، إلا أنه يجعل هناك استعداد وقبول وتهيئة أن يكون الجنين فى المستقبل على نفس الحالة الوجدانية للأم . " وكلما تواترت الانفعالات المتباينة على الأم وتواصل صداها ورجعها إلى جنينها ، فإن ذلك الجنين يكتسب سمة عامة تشكل دعامة أساسية فى شخصيته ومن المؤكد أيضا أن الأم التى تتعاطى عقاقير منشطة أو مهدئة أو التى تدمن الخمر أو التبغ أو الشاى أو القهوة ، إنما ترسل إلى جسم طفلها وإلى قوام شخصيته آثار تلك العقاقير والمنبهات والمنشطات والمهدئات " [3]

إذن الأم بيدها – إلى حد ما – أن تكون أحد الأسباب التى تكون شخصية ابنها ، وتحدد مزاجه وطبعه ، فرعايتها لابنها تبدأ وهو مايزال جنينا فى بطنها ، وذلك لأن الجنين يتمتع بطاقة هائلة فى النمو على أساسها يتحدد ككيان مستقل بعد ذلك .

---

١ – الشخصية المتكاملة – د. يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٢٧٦)

٢ –علم النفس التطبيقى– أندرية مورالى – دانيو – ترجمة د. نظمى لوقا وصوفى عبد الله صفحة(٣٧)

٣ – المرجع فى علم النفس – د. سعد جلال – صفحة (٨٥)

" وطاقة النمو فى داخل الرحم تجعل النمو فى الوزن يزيد بمعـدل ثمانيـة آلاف مـرة ، بينما يكون معدل الزيادة بنسبة عشرين مرة فقط بعد الـولادة ، ويقـول فى ذلـك أحـد العلماء ((إن حياة الإنسان كالساعة يبدأ ملؤها فى داخل الرحم ، ثم يبدأ تفريغها بعـد الولادة " [1]

وتلك فرصة محددة بوقت معين للأم أن تسهم فى بناء شخصية ابنها بيدها – إلى حد ما – أن يأتى ابنها سليما معافيا من كل نقص ، أو يأتى به بعض العيوب الخلقية أو بعض الانحراف فى المزاج . " ذلك أن رعاية الجنين فى بطن الأم لا تقل أهمية – إن لم تـزد – من الأهمية الواجب توافرها له بعد أن يولد ، ذلك أن المرحلة الجنينية هى المرحلة التى توضع خلالها الأسس التى سوف تنبنى عليها شخصية المرء ، فإذا كانت تلك الأسس متداعية أو مفعمة بالعيوب فإن بناء الشخصية يكون بالتـالى واهيـا أو يكـون مصـابا بالعيوب التى لا يمكن ملاشاتها أو التخفيف من حدتها " [2]

وما يقول به علم النفس لا يجافى الحقيقة ولا يخالف المنطق ، بل تؤيده الحقيقة ويوافقه المنطق ، فمحـال أن يكـون الجنـين بمعـزل عـما تمـر بـه الأم مـن مشـاعر وعواطـف وانفعالات ، لاسيما وإذا كانت تلك المشاعر والوجدانيات عميقة الأثر ممتـدة الـزمن على مدى شهور الحمل وفى أثناء الوضع وخلال الرضاعة ." إن الحالة النفسـية لـلأم الحامل وبخاصة خلال الشهور الأولى مـن الحمـل ذات أثـر بعيـد فى طريقـة تكـوين الجنين ، وفى مدى تكامل قوامه من الناحية البيولوجية والفسيولوجية " [3]

---

١ – المصدر السابق (٨٥)

٢ – الشخصية المتكاملة – د . يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٢٧٩)

٣ – الشخصية المتكاملة – د . يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٢٧٩)

الحالة الوجدانية لأم موسى عليه السلام

وأم موسى منذ أن أحست بالجنين فى بطنها ، والخوف والفزع والرعب يصاحبها فى النوم واليقظة ، فقد ولدت قبل موسى " هارون " ولحسن حظه نجى من الذبح لامتناع " فرعون " عن الذبح فى هذا العام ، أما العام الذى سيولد فيه موسى فهو العام الذى سيذبح فيه المواليد ، ورب قائل يقول أن خوف الأم هنا يجب أن يكون بقدر ، فربما يأتى المولود أنثى ، وبذلك ينجو من الذبح ، إلا أن كثيرا من النساء بعد إنجابهن مرة أو مرتين ، لا سيما إذا أنجبن الذكر والأنثى ، فإنهن يستطعن أن يحددن – إلى حد ما – نوع المولود ، وأم موسى جربت الحمل من قبل فى الذكر (هارون) ، وكذلك جربت الحمل فى الأنثى (أخت موسى) ، فتستطيع أن ترجح نوع المولود القادم ، لأن أعراض الحمل فى الأنثى تختلف عن أعراض الحمل فى الذكر ، حتى ولو لم يكن ذلك فمجرد الشك أن المولود قد يأتى ذكر ويذبح ، هذا الاحتمال يتحول عند الأم إلى يقين ، وذلك لشدة حرصها وخوفها وحدبها على وليدها .

إذن على مدى تسعة أشهر كانت الأم تحمل فى بطنها موسى ، وفى قلبها الخوف ، ويزداد الخوف كلما إزداد حجم الجنين ، واقترب موعد ولادته ، ويتضاعف الخوف ويقوى ويهيمن فى ساعات الولادة ،ويسود حينما تعلم الأم أن المولود ذكر وأن مآله الذبح لا محالة .

وترى الأم نظرات الخوف والحزن ممن حولها ، والكلمات تتدلى من الشفاه تواسى وتصبر الأم الثكلى فى وليدها ، الذى لم تكد ترى ملامحه حتى ينزع منها ليعرض على شفرة السكين ،وتخيل حالة الأم من القلق والفزع والرعب ، وهى تحرص على ألا يرتفع

مجرد بكاء طفلها ، أو حتى لا يشعر الآخرون بوجـوده، وتخيـل حالتهـا مـن الخـوف والفزع – أيضا – وهى ترضعه وتعتنى به . وأظن أن الأم قد بذلت مجهـودا جبـارا أن تخفى أمر حملها وولادتها وأرضاعها ، بـل أن تخفـى مجـرد أمـر خوفهـا ، لأن الخـوف والفزع قد يدلان ويكشفان من أمر ما تحاول إخفائـه ، وربـما اضـطرتها الظـروف أن تكون بعيدة عن طفلهـا سـاعات في وقـت لا تقـدر الأم عـلى فـراق رضـيعها ، ولا يستغنى الرضيع عن فراق أمه .

والرضيع هنا ليس بمعزل عن كل تلك المشاعر والأحاسيس الجارفة التى تجتاح أمـه ، إنه كائن حى يستمد كل شئ من أمه ، وهو فى بطنها ملتصقا بجوفها أو وهو بجوارها ملتصقا بثديها . وأظن أن الخوف الذى استغرق كل خلايا أم موسـى ، قـد انتقـل إلى جنينها ، تلك الحالة الوجدانية التى شـملت الأم والجنـين عـلى حـد سـواء ، جعلـت الجنين مهيئا ، أو أن تلك المشاعر لها جذور فى وجدانه ، وعلى صلة قوية بتلك المشاعر ، وأقل مثير كفيل أن يجعله يستعيد ذكريات تلك الحالة التى سبق ومر بها وهو جنين ، أو وهو رضيع .

وهذا يفسر – إلى حد ما – اختلاف أمزجة الناس ، فالبعض يميل عن غيره إلى الحزن ، أو إلى الفرح والانبساط ، البعض يميل إلى التواجد والاختلاط، كل واحد من هؤلاء منذ أن ولد مهيأ ومعد لهذا المزاج ، فإذا تضافرت الظروف والأقدار لترسخ وتزيد من هذا المزاج وتقويه ، فقد طبعت الشخصية بهذا الطابع، أما إذا تعارضت الظروف التى يتعرض لها الإنسان وهذا المزاج فهى كفيلة أن تضعفه ،وإن كانت عاجزة عن أن تجتث جذوره من الأعماق .

الخوف غريزة سائدة:

نعم ، كلنا نخاف ؛ لأن الخوف غريزة من الغرائز التى أودعها الله فى جبلة الإنسان ، وهو – الخوف – بمثابة سياج يحفظ ويحمى الكائن من أن يتردى فى مهاوى الهلاك والتلف ، فهو بمثابة جهاز إنذار حيوى يوقظ كل وسائل الدفاع ، سواء كانت إيجابية أو سلبية ، حفاظا على الكائن من الدمار .

" وفى طبيعة الكائن الحى أن يشعر بالخوف لأن كثيرا مما هو جديد أو غريب من الممكن أن تكون فيه صفة التهديد ، فشعور الكائن الحى بالعجز واعتماده على الآخرين وأنه فى واقع الأمر قد يموت بكل سهولة إذا لم تكن هناك حماية الأكبر والأقوى والأعقل منه ، يجعل من إمكانية الموت سببا للقلق ، ولما كانت هناك مواقف كثيرة تؤدى إلى الموت – حقيقية أو نفسية (مثل ضياع تقدير الذات) ولكل خوف اسمه الخاص به ، فأى قاموس طبى قد يذكر ما يزيد على ٣٠٠ اسم لهذه المخاوف "[١]

وفى العادة الإنسان لا يخاف إلا إذا كان هناك مثير ومحرك لتلك الحالة الانفعالية.. أنا لا أخشى من الأفعى – مثلا – إلا إذا رأيتها أمامى وتقترب منى ، وليس هناك ما يمنع أن تصب الأذى فى دمائى ، هنا الخوف له ما يبرره وله ما يسوغه .

" الخوف حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الإنسان فى بعض المواقف ويسلك فيها سلوكا يبعده عادة عن مصادر الضرر ، وهذا كله ينشأ عن استعداد فطرى أوجده الخالق فى الإنسان والحيوان ،ويسمى كما قلنا غريزة . ولابد أن يكون الخالق قد أوجد هذا الاستعداد الغريزى لحكمة تتعلق بصالح الكائن الحى ، فالخوف هو الذى يدفعنا

١– فى الصحة العقلية – د . سعد جلال – صفحة (١٦٢)

لحماية أنفسنا وللمحافظة عليها . فإذا كنا لا نخاف النار مثلا فقد تحرقنا ، وإذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا ، وإذا كنا لا نخاف الجراثيم فقد تفتك بنا ، وهناك كذلك الخوف من الذل ، وخوف الإنسان على سمعته ، وما إلى ذلك ، ومن الطبيعى أن تقترن الحالة الشعورية الانفعالية والحالات التى يفصل فيها بين الخوف والخلاص ويكتفى فيها بالشعور والانفعالى تعتبر حالات غير صحيحة "[1]

ولكن هناك إنسان له حساسية زائدة من الخوف ، بمعنى أنه لا يريد أن يمر يتجربة الخوف فى حد ذاتها ، يريد أن يقى نفسه من هذا الأمر ، فهو يتحسب له ويتوقعه قبل أن يحدث ، هو يسبق أمر أو حدوث الخوف بمشاعره وأحاسيسه وأنفعالاته ، لا ينتظر حتى يحدث ما يخيفه ، بل يخاف من هذا الأمر قبل حدوثه ، وهذا ليس بعيب ، وإنما سمه مزيدا من الحرص ، فرط فى الوقاية ، لأن هذا يمنح الإنسان الفرصة لتكون لديه الإمكانية أن يكون على أهبة الاستعداد للمواجهة نفسيا وجسمانيا ووجدانيا ، بحيث لا يؤخذ على غرة ، أو يكون لديه الفرصة الكافية للهرب والانسحاب .

هذا المزاج يكون الإنسان مطبوعا عليه ، فهو يفعل ذلك بدون إدراك شعورى ، فهو إحساس فطرى لا يملك التحكم فيه ، أو قل فطرى مكتسب ، بمعنى أنه غريزى ، ولكن تجمعت عوامل جعلت هذا الإحساس الفطرى يطغى ويسود ويلح ، وهذا راجع إلى حالة الأم أثناء الحمل والولادة أو الإرضاع ، أو كلها مجتمعة . " هناك عاملان يهيئان الطفل للخوف :

---

١ – أسس الصحة النفسية – د . عبد العزيز القوصى . صفحة (٣٥٢)

الأول : تعرض الأم لتوتر ذهنى أو لخوف شديد حين كانت حاملا وهذا لا يسبب الخوف بل ينتج مزاجا كثير الميل لنمو الخوف . والأطفال المولودون فى حالة كهذه يكونون دائما عصبيين كثيرى الحساسية .

أما العامل الثانى الذى يهيئ الخوف فيما بعد فهو العنف أثناء الولادة وبعدها مباشرة ، وقد أظهرت تجاربى فى الطب العام أن الأطفال المولودين بواسطة ملاقط بعد مخاض صعب يكونون دائما كثيرى العصبية " [1]

إذن لكل تلك الأسباب كان لدى موسى – عليه السلام – هذا الإحساس المبكر للخوف ، هذا الإدراك المتقدم لموضوع الخوف ، تلك الخبرة الغامضة أو الإحساس الفطرى أو الغريزى يكون له خط واضح وبارز فى شخصية موسى ، فقد تعرض للخوف والفزع والرعب بطريق غير مباشر ، وهو ما يزال جنينا فى بطنها ، تكون لديه إحساس غير خاضع للعقل ، بعيدا عن المنطق ، هو لا يملكه ولا يتحكم فيه ، لأنه لم يكن له يد فى اكتسابه أو الحصول عليه وإن كان موجودا ويصبغ الشخصية بصبغته .

الخوف قريب من موسى ، متوقع فى كل آن وحين . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٢]من الممكن أن تكون هناك مشاعر تجتاح الرسول غير الخوف ، من الممكن أن يكون الغضب أو الغيظ أو الإحباط أو الحسرة أو الخيبة أو الأسف أو الحزن .. مشاعر كثيرة قد تكون قريبة من الرسول فى حال تكذيب الاخرين له .ولكن

---

١ – تغلب على الخوف – د . آلان ورسلى – ترجمة بهيج شعبان – صفحة (١٥)

الخوف بالنسبة لموسى هو الأقرب ، هو المتوقع . ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٤] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [سورة القصص:٣٣]والخوف يدفع صاحبه أن يلتمس الآخر ؛ ليكون عونا له فى درء الخطر من ناحية ، وهذا يشعره بالقوة من ناحية أخرى ، حتى ولو لم يكن فى حاجة حقيقية إلى هذا الآخر، فلماذا تريد أخاك يا موسى ، وأنت معك الله الذى يغنيك عن كل العالم؟!

ولكنه إحساس إنسانى بحت . ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [سورة طه:٤٥] ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة القصص:١٨] ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة طه:٦٧]﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة القصص:٢١]

وموسى لا يجد غضاضة فى أن يظهر عليه الخوف ، فهو صادق مع نفسه ، صادق مع الآخرين ، وهذا ما كاشف به الرجل الذى ضيفه فى (مدين) بعدما قص عليه ما حدث له فى (مصر) ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة القصص:٢٥]

وانظر إلى الأسلوب القرآنى العظيم ، وهو يهدهد النفس الإنسانية ويطمئن من أمرها ، حينما يخاطب الله – y – موسى صارفا عن نفسه ووجدانه الخوف . ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [سورة طه:٦٨] ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [سورة النمل:١٠]نعم أنت تخاف من منطلق بشريتك وغرائز طبعك ، ولكن حينما تنخرط فى مصاف الرسل ، فقد زايلتك الطبيعة البشرية ، وتلبست بطبيعة أخرى أرقى وأسمى وأطهر وأنقى ، لا يعرف الخوف طريقه إليها ، طبيعة تخلصت أو ارتقت وسمت أن تكون خاضعة لنداء الطبع البشـرى . الطبع النبوى، أو طبع الرسول هنا هو السائد ، هو المهيمن ، هو سيد الموقف ، لأنك هنا لا تتحدث عن نفسك ، ولا تبلغ عن شخصك ، ولا تخضع لهواك أو عقلك فلأنك مرسل ، فقد أضفت عليك الرسالة من أنوارها ، ومن نفحاتها ما يجعلك تعلو فوق طبيعتك البشرية ، وذات الرسول موصولة دائما بخالقه ، لذلك فهو فى أمن وأمان من الخوف ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤﴾ [سورة القصص:١٤]الله يطمئن ويهدئ من روع تلك النفس ، ويسلكها فى مدارج الآمنين ، فهى فى حاجة إلى هذا الهدوء وتلك السكينة . ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ [سورة طه:٧٧]) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ [سورة طه:٤٥] ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [سورة طه:٢١]

• مقاومة الخوف :

ولكن ينبغى أن نوضح أن الخوف لدى موسى لا يتملكه ، ولا يسيطر عليه ، فحالما يتمالك زمام نفسه ويسترد رباطة جأشه ، وهنا مكمن قوة موسى ، فلا أحد يستطيع أن يجتث بذور الخوف من نفسه ، فهو غريزة تجرى فى الدماء والعروق ، ولكن هناك فرق بين إنسان استسلم للخوف وخضع له ، وإنسان قاوم الخوف وسيطر عليه ، وضيق عليه الخناق ، فلا تلمح بعد ذلك منه أى بادرة تدل على الخوف أو الفزع ، قبل ذلك يتصرف

الإنسان على سجيته ، وعلى طبيعته ، وفق ما ما ركب فيه من غرائز ، هدفها الأول ومقصدها الأساسى الحفاظ على الكائن ، ونحن نكون فى حالة خوف فى حالتين :

- ما يحدث فجأة وعلى غير توقع أو انتظار .
- الشئ الغريب والعجيب الذى لم تألفه النفس ولم تتعوده .

وكلاهما يعتبر مصدر تهديد وخطر على النفس ، أو هكذا تشعر النفس إزاءه .

فاللحظات الأولى من المفاجأة لا عقل لا إرادة لا سيطرة ، ولكن بعد أن تمر تلك اللحظات يبدأ الإنسان فى امتلاك زمام الموقف . هنا تظهر القوة مقارنة بالزمن ، كم استغرق الإنسان من وقت حتى يتمالك نفسه ، هل هى لحظات أم ثوان أم دقائق أم ساعات ، فإذا لم يستغرق الإنسان وقتا طويلا فهو القوى المتين .

ونترك الآيات الكريمة تصور ما شاء الله لها أن تصوره﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [سورة الشعراء:٤٥] نلاحظ هنا أن الآيات لم تذكر

إحساس ومشاعر موسى – عليه السلام – وإنما اكتفت بأن تصف المشهد من الخارج ، وكذلك الحوار بين فرعون وموسى ، وتهديد فرعون له ، ثم قيام موسى بعرض الآيات على فرعون ، وحوار فرعون مع السحرة ، والوعد الذى وعدهم به قبل الإيمان بموسى ، ثم الوعيد لهم بعد إعلانهم الإيمان بموسى .المشهد هنا مشهد جدال وحجاج ، ووعد ووعيد وتهديد ، لا مشاعر ولا تصوير لما يدور داخل النفس ، وكأنه تصوير المشهد من

الخارج بخطوطه العريضة . ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ (١٧) قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾ [سورة الأعراف:١٨]

هنا أيضا لم يحدث خوف من موسى ، لأن الآيات مهتمة بأثر السحر على عامة الناس ، وأيضا مهتمة بما أوحى إلى موسى ،وتصوير الانقلاب العظيم لحال السحرة من مؤيدين لفرعون ومهاجمين لموسى ، إلى معاندين لفرعون ومؤمنين بموسى .

وفى سورة يونس﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾ [سورة يونس:٨٢] هنا الايات مهتمة بأسباب إبطال السحر ، لأنه فساد ، والسحرة مفسدون ، وموقف الله من الفساد معروف ، وعهد على الله أن يحق الحق بكلماته رغم كراهية المجرمين والكافرين ، فهنا – أيضا – لا مجال لعرض ما ثار فى نفس موسى من مشاعر ومخاوف وما قاله موسى

هنا بمثابة تقرير أو بيان أو إظهار العلة والسبب من أن الله خاذل السحرة ومفسد للسحر .

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [سورة النازعات:٢٦]وفى سورة النازعات المشهدهنا مشهد تجريدى ، لا إهتمام بالتفصيل أو ذكر وتحليل مشاعر أو حوارات ، لأن الإهتمام هنا منصب على العبرة والعظة ، وكأنه يعرض خلاصة الدروس المستفادة مما سبق ذكره فى السور الأخرى . ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ [سورة النمل:١٠]

وفي سوره النمل المشهد من الخارج، حال وتحرك موسى حينما رأى العصا تهتز وكأنها جان ، ولكن هذا الوصف الخارجى أنبأ فى نفس الوقت عما فى داخل نفس موسى من مشاعر وأحاسيس ، وإن لم تصرح الآيات تصريحا مباشرا بذلك وإن ألمحت فى (لا تخف) ، والحكمة من ذلك أن موسى مرسل ولا مكان للخوف فى قلوب المرسلين ، لأن المرسل لا يستطيع أن يؤدى دوره ويقوم بمهمته وللخوف سلطان أو سيطرة عليه ، فالمرسل له دور ومهمة ومن مؤهلات وصلاحيات هذا الدور أن يتمالك نفسه فى وقت تتزلزل فيه الأقدام ، سواء من عصا تحولت إلى ثعبان ، أو سلطان ملك

وجبروت طاغية هنا تمرين للنفس ، تدريب للقلب ، تعويد للجنان أن يكون ثابت فى مواقــف تنخلــع فيــه القلــوب . ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ ﴾ [ســورة القصــص:١٨] نفــس المشهد السابق ، ولكنه ليس تكرارا ، وإنما هو نوع من التكامل ، الإضافة هنا (أقبل) ، بعدما زايلته المفاجئة ، أو بعدما استرد رباطة جأشه ، وأدرك الدور والمهمة ، لـذلك طلب منه الإقبال ، مهاجمة الخوف ، تحديه ، اقتحامه ، مواجهته .. .. ولكن الإقبال فى حاجة إلى رصيد من الأمن والإيمان ، لذلك قالت الآيـات (إنـك مـن الأمنـين) ، فى سورى (النمل) (لا تخف فإنى لا يخاف لدى المرسلين) ، هنا (أقبل إنك من الآمنين) .

وفى سورة (طه) ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [سورة طه:٢١]

استكمال المشاهد ، وهنا إضافة لم نرها فى السور السابقة ، وهوحديث الله – y – إلى موسى ، وأنه اختاره لذلك فعليـه الاسـتماع للـوحى ، وتكليفـه بالعبـادة والصـلاة ، وإخباره عن قرب الساعة ، وأن هناك من سيكفر ولا يؤمن بك يا موسى ، فلا

يجعلنك هذا الأمر تضعف أو تتردد ، وهنا أيضا إضافة جديدة ، وهى سؤال الله موسى عن العصا التى بيده ، وإجابة موسى ، وإضافة أخرى ، هى طلب الله من موسى أن يأخذ العصا التى انقلبت حية تسعى فى المرات السابقة أدبر ولم يعقب ، وأقبل ، هنا خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى .

هنا الخوف مختلف ، وعلى هذا اختلف التدريب والتمرين ، يقترب ويمد يده ويقبض على العصا – الثعبان ، هنا معاينة مشاهدة لقدرة الله الذى يملك أن يحول العصا إلى ثعبان ، والثعبان إلى عصا ، الكون كله بعناصره خاضع لمشيئة الله وإرادته ، وهذا يلقى فى روع موسى مزيدا من اليقين والاطمئنان والثبات والقوة فى مواجهة فرعون والسحرة .

الفصل الثامن
عقدة اللسان عند موسى

سواء كان إحساس موسى بالخوف راجع إلى المزاج العام الذى كـان يسـم الشخصـية الإسرائلية فى ذلك الوقت ، واستبداد فرعون وبطشه ببنى إسرائيـل إلى الدرجـة التـى يصل بها إلى أن يـأمر بـذبح مواليـدهم مـن الـذكور ، وفـرض علـيهم مـن الأعـمال والأوضاع ما جعلهم يشعرون بالهوان والخوف والمذلة ، أو كان راجعا إلى حالـة الأم النفسية والوجدانية أثناء مدة الحمل والولادة والرضاعة ، وأن الجنين لم يكـن بمعـزل عن تلك الحالة ... وإذا كانت الأم تعرف أن لخوفها سببا ، فإن الجنين يرث – إلى حـد ما – هذا المزاج ، ويصبح من مكونات شخصيته ، أو يحس بميل إلى هذا الإحسـاس ، أو أن تلك الحالة تقتحمه بدون أن يجد – فى أغلب الأحيان – مبررا لها .

سواء كان هذا أو ذاك ، فإن الحالة الوجدانية لـلأم كانـت وراء مشـكلة الكـلام عنـد موسى . " وتشير الدراسات إلى أن الضغوط الانفعالية التى تحدث للأم خـلال فـترة الحمل يمكن أن تجعل عملية الولادة معقدة ، كما يمكن أن يحدث الاجهاض وتصيب المواليد بمشكلات تغذية وتزيد من حالات شق الحلق cleft peelot "[1]

لا أحد يجزم أن علاقة موسى بأمه أثناء الرضاعة كانـت علاقـة طبيعيـة ، حتـى أثنـاء وجودها فى قصر فرعون ، فقد كان هناك سؤال فى حاجة إلى إجابة ،وقد وجه السؤال إلى أم موسى : لمـاذا أنـت بصـفة خاصـة الـذى رضـع منـك الطفـل ولم يرضـع مـن الأخريات ، إلا أن تكونى أمه بالفعل ؟

---

١ النمو النفسى فى الطفولة والمراهقة – أد. فاروق عبد الفتاح على موسى . صفحة (٦٣)

وقد أنكرت وعرضت مبررات لإقبال الطفل عليها – كما يقول المفسرون – وإعراضه عن الأخريات ، وأظن أن إجابتها لم تكن مقنعة لمن فى القصر ، وأن أمرها كان من الممكن أن ينكشف ، وهم – على الأقل فئة فى القصر – كانوا على استعداد أن يقبلوا أنها أمه ، وأنه ابنها ، لأن هناك سياج حمى موسى منذ أن دخل القصر ، وكان على استعداد أن يوفر له الرعاية والحماية بغض النظر عن أى اعتبارت أخرى ، وهو حب امرأة فرعون للطفل ، ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [سورة القصص:٩]ومع ذلك فمن أين لأم موسى أن تطمئن أن لا يد تمتد إلى ابنها وإليها بسوء ، وهناك الكارهون والحاقدون والمتآمرون ، والقصر – أى قصر – يعج بكل هؤلاء ، لذلك كانت أم موسى تريد – أمام الآخرين – التأكيد والبرهنة على أنه ليس بابنها ، وأنها ليست بأمه ، وإن كانت فى الحقيقة هى أمه وهو ابنها ... العلاقة هنا بين الأم والابن خرجت عن خطها الطبيعى ، ثم هى فى القصر لمجرد أن ترضعه ، أى أنها تلتقى به فى أوقات الرضاعة فقط ، وربما ترضعه على مرأى ومسمع من امرأة فرعون والوصيفات وغيرهن ، أما فى غير أوقات الرضاعة – وهى معدودة – فلا مبرر لوجود الأم بجوار ابنها ، ولا مبرر لوجود الابن بجوار مرضعته . هنا العلاقة مبتورة ينقصها البعد العاطفى والوجدانى ، لحظة الانصهار والذوبان بين الأم وطفلها ، تلك اللحظات الأم تنقل لابنها أشياء كثيرة غير الغذاء الجسمانى ، " الأم هى الفعل الأكثرمضيا فى خبرات الطفل فهو يتلقى منها الغذاء والمشاعر والتوجيه والعلاقة بينهما تأخذ بعدا متناغما مساحة من فهم الآخروالإحساس به والتفاعل معه كل بنصيبه ، وكل له فاعلية فى التأثير على الآخر وتحريك استجاباته ،ويرى (تريفان)

أن السياق الإبداعى الذى يؤدى إلى التفاهم والتفاعل بين الأم والطفل يشكل حجر الزاوية فى التطور المعرفى اللغوى وإدراكه المعنى ، ولأهمية الأم تسمى اللغة القومية اللغة الأم ، فالطفل يرضع من الأم الغذاء ويرضع فى الوقت نفسه انفعالاتها والموروث الثقافى الذى تحمله له أغانيها ومداعابتها له وترقيصها له وما يصاحب ذلك من حركة ونغم ، وتجدر الإشارة إلى أن الأم التى ترضع الطفل عند طلبه تجد الفرص للتفاعل معه والحديث إليه أكثر من الأم التى ترضع وفق برنامج محدد "[1] إذن للأم أثر غير منكور فى سلامة وصحة الطفل اللغوية ، لا أحد يمكن أن يؤدى الدور الذى تقوم به الأم فى أن تجعل حواس الطفل تتفتق عن القدرات اللغوية ، أو يجعل الجهاز المعجز المعقد للغة عند الطفل يبدأ فى النمو والعمل . " ولاحظ الباحثون أهمية الأم وأثرها فى أطفال المدارس الداخلية ، إذ أولئك الأطفال تزداد حصيلتهم اللغوية فى فترة الأجازات ، ويقابل ذلك أن بعض الأطفال الذين يكونون فى السنة الثانية ، أى فى بداية التمكن من القدرة الكلامية يفقدون موهبة الكلام عند سفر الأم "[2] والبحث عن عقدة اللسان عند موسى تستدعى وقفة ، وقدوقفها الأقدمون من قبل ، ولكنهم لم يتحروا فيها الدقة والمنطق ، بل وجدوها فرصة لإظهار جبروت وظلم وبطش فرعون حتى مع هذا الوليد الذى لا يفقه شيئا ، مع أن فرعون فى غنى عن تلك الحادثة ليوصف بتلك الأوصاف

---

١ عالم الفكر – المجلد الثامن والعشرون – العدد الثالث – ٢٠٠٠ – توظيف المأثور القولى فى لغة الطفل – د . وسمية عبد المحسن منصور – صفحة (١٥٢)

٢ الشخصية المتكاملة – يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (١٥٥)

والصفات ." إن موسى أخذه فرعون على حجره وهو صغير ، فمد يده إلى لحيته ونتف خصلة منها ، فأراد قتله فشفعت فيه زوج فرعون وقالت إنه لا يعقل ما يفعل ، أشارت باختباره بتمرة وجمرة ، فوضعتا فى طشت فأخذ الجمرة ووضعها فى فيه ، فأثرت فى لسانه ، فلذا نشأ موسى غير فصيح بل عند حبسه فى لسانه "[1]

وهذه الرواية لا تتفق مع العقل وتخالف المنطق ، وتفسير عقدة اللسان كما عرضها صاحب (قصص الأنبياء) " وأن المسألة ذات وجهين :

أولهما : أن موسى ألقته أمه فى اليم والتقطه آل فرعون أو حرم الله عليه المراضع لطفا بأمه الوالهة إلى أن جاء بها فأرضعته وكفلته . والطفل عادة إذا تأخرت عنه الرضاعة مدة كهذه يورثه ذلك حبسه فى لسانه وقد رأينا من كان لا يكاد يبين ولا سبب لذلك إلا احتباس عن الرضاعة مدة .

ثانيهما : أن موسى خرج من مصر من عهد بعيد واعتقادى أنه مكث فى ((مدين)) زمنا طويلا فنسى اللغة المصرية – لغة القبط – لطول العهد وعدم وجود من يناغيه بها أو يكلمه . وأما هارون فكان بين المصريين ومقيما معهم فهو أفصح من موسى وحقيق بأن يشافههم بها ، ونحن أولاء يسافر الواحد من أبنائنا إلى البلاد الأوربية – ولا تكون مدة إقامته أكثر من خمس أو سبع سنوات – ثم يجئ إلى مصر ناسيا كثيرا من لغة أبيه وأمه ، وللناس نوادر فى حكاية ألفاظهم وأحوالهم "[2]

---

١ قصص الأنبياء – د. عبد الوهاب النجار – صفحة (١٧٥)

٢ قصص الأنبياء – د. عبد الوهاب النجار – صفحة (١٧٥)

وإن كنت أرجح الرأى الأول ، ولكن ليس بسبب الرضاعة وحدها – وإن كانت الرضاعة عاملا مساعدا – ولكن ما لحق موسى من عقدة اللسان لحقه وهو ما يزال جنينا فى بطن أمه ، وكأن فرض على موسى – عليه السلام – أو قدر له أن يتحمل نتائج ما تعرضت له الأم من خوف وهلع وفزع أثر على مزاجه العام، وكذلك أثر على طريقة نطقه وتواصله مع الآخرين .

أما لماذا تأثر النطق عند موسى – بصفة خاصة – دونا عن بقية الأنشطة الوظيفية التى يقوم بها؟

ذلك لأن جهاز النطق عند الإنسان من الأجهزة المعقدة الحساسة التى تتأثر لأهون الأسباب . " إن الصعوبة فى الكلام نوع من التعطل الوظيفى . إن الكلام عملية معقدة قام الإنسان يتطويرها فقط ، فلكى يتكلم الفرد فإنه يستعين بأعضاء وأنشطة مختلفة من جسمه فكل منها وظيفة أخرى غير الكلام . فالأسنان تطحن الطعام ، واللسان للذوق ويفيد فى عملية الكلام والشفتان للمص وتساعدان فى الأكل والرئتان وعضلات الصدر والحجاب الحاجزوظيفتهما التنفس وهكذا ، وعندمانعرف أن عملية الكلام تحتاج إلى كل هذه الأعضاء فليس من المستغرب أن نجد أن الاضطراب فى الكلام من أكثر حالات التعويق انتشارا بين الأطفال ، وهنا نجد أيضا أن أسباب هذا الاضطراب مختلفة فمنها إصابة المخ ،ومنها تغيير شكل الأسنان أو الفك أو تجويف الفم ، وغالبا لا

توجد أسباب جسمية ظاهرة تفسر اضطراب الكلام ولكن هناك عوامل نفسية تجعل الطفل يتهته فى كلامه أو يعجز عن نطق بعض الحروف أو يصاب بعيب آخر من عيوب الكلام " [1]

إلى تلك الدرجة الأمر معقد ، ومع تعقده ، هو كثير الحساسية والتأثر بأقل انفعال أو توتر أو ضغوط وجدانية ، والكلام فى حد ذاته أمر فى غاية الإعجاز أمور كثيرة ومتعددة تساهم بطريق مباشر وغير مباشر فى آلية الكلام، وكذلك هناك عوامل كثيرة لا حصر لها تؤثر فى تلك الآلية والوظيفة لتجعلها تسير على أكمل وجه ، أو تجعلها تنحرف وتتعطل عن الأداء .

" الكلام عملية معجزة معقدة يتهيأ له أجهزة متعددة فى الجسم افنسانى وتؤثر فيه عوامل خارجية تساهم فى أداء العملية الكلامية مثل الظرف الاجتماعى ، وتأثير الحالة النفسية للمتكلم بل حالة الطقس والمناخ وما يطرأ على المجتمع من تغيرات سياسية واقتصادية يتفاوت تاثيرها فى آليات الكلام عند الفرد ويكشف مسار العملية الكلامية عن العلاقة التكاملية بين النمو الفسيولوجى والنمو اللغوى بل أن أحد العلماء (ترايرtrayer) تشدد على عامل النضج والنمو للأعضاء الفسيولوجية ، فالتدريب يكون ذا مفعول أجدى وأقوى كلما كانت الأعضاء أكثر نموا ونضجا ، وإن نمط الاستجابة يكون مع النمو أكثر وضوحا وتحديدا ، فالعملية الكلامية تخضع لمؤثرين مؤثر داخلى وهو آلية النطق ومؤثر خارجى مكتسب ، وكلا المؤثرين يعتور تركيبه نظام معقد متشابك متصل بأنظمة أخرى داخلية وخارجية ، فنحن لكى نتلفظ بلفظة واحدة

---

١ كيف ترعى طفلك المعوق – صمويل م . ويشيك – ترجمة محمد نسيم رأفت – صفحة (١٨)

نحتاج إلى تحريك مئة عضلة من عضلاتنا ولابد أن يتم ذلك فى توقيت محدد معلوم فالعضلات المتحكمة فى صندوق الصوت أو الحنجرة لابد أن يتوافق عملها الذى يسير فى شبكات عصبية فى قشرة الدماغ ، مع العضلات المسيطرة على حركة الصدر والبطن كما يرتبط كلاهما بحركة عضلات الفم والحلق ، ولعل أشهر الألحان الموسيقية تعقيدا يقصر فى توافقه عما تحتاج إليه جملة واحدة ننطق بها كقولنا : إنه يوم جميل جدا ، والجانب الآخر هو المؤثر الخارجى أى الذى يكون فيه المتكلم مكتسبا متأثرا بما يحيط به من منتج لغوى أو يؤثر على آلية النطق عنده وعلى عامل الفعل فى إخراج اللغة ونقصد به مجموع العمليات العقلية من قبول ورفض وتذكر وتخيل واسترجاع .. الخ "[1]

- **دلالة عقدة اللسان عند موسى**

لو شاء الله ما أثرت تلك الظروف والأوضاع على موسى ، ولجعل لسانه – منذ البداية – منطلقا ، ومنطقه فى أعلى وأسمى مراتب الفصاحة والبلاغة ؛ ليكون سندا له وعونا فى دعوته إلى الله .

---

١ عالم الفكر – المجلد الثامن والعشرون – العدد الثالث – ٢٠٠٠ – توظيف المأثور القولى فى لغة الطفل – د. وسمية عبد المحسن منصور – صفحة (١٤١)

ولكن ما حدث يدل على :

أن رسل الله فى الأصل بشر ، يجرى عليهم ما يجرى على سائر البشر ، ويخضعون لما يخضع له البشر ، ويتاثرون بما يتأثر به البشر ، وتجرى سنن الخلق عليهم كما تجرى على كل البشر . ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف:١١٠] والرسل أنفسهم يعترفون بذلك ، بل يتعجبون حينما ينظر إليهم قومهم بغير تلك النظرة ، ويظنون أنهم يتمتعون

بما لا يتمتع به سائر الناس ، أو يملكون من القدرات والإمكانات ما لا يملكه أحد . ويعلقون إيمانهم على ما يتوهمون أن الرسول يقدر عليه وهم لا يقدرون عليه﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [سورة الإسراء:٩٢]وتأتى الإجابة أو التعقيب على كل تلك التوهمات والترهات بقول حاسم وحازم من الرسول لتبين لهم المفهوم الحق للرسول ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الإسراء:٩٣]نعم إن الله يمن على رسله بكثير من الفضل والمنن ، ولكن كل هذا يزيد ويؤكد على أنهم بشر ولا يخرجهم عن تلك الصفة . ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة إبراهيم:١١]فكل ما يمنحه الله من تكريم وعطاء وميزات وكتاب وحكم ونبوة ، لا

يخرجهم عن كونهم فى الأصل بشر ، ولا يخول للرسول أن يدعى شيئا لنفسه ، أو يرفع نفسه فوق مصاف البشر، أو هم يعطونه أو يخلعون عليه من الصفات مايرفعه فوق تلك المرتبة. ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٧٩]وقد أكد القرآن فى كثير من المواضع على بشرية الرسول ؛ وذلك لتبديد ظن وإبطال وهم عند الناس أن الرسول يجب أن يكون صنفا آخر وخلقا آخر ، وإلا

كيف لهم أن يؤمنوا لبشر ! فإذا كانوا بشرا ، والرسول بشر ، فأين الميزة التى تميزه عنهم وتجعلهم يؤمنون له ويصدقونه ؟ ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [سورة الإسراء:٩٤]ويبين القرآن حكمة بشرية الرسول، أنه من جنس من أرسل إليهم ، ليس غريبا عنهم ، ولا هو من خلق آخر ، ليكون هناك ارتباط أو امتزاج أو حميمية بين المرسل ومن أرسل إليهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة التوبة:١٢٨]

هنا الرسول يعتبر من أرسل إليهم بعضا منه ، جزءا عزيزا عليه ، لذلك يحزن حزنا شديدا حينما يرى منهم الإعراض والصدود ، ويصل به هذا الحزن والغم أنه يوشك أن يقتله ويهلكه ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الكهف:٦] ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٠]ولا أظن أن العلاقة ستكون على هذا التوهج والتأجج والحرص والرأفة والرحمة لو كان الرسول من جنس آخر .

والشئ المنطقى ألا يكون الرسول ملكا إلا إذا كان المرسل إليهم ملائكة ،

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٩٥]

إذن لا فرق بين شخصية المرسل ومن أرسل إليهم ، فهو بشر ، وهم بشر ، الفارق الوحيد أنه يوحى إليهم ، ويتصفون ويتميزون ويتمتعون بما يتناسب وهذا الوحى الإلهى ، من قوة إرادة ومضاء عزيمة ورسوخ إيمان لا يتأثرون بما يلقونه من عناد وعنت ،واستهانة بما يعترضهم من أخطار تهدد حياتهم ، ولديهم من التصميم أن يبلغوا ما أمروا بتبليغه غير مكترثين بالمكابرين والمعاندين

- ومع أن رسل الله يدركون هذا الأمر – كونهم بشر ذى قدرات محدودة – إلا أنهم يتجاوزون تلك البشرية ،ويتعدون حدودها ، ويتخطون قيودها ،فهم ينظرون إلى عظمة الدور ، ونبل الغاية ،وسمو المقصد وشرف الهدف ، فهم رسل الله ،ومن وقع اختيار واصطفاء واجتباء الله لهم ، فهم أهل لكل عظيمة ، بغض النظر عن أى اعتبارات أخرى .

وهم إن رأوا فى أنفسهم تقصيرا فى تأدية الرسالة – هذا الإحساس ليس نابعا عن عجز أو تهاون أو تقصير أو تفريط ، ولكنه إحساس نابع من رغبتهم الأكيدة والمخلصة أن

يكونوا على مستوى اختيار واصطفاء الله لهم – فإنهم يكاشفون الله به ، وهذا ما فعله موسى –عليه السلام– ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [سورة الشعراء:١٣] ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة القصص:٣٤] ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة طه:٣٥]

نعم ، البشرية محدودة القدرات ، متواضعة الإمكانات ، منتهية الغايات ،وفى نفس الوقت المهمة عظيمة ، والدور جليل ، والمسئولية ثقيلة ثقيلة ، وهم لا يريدون تأدية دورهم على أقصى ما تطيق قدراتهم ، ولكنهم يريدون تأدية عمل بما يتناسب مع عظمة وجلال الله ، لأنهم مبلغون عن الله ، ويطلبون من الله – مساعدته ومعاونته أن y يوفقهم إلى ما يحقق رضاه عنهم ، فموسى يستطيع –منفردا – أن يذهب إلى فرعون ويدعوه ،ولكنه سيكون أكثر تأثيرا وأشد فاعليه إن كان معه أخوه (هارون) ، فالله لن يترك الخوف يتسرب إلى نفسه ،كيف وقد قال الله – عزوجل ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة النمل:١٠]

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة القصص:٣١] ومع ذلك ولشدة حرص موسى ورغبته الأكيدة والصادقة فى أن يؤدى مهمته بدون أن يشوبها أى شائبة من نقص فإنه طلب ما طلبه ، لعلم موسى أن الله لن يتخلى عنه بأن يجعله ضيق الصدر ، أو بأن يجعل لسانه يتعثر ولا ينطلق ، ومع ذلك ، وطالما الأمر خاص بدور ومهمة كلف الله بها موسى ، فلن ينهض بها موسى – على الوجه الذى يطمئن موسى أن يرضى الله – إلا بعون وسند وتمكين من الله ... نعم ، موسى سيبذل أقصى ما فى وسعه ، وكل ما تسمح به طاقته البشرية ، ولكن هذا قد يرضى موسى ويرضى الآخرين ، ولكن قد لا يرضى الله ، ولا يستطيع الإنسان أو الرسول أن يطمئن إلى رضا الله ، إلا بأن يطلب من الله أن يوفقه إلى ما يرضاه ، بدون هذا، الإنسان عاجز عن الوصول إلى رضا الله وإذا كان الرسول يعلم أن الله مستجيب لدعائه ، فلم لا يدعو ، ولم لا يطلب ؟

لذلك نجد موسى لديه إلحاح فى الطلب ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ [سورة الشعراء:١٣]

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة طه:٢٥: ٣٥]

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة القصص:٣٤]موسى ليس فى حاجة إلى وزير أو إلى مساعد أو معاون ، بسبب نقص فى القدرات أو ضعف فى الإمكانات ، ولكنه يريد ذلك ليؤدى الدور وتتم المهمة على الوجه الأفضل ، ولو لم يكن هناك (هارون) لأدى موسى الرسال وبلغ ما أمر بتبليغه ، ومن أجل هذا جاء قوله – y ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة طه:٣٦] وكانت الإجابة مفصلة ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة القصص:٣٤] وكانت الإجابة مفصلة ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة القصص:٣٥]

فكل ما طلبه موسى نابع من إحساس نفسى ، خوف أو قلق أن لا يؤدى مهمته ورسالته على الوجه الأكمل ، وفى نفس الوقت لديه رغبة قوية أن يؤديها أداء يفوق

قدراته يتعدى طاقاته ، وحين يكن معه آخر سيكن الأداء أفضل ، والعمـل أتـم ، كـما قـال موســى ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [ســورة طه:٣٥]والدليل على ما نقول ، أن صدر موسى لم يضق وهـو يحـاور ويحـاج فرعـون وقومه ، ولم يحتبس لسانه ، ولم يتحـدث (هـارون) بالنيابـة عـن موسـى ، ففـى كـل الآيات

والسور لم نسمع شيئا قاله (هارون) إلا تبريره لموقفه لما فعلـه (السـامرى) .وحيـنما يخاف الإنسان من شئ لا وجود له ، فالخوف هنـا نفسـى ، نـابع مـن الـنفس ، هنـاك علاقة وثيقة بين النفس والخوف ، الخوف موجود داخل النفس قبل أن يوجد ما يبرره ويسوغه خارج النفس .

وحينما يخاف الإنسان من شيء قد لا يحدث ، ويتوقع حدوثه ، فهنا أيضا الخوف نفسى ، وإذا تحسب الإنسان أن مجرد إحساسه بالخوف قد يـؤثر عـلى بقيـة أنشـطته وبـذلك يعوقه عن أداء مهمته ، هنا الخوف يكون أشد .

فموسى يخاف أن يكذبوه ، ويخـاف أن يقتلـوه ، ويخشـى ألا يتسـع صـدره لترهـاتهم وأقوالهم وعنادهم ، ويتوقع ألا ينطلق لسانه ، فيصبح فى غاية الحرج... رسول يحمـل رسالة من الله إلى أكبر طاغية ، ولا يستطيع أن يبين عما فى نفسه !! ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٥٢]

- **حـقـيـقـة الـعـقـدة:**

جاء فى تفسير الكشاف : " واختلف فى زوال العقدة بكاملهـا فقيـل ذهـب بعضـها ، وبقى بعضها لقوله تعالى – ((وأخى هارون هو أفصح منى لسـانا)) وقولـه تعـالى – ((وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)) – وكان فى لسان " الحسين " بن على رضي الله عنهما – رتة

فقال رسول الله – ﷺ – ((ورثها عن عمه موسى)) ، وقيل زالت بكاملها لقوله تعالى – ((قد أوتيت سؤلك يا موسى)) – وفى تنكير العقدة وإن لم يقل عقدة لسانى أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهما جيدا ولم يطلب الفصاحة الكاملة و (من لسانى) صفة للعقدة ، كأنه قيل عقدة من عقد لسانى"[1]

هل كانت العقدة عند موسى وهو صغير فلما كبر زالت زوالا كاملا ؟ أم أنها زالت زوالا جزئيا ، وبالتدريب والمحاولة والنضج تخلص منها موسى إلى حد ما ، ولكنها مع ذلك تركت أثارا ، فلا يستطيع موسى أن يقيم لسانه كما يريد ويبغى ؟

أم أنه تخلص منها نهائيا ولم يعد يعانى منها ومن أثارها على نطقه وكلامه إلا فى أوقات معينة وحالات خاصة ؟

تلك الأوقات المعينة والحالات الخاصة حينما ينفعل ويتوتر أو يغضب أو يخاف أى أنه ليس فى حالته الطبيعية ، حينئذ لا ينطلق اللسان كما يريد صاحبه الإنسان الذى لم يعان مطلقا من عقدة اللسان ، إذا غضب أو توتر أو انفعل قد ينعقد لسانه ، حتى وإذا تحدث فحديثه يبين عن حالته الانفعالية الخاصة به أكثر مما يبين عن منطقه وفكره .

فالعلاقة وثيقة بين الحالة النفسية والانفعالية وعملية النطق . ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٣]

---

١ تفسير الكشاف – الزمخشرى – المجلد الثانى – صفحة (٥٣٥)

عند موسى ميراث من الخوف .

هذا الميراث سيؤكده تكذيبهم له ، وهل كان موسى يتوقع أنهم سيصدقونه ويؤمنـون له بداية ، وهو الذى عاش بينهم عمرا ،ويعلم مقدار عنادهم وتعنتهم؟

يعلم أنه سيقف أمام فرعون بكل جبروته وسلطانه وصولجانه ، ويعلم أنه لن يكـذب فقط ، بل سيتهم بأشياء أخرى ، ويلاحق بفعلته – قتلـه المصرـى – التـى تـاب عنهـا وقبل الله توبته .

كل ما يحدث له فى هذا الموقف الرهيب أمام فرعون وملائـه ومحـاولتهم المسـتميتة أن يفندوا كل ما يقوله كل هذا سيخرجه عن حالته الطبيعية إلى حالة أخـرى مـن القلـق والحزن والاحباط والحسرة والخيبة كل هذا سيسبب له ضيقا فى الصدر .

هذا الضيق – منطقيا وعلميا ونفسيا – سيؤثر على نطقه وكلامه ، وإذا ضاق الصدر ، فلا تتوقع من أى عضو من أعضاء الجسم أن يقوم بوظيفته كما يجب ، لا سيما لو كانت وظيفة اللسان ، التى يعتمد عليها أى نبى أو رسول اعتمادا كاملا ، وكما رأينا – سـابقا – كم هى معقدة ومركبة وعسيرة عملية الكلام ، وأن تلـك الوظيفـة شـديدة التـأثر بالحالة النفسية والوجدانية ، وقد يرتج على الإنسان فلا يتكلم بالمرة ، فعلى المـتكلم – إن استطاع – أن يتحكم أولا فى انفعاله وتوتره ليكون قـادرا عـلى أن يمتلـك ناصـية البيان عما يرى تبليغه . "وتكاملية اللغة تتبدى أيضا فى العلاقة بين الكلام وما يجـب أن يحمله من شحنة وجدانية أن تكون مصاحبة له بلا زيادة أو نقصان " [1]

---

١ الشخصية المتكاملة – د . يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (٢٠)

إنه موقف رهيب سيتحددعليه أشياء أخرى كثيرة ، ولابد لموسى أن يعد له عدته ، لا يريد أن يفاجئ بشيء لم يكن فى حسبانه ، يريد أن يكون فى قمة القوة كما هو دائما ، لا يريد شيئا ينتقص من تلك القوة أو ينال من مكانته ، أو تهتز تلك الصورة التى وضعها لنفسه . يريد من الآخرين أن يعتقدوا ويؤمنوا أنه نبى .. رسول من قبل الله ، مبلغ عن الله متحدث عن الله .

وهو إذا تحدث لن يتحدث حديثا مرسلا أو عاديا .

- فأولا : هو نبى ورسول ، وهذا هو المقام أو المكانة التى سيتحدث منها .

- ثانيا: سيحاور ويناقش ويفند ويستعين بالحجج والأدلة ، وسيعرض أمور عقيدة تتصل بالألوهية حديث يمس دعائم عالم قائم متشبث بالبقاء ، رافضا بكل قوة وجبروت مشروع أى عالم آخر ، لأن أى عالم آخر سيلغى هذا العالم ، لذلك فموسى سينتقل بين مستويات مختلفة وعليا من البيان والفكر ، لذلك قال عن (هارون) (هو أفصح منى لسانا) ، المقال هنا تتفاوت فيه مدارج الفصاحة ، فصاحة اللسان ، ونصاعة البيان ، وقوة الحجة ومساندة الفكرة .

" وتكتسب اللغة أهمية أخرى من العلاقة الموجودة بينها وبين التفكير إذ تدخل اللغة فى كثيرمن عمليات التفكير خاصة التفكير المجرد ، والتمييز بين المعانى كذلك فى التعبير عن العمليات الفكرية التى يقوم بها الشخص ولا يدركها الآخرون إلا إذا عبر عنها " [١]

---

١ المرجع فى علم النفس – د . سعد جلال – صفحة (٢٠٦)

هنا يجد النبى أو الرسول نفسه وسط ميدان معركة فيها كر وفر ومناورات ومناوشات ، وخطط توضع وترسم بكل دقة ومهارة ، لتنفذ بكل مقدرة وجدارة ، أسلحة تلك المعركة الكلمة – الفكرة – الدليل– الحجة ، هنا كيان النبى أو الرسول فى أعلى قمة التيقظ والاستثارة ، والقوة من جميع النواحى .. ولكن سيد الموقف هنا اللسان ، هنا لا يكفى من اللسان أن يتحرك أو يتكلم أو يسرع ، هنا اللسان فى حاجة إلى الانطلاق ، كقذيفة المدفع التى تدمر وتزلزل وتبيد ، موسى هنا لا يخشى من عدم التكلم أو الحديث أو الحوار أو المناقشة والمجادلة ، إنه يخشى إلا يبلغ المقصد الإلهى والبيان الربانى ، يريد أن يفحم ينقد وينقض ، يبدد أوهام الكفر والضلال ، ويحطم الجبروت والطغيان

موسى يريد من لسانه أن ينطلق ويصول ويجول مفندا مبطلا مبددا دامغا ، وكان له ما أراد .

ولكن لماذا كان موسى يخشى مواجهة ومقابلة فرعون ؟

فرعون ليس إنسانا عاديا . أو هكذا كان ينظر إليه ، فالسحرة – وهم ذو منزلة خاصة فى المجتمع – يقسمون به﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٤] ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [سورة الشعراء:٢٩] ، وهو لن يواجه فرعون فقط ، بل الملأ ، وهم أناس على قمة العلم والثقافة والذكاء والفطنة وبعد النظر وسداد الرأى .

إذن هناك أكثر من جبهة ، وعلى موسى أن يضع فى اعتباره أنه سيواجه **كل هؤلاء** :

- فرعون .الملأ .السحرة .ألوف مؤلفة من الناس أتت لتسمع وتشاهد .

وموسى – أمام كل هؤلاء – مطالب أن يدافع عن نفسه ، ويبرر فعلته ، وكذلك مطالب أن يتحمل تكبر فرعون ومنته عليه بأنه ربى فى قصر الفرعون ، ومكث فيه سنينا ، ومطالب أن يتحمل سخريته منه﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٥٢] ومطالب أن يبطل حجج ويفند دلائل فرعون ويقنعه بأنه رسول من قبل الله .وكذلك مطالب بأن يواجه الملأ ويثبت أمامهم ويتحمل نظراتهم وتعليقاتهم ،ومطالب – كذلك – بمواجهة السحرة – ليس ساحر واحد ، المنطقى أن يكون ساحر واحد ، وليس مجموعة – التحدى الأكبر له .

ثم الألوف الذين يقفون ليشاهدوا ويسمعوا .

كل هذا إذا تجمع فى زمان واحد ومكان واحد – لا شك – سيمثل ضغطا هائلا على أعصاب موسى ، الأعين كلها مصوبة على موسى ماذا سيفعل ؟

والأذان كلها مصغية إليه ماذا سيقول ؟

وعلى ما سوف يفعله ، وعلى ما سوف يقوله يتحدد مصيره ومصير رسالته .

كل هذا كفيل أن يجعل موسى يتوتر– يضطرب – يغضب – ينفعل . وإذا تكلم وهو فى هذه الحالة وفى هذا الموقف قد يتلجلج ... قد يتعثر ، لأن الكلام فى المقام الأول توافقات عصبية فى غاية الدقة والتعقيد .

" فكأن الكلام فى المقام الأول عبارة عن نشاط اجتماعى يصدر عن الفرد وتتدخل فيه عدة توافقات عصبية دقيقة مركبة ، يشترك فى إدائها مركز الكلام فى المخ الذى يسيطر على الأعصاب ، وهذه تقوم بتحريك العضلات التى تقوم بإخراج الصوت ، وكذلك

تشترك الرئتان ، والحجاب الحاجز فتقوم الرئتان بتعبئة الهواء ،وتنظيم اندفاعه وبمرور الهواء على الأوتار الصوتية وداخل الحنجرة والفم والتجويف الأنفى ، تحدث تشكيلات مختلفة من الأصوات ،وكذلك تساعد تغييرات أوضاع اللسان والشفتين على زيادة التنويع فى الأصوات " [1]

إذن لا يمكن عزل الأداء اللغوى السليم عن الحالة النفسية والوجدانية والفكرية للإنسان المتكلم ، فإذا كان الإنسان العادى يتعثر فى النطق للخوف ، أو لأن الأفكار أسرع تدفقا من اللسان ، أو أن الثروة اللغوية قليلة ولا تساعد صاحبها ، فإن الأمر يكون أشد صعوبة إذا اجتمعت تلك الأسباب الثلاثة :

- الخوف .
- تدفق الأفكار .
- قلة المحصول اللغوى أو عدم ارتفاع وارتقاء اللغة بنفس إرتقاء الفكر والحجج والدلائل .

" يمكننا أن نقول : إن الإنسان يتعثر فى نطقه فى الأحوال العادية لأسباب ثلاثة : أولها الخوف ، ولذا كانت خير طريقة يعبر بها الممثل عن الخوف هى طريقة التعثر فى النطق

وثانيهما : أن يكون اللفظ قاصرا عن الأداء ، ولذلك يضيع وقت فى البحث عن الألفاظ المناسبة .

وثالثها : أن يكون تدفق الأفكار أسرع من تعبير الإنسان عنها لعجز أساليب تعبيره بسبب قلة المحصول اللغوى مثلا .

---

[1] أسس الصحة النفسية – د. عبد العزيز القوصى – صفحة (٣٧)

والسببان الأخيران يمكن مشاهدة أثرهما بوضوح وفى أبسط صورة عند محاولة الكبير التكلم بلغة أجنبية لا يتقنها تماما ،ة فهو يتعثر إذ ذاك ، بينما لا يتعثر عند التكلم بلغتـه العادية "[1]

والعناصر الثلاثة كانت – إلى حد ما – موجودة بصورة أو بأخرى لدى موسى .

الخوف كان موجودا وله مبرراته .

تدفق ووفرة الأفكار والحجج والدلائل ، مـع محدوديـة قـدرة اللغـة وتلـك صـعوبة يواجهها جميع الأنبياء والرسل ، فما حصلوا عليه من علم وحكمة كثير وعميق ، لقـد تلقوه مباشرة من الله ، أو هم عايشوه خبروه عاينوه ، بعد ذلك يريدون ترجمة هذا إلى ألفاظ وكلمات تكون قادرة على إيصالها إلى الناس ، لـيس هـذا فحسـب ، بـل يكـون الناس قادرين على فهمها واستيعابها .

فهناك العلم والحكمة الإلهية، هذا مستوى .

وهناك الرسول حينما يتلقى تلك الحكمة والعلم، وهذا مستوى آخر .

وهناك ترجمة هذا إلى ألفاظ وكلمات ، وهذا مستوى آخر .

وهناك فهم ووعى وقدرة الناس للتعامل مع تلك الألفاظ والكلمات . فالبشر يجـدون صعوبة وعسر حينما يتعاملون ويتعاطون مع لغة المعانى أو التى تتناول المجردات .

---

١ المصدر السابق – صفحة (٣٣٣)

" على أن لغة المعانى ليست فى حقيقة الأمر ذات مستوى واحد ، بل أنها تتسم بالمستويات الكثيرة المتباينة . فكلما ارتقى المرء ذهنيا وثقافيا كان خليقا به أن يتمتع بمستويات لغوية أرقى وأكثر دقة وتعقدا . وعلى العكس من ذلك فإذا لم يحظ المرء بمستوى ذكاء مرتفع وبمستوى ثقافى مناسب فإنه لا يستطيع أن يرتقى إلى مراقى اللغة العالية " [1]

١ الشخصية المتكاملة – د . يوسف ميخائيل أسعد – صفحة (١٨)

الفصل التاسع
القــوى الأمـــين

كان موسى رجلا قويا لا شك فى هذا ، ولا يوصف الرجل بتلك الصفة إلا إذا كان هناك تكامل فى تلك الصفة ، بمعنى أن يكون قويا فى غضبه ، قويا فى حلمه ، قويا فى صبره ، قويا فى أمانته ، قويا فى إيمانه .

فلا معنى أن يوصف رجل بالقوة فى جانب والضعف فى جانب آخر ، فالشخصية الإنسانية كالبناء القوى لا يوصف بتلك الصفة إلا إذا كانت القوة تسرى فى جميع أجزائه وأنحائه ، وتجعله متماسكا ، وأى ضعف فى جزء من أجزائه أو فى جانب من جوانبه ، كفيلة بأن تجعل البناء يتقوض وينهار .

وينطبق هذا على موسى – عليه السلام – وكأن القوة كانت قدرا مقدورا عليه :

- كان ولابد أن يكون إنسانا قويا بمعنى الكلمة .
- كان ولابد أن يكون رجلا قويا بمعنى القوة .
- كان ولابد أن يكون نبيا قويا بمعنى الكلمة .
- كان ولابد أن يكون رسولا قويا بمعنى الكلمة .
- كان ولابد أن يكون ثائرا قويا بمعنى الكلمة .
- كان ولابد أن يكون زعيما قويا بمعنى الكلمة .

كل الظروف التى أحاطت به منذ نشأته زمانا ومكانا ، كانت تستدعى رجلا قويا فى المقام الأول ، بدون تلك القوة سيفتقد تلك اللغة المشتركة بينه وبين الآخرين ، لن يكون هناك جسور من التواصل ، يعبر من خلالها إلى الآخرين ، أو يعبرون إليه منها ليحدث لقاء على صعيد واحد .

كل شئ هنا ينطق بالقوة .

القوة حينما تبلغ درجة الانحراف لتتحول إلى طغيان وجبروت .

مصر فى ذلك الوقت – حكما وحاكما وعلما وفنا وفكرا – بلغت شأوا عظيما من القـوة قل أن تجد له نظيرا فى العالم وقتئذ .

فالنظام الحاكم يقبض على أزمة الأمور بيد من حديد فى الداخل ، وذو بأس شـديد فى الخارج ، فرض سيطرته وهيمنته على كثير من المناطق من خلال المعارك التى خاضـها منتصرا .

والحاكم ، لم تعرف البشرية مثله فى الاستبداد والقـوة ونفـاذ الـرأى والكلمـة بـدون معقب لكل ما يأمر به .

وماوصل إلينا من أثار هؤلاء القوم ، وما احتفظ به التاريخ ، يشهد ويـدل أنهـم عـلى قدر عظيم من العلم والفكروالفن ، وأن كل هؤلاء كانوا يمجدون ويقدسون ويعلون من مبدأ القوة فى جميع صورها وأشكالها ، لأن هذا هو المبدأ الكامن وراء كل تصرفات تلك الأمة أو الجماعة من الناس ، هذا هو جماع أمـرهم ، خلقـوا ليكونـوا أقويـاء ، أو هناك ظروف حتمت وفرضت وألزمت عليهم هذا النوع مـن الوجـود أو التواجـد ، وإن تخلوا عن هذا الأمر فهم يتخلون عن وجودهم و تواجدهم .

فأغلب أثارهم مسجلة فى الحجر ، أو على الحجر أو بالحجر ، وطبعا الدلالـة واضـحة فى اختيارهم هذا العنصر العنيد الصلب القوى دونا عن غيره .

وكل أثارهم تتسم بالقوة والشموخ والصرامة إلى حد القسوة ، لا إعجواج لا ضعف لا رخاوة لا وهن ، امتدادات نافذة مخترقة فى كل الاتجاهات.

تحدوا الزمن وانتصروا عليه .

عاندوا الفناء ، واستطاعوا – إلى حد ما – أن يحتفظوا لأنفسهم بمساحة ما زالت تقاوم للتخلص من قبضته .

كل أمور حياتهم واضحة – صريحة – لا غموض- لا التباس- لا تعقيد – لا خفاء .

لابد أن يكون موسى من نفس هذا النسيج ، متوافقا ومتفقا مع هذا المبدأ الكامن وراء هذا النوع من الوجود والتواجد .

المغايرة هنا لن تجدى .

المخالفة هنا لن تنفع .

المعارضة هنا لن تفيد .

وإنما مشابهة وموافقة وتأييد لتلك النظرة التى ينظرون بها إلى الأمور ، وإن خالفهم وعارضهم فى كثير من الأمور .

ولأمر ما ربى ونشأ موسى فى عقر هذا النظام .

فهو استمد منه القوة ليكون بعد ذلك قادرا على معارضته وهدمه .

ولم تكن القوة مع موسى كالقوة مع أى شخص ، فالأقوياء صنفان :

الأول : لا تستطيع أن تصدر حكما بشأنه إلا من خلال أفعاله وتصرفاته ، وفى حاجة إلى مواقف تجلى وتظهر وتكشف وتبين تلك الصفة ، وقد يختلف على دوافع تلك الأفعال والتصرفات ، هل دافعها القوة فعلا أم التهور والاندفاع أو اليأس والقنوط أم الجهل ؟ وهل هو قادر فعلا على تحمل نتائج أفعاله وتصرفاته ، أم أنه قد يتهرب ويتبرأ مما فعل حينما يجد النتائج خطيرة وفى حاجة إلى جرأة وشجاعة لمواجهتها .

الثانى : من أول نظرة يحكم العقل والوجدان أنه رجل قوى ، منذ البداية ، ثم تأتى التصرفات والأفعال لتؤكد وتدعم تلك النظرة ، بل أن هذا الحكم ليس فى حاجة إلى تأكيد وتدعيم ، وليس التكوين البنيانى هو الذى دفع إلى هذا الحكم ، فكم من رجال طوال عراض يملأون العين ، ومع ذلك لا ينقصهم شيء قدر القوة .

وليس التصرفات والأفعال هى التى تذكى وتؤيد هذا الحكم ، فقد تختلف الدوافع من وراء التصرفات .

ولكن هناك شئ يفيض من الشخصية ، يدفعك أن تحكم هذا الحكم .وإن هذا الشيء لا يستعصى على الدراسة أو التنظير أو التقنين ، ولكنه ليس فى حاجة إلى هذا لأمرين :

- أنه موجود وواضح وملموس ، يلمسه العقل والوجدان ، لذلك ليس فى حاجة إلى دليل وبرهان ، لأن الذى يطلب الدليل والبرهان هنا منكر لوجود هذا الأمر ، ومن ينكر المواهب والقدرات الإنسانية يحكم على الإنسانية بالفقر والجدب والإفلاس .
- إن هذا الأمر ليس شائعا فى كل الناس ، وإنما هو موجود ومتوافر فى الأحاد ، وأى دراسة أو بحث يريد أن يضع قانونا ليعمم على المئات ناهيك عن الألاف أوما يزيد .

إذن هناك شيء فى الشخصية . رسالة ترسلها الشخصية إلى من حولها أنها على تلك الصفة قد لا تستقبل تلك الرسالة بالمرة ، وقد تستقبل بصورة سيئة وبأوضاع مشوشة تنحرف بالصورة والصفة عن وضعها الصحيح ، وقد تستقبل استقبالا صحيحا وسليما ، فتظهر صورة الرسالة واضحة نقية ، بارزة الملامح .

وهذا ما حدث مع المرأتين:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة القصص:٢٨]

المشهد : مرأتان تقفان تحاولان أن تبعدا غنمهما أن تذهب إلى مورد الماء ، ويظهر من ملامحهما أنهما قد ضاقتا بهذا الأمر ، ونفدا صبرهما وشعرتا بعدم الحيلة والقوة ... وهذا موقف يتكرر – ولا شك – كل يوم ، فالمورد عليه زحام من الرعاء ، وكونهما امرأتين وعلى قدر من الحياء لا يجدان من نفسيهما الجرأة أو الشجاعة على مزاحمة الرعاء ، فينتظران حتى يصدر الرعاء ، وهذا قد يؤخرهما عن الوقت المفروض أن تعودا فيه ، ولكنهما مجبرتان على هذا ولا بديل عن ذلك.

يراهما موسى وهو فى حالة من الاجهاد والتعب والاعياء ينسى ما يعانيه ، أو أن ما يعانيه لا يشغله عن الآخرين كدأبه ، يتقدم من المرأتين بكل جرأة وصراحة ويسألهما : ما خطبكما ؟

وكأن موسى – بسؤاله – يقوم ببحث حالة لهاتين المرأتين قبل أن يقوم أو يقدم على أى مساعدة أو تدخل .

المرأتان : (بعد تردد) لا نسقى حتى يصدر الرعاء .

وكانت المرأتان فى غاية الذكاء أو اللباقة ، فلم تعطيا الفرصة لموسى أن يسأل عن السبب ، أو أردتا أن تستدرا عطفه ، أو تطلبا مساعدته بطريق غير مباشر ، وبأسلوب فيه عزة وعفة ، فقالتا : (وأبونا شيخ كبير) .

بحث الحالة للمرأتين قد اكتمل واستوفى ، فتقدم موسى ودافع وتدافع القوم وسقى للمرأتين ، ثم تركهما وكأنه لم يفعل شيئا ، فمساعدة الآخرين شئ مركوز فى طبعه ، لا ينتظر عليه أجرا . ولجأ بعد ذلك إلى ظل صخرة أو ظل شجرة ، ذاكرا أنعم الله عليه ، ومع ذلك فهو فقير ومحتاج إلى رعاية واهتمام الله .

ما الذى دار بعد ذلك بين الأب وابنتيه ، ومن كان صاحب الاقتراح أن يدعى موسى ليأخذ أجره ؟ هل كانت المرأتان ، أو واحدة منهما ، أم الأب هو الذى اقترح ؟

كل الذى ذكره القرآن أن واحدة من المرأتين ذهبت إلى موسى . ونلاحظ أن الأمر لم يستغرق سوى مدة وجيزة ، وقالت المرأة على لسان أبيها – والعرف واللياقة يفرضان ذلك – : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

وجاء موسى وتحدث مع الشيخ ، وتعهد الشيخ بحمايته ، ثم قالت إحداهما – ويرجح المفسرون أنها هى التى ذهبت تدعوه على لسان أبيها – يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين .

□

من أين عرفت المرأة أن موسى قوى ؟ بل قوى أمين ؟

والمدة التى مضت وجيزة للغاية لم يتبادلا فيها سوى كلمات معدودة ؟

يقول المفسرون إنها استنتجت أنه قوى من خلال مزاحمته للرعاء حتى سقى لهما ، وفى الحقيقة أن هذا الأمر ليس فى حاجة إلى قوة ، فالذى منع أو أبعد المرأتين عن السقى كونهما امرأتين وليس كونهما ضعيفتين ، فأى رجل كان سيفعل ما فعله موسى بأى حيلة من الحيل . ويتمادى المفسرون ويقولون كان هناك حجر لا يقدر على إزاحته مجموعة من الرجال ، وتمكن موسى من إزاحته ، حتى يتسنى له سقى الغنم ، وهذا تعسف لا مبرر له ، فالمرأة لم تكن فى حاجة إلى كل تلك الدلائل ... لأنه قد تتوافر الدلائل ولا تدل حقيقة على قوة صاحبها ، ولكن المرأة أدركت بفطرتها وحدسها أن موسى قوى ، وفطرة المرأة وحدسها لا تخونها ولا تكذبها لا سيما لو كان الأمر متعلقا بالرجل ... وبالأخص لو كان الأمر متعلقا بقوة الرجل ، لأن وجودها كله متعلق بالرجل ، وسلامة هذا الوجود يعتمد بالدرجة الأولى على قوة الرجل ، ، فالمرأة أصلح من يعتمد عليه فى تقرير هذا الأمر وإثباته أو نفيه ، وهى بعد ذلك ليست فى حاجة إلى دلائل تثبت أو تؤكد هذا الحدس .

والدليل على أنها لم تعتمد على شيء مما قال به المفسرون واعتمدت على فطرتها وحدسها ، أنها حكمت عليه – أيضا – بأنه (أمين) ، ويقول المفسرون إنها عرفت ذلك من أنها كانت تسير أمامه لترشده إلى الطريق ، وكان ثوبها يشف على ملامح جسدها – وزيادة فى التدليل – قالوا إن اليوم كانت الريح فيه شديدة ، فكان الثوب يلتصق بجسدها ، فطلب موسى – عليه السلام – منها أن تسير خلفه وتصف له الطريق ، كى يتجنب النظر إليها ، ويمنع عينيه أن تتبع تفاصيل جسدها .

طبعا هذا تعسف وتعنت فى التفسير ، وحالة موسى النفسية والجسدية لم تكن تسمح أن يلتفت لتلك الأمور التافهة . رجل خرج من مصر مطاردا من عملية قتل ، وسار بدون صحبة ولا زاد ثمان ليال – المدة من مصر إلى مدين – لا يأكل إلا ما يصادفه ، ولا ينام إلا قليلا ، وبلغ به الجهد والتعب والإرهاق كل مبلغ ، ولا يدرى ماذا يحدث فيما تركه بمصر ، ولا ما سوف يحدث لما هو مقبل عليه ، قمة الحيرة والقلق والخوف والتوتر والاضطراب .

كل هذا مقبول ويمكن فهمه لو كان الرجل تعود على هذا ، ولكن أن يحدث كل هذا لرجل ربى وعاش فترة طويلة فى قصر فرعون ، وتعود على الحياة السهلة الرغدة الناعمة ... نحن نتحدث عن أمير كان محاطا بكل مظاهر الرعاية والاهتمام والاجلال والتقدير ممن حوله ، فجأة يجد نفسه مطاردا تتقاذفه البلاد ، ينام على الأرض ويلتحف بالسماء ، يأكل مما يصادفه مثل وحوش البرية ، والقلق والخوف يقض مضجعه ، إن كان له مضجع ، " موسى رجل ربى على العزة فى بيت فرعون ، مدللا فى نعيم دائم ورفاهة ، وقد نزل به من الجوع ما اضطره إلى أن يرضى بأخذ أجر عمل من أعمال المروءة ، والجوع يرضى الأسود بالجيف ، وأحسبه لو كان فى بلهنية من العيش لم يرض أن يأخذ أجرا على زكاة قوته "[1]

حتى ولو حدث من موسى أن طلب منها أن تسير خلفه ، وهو يسير أمامها ، فإن هذا التصرف من أى إنسان لا يدل على اتصافه بصفة الأمانة ، لأن تلك الصفة أكبر وأعمق وأشمل وآصل من أن يدل عليها تصرف بسيط كهذا .

---

١ قصص الأنبياء – د . محمد إبراهيم النجار – صفحة (١٦٧)

فأنت لا تصف إنسانا أنه أمين إلا إذا توافرت شروط وأحسست نحوه بجملة مشاعر منها :

- الاطمئنان ، فأنت لا تخاف منه ، وإنما تشعر بالأمن والطمأنينة نحوه ، أو هو يشعرك بالطمأنينة ، رغم أنه لم يكن هناك سابق معرفة أو معاملة ، فلا تشعر نحوه بتلك الجفوة أو النفرة التى تشعر بها نحو الغرباء .
- الثقة به ، وفى العادة هذا الإحساس والشعور يكون وليد تجارب ومواقف كثيرة ، يثبت صاحبها أنه أهل وجدير بالثقة ، هنا الثقة مقدمة وليست نتيجة، مع ما فى هذا من مغامرة وخطورة ، ولكن ما الحيلة ، ومجرد تواجد هذا الشخص يشعر بل يملأ النفس وشعابها بهذا الإحساس .
- الصدق ، كل ما قاله وما لم يقله ، فالصدق صفة لازمة وثابتة ومستقرة فى كيانه ، الصدق لا يتخلل كلامه فحسب ، بل هو صادق بدون أن يتكلم وقبل أن يتكلم ، ويجلى هذا الأمر ((أبو بكر الصديق)) – رضي الله عنه – فقد آمن برسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدون دليل أو برهان ، ولم يتردد ولم يلبث ليفكر – مع أن هذا حقه ، ولا تثريب عليه إن فعل ذلك – وإنما آمن إيمانا لا رجعة فيه، ولم ينسها له رسول الله ، فأطلق عليه (الصديق) .
- الوفاء ، كلمة جامعة للوفاء ، هو التمام ، أن تتم كل شيء ولا تنتقص منه شيئا ، رغبة نبيلة ، لأنه يرى النقص أو عدم إيفاء الشيء حقه نوعا من اللؤم ، أو نوعا من إعوجاج الخلقة لا تليق بالرجل الكريم ، فما شئ يباشره ، وما عمل يزاوله إلا ويتمه إلى غايته ومنتهاه .

▪ الحفظ ، وعدم التفريط فى شيء مهما كان هينا ، وأن يحافظ على وعد أو عهد أو أى شيء يعهد إليه ، هو لا يقوم بعملية الحفظ فقط ، وإنما يتمادى ليكـون رقيبـا وحارسـا على هذا الشيء موضع الحفظ والصيانة .

كل تلك المعانى والمقاصد متفرعة من معنى الأمانة ، ولا نستطيع أن نحكم على إنسان بأنه أمين إلا إذا توافرت تلك الشروط .

فهل المرأة بحثت عن كل تلك المعانى ووجدتها متوافرة في موسى؟ أم أنها أدركت بفطرتها وحدسها أن موسى رجل قوي ؟

وطالما هو قوى ، فهو أمين ، فعماد الصفات الحميدة والكريمة فى الرجل هـى القـوة ، فإذا اتصف بالقوة ، فلا عليك بعد ذلك أن تصفه بالأمانة والصدق والوفاء والعفاف لأن الخيانة ضعف، والكذب ضعف ، والكفر ضعف ، وكل النقائص الخلقيـة صـور من صور الضعف .

هذا المنطق الـذى حـدى برسـول الله – ﷺ – أن يتمنـى أن يعـز الله الإسـلام بأحـد العمرين ، لأن كليهما قوى ، والرجل القوى جمـاع لكـل المكرمـات الطيبـة والخـلال النبيلة والصفات الشريفة .

ولا نقصد القوة البدنية ، وإنما نقصد قوة الروح والضمير والإرادة والتصميم .

لأن هذه القوة تدفع وتحض الرجل أن ينشد التمام والكمال فى كل شيء ، على قـدر مـا تسمح به طاقته البشرية .

وإذا كان هذا الرجل القوى نبيا ، فنشدانه للكمال والتمام لا يقف عند حد، وهذا يفسر الكثير من تصرـفات وأفعـال موسـى ، وهـذا يوضـح ويكشـف مـا وراء الـدعوات والطلبات التى طلبها من الله ، وأجاب الله – y – تلك الطلبات .

******

إذن توصلت المرأة بفطرتها وحدسها أن موسى قوى ، وطالما هو قوى فهو أمين ، وإذا وجدت من هو قوى وخائن ، فهناك خلل فى تلك القوة ونقص، أو التبس عليك الأمر فوصفته بصفة هو برئ منها .

ولكن لم وصفت المرأة موسى – عليه السلام – بتلك الصفة وهو جماع الصفات المثالية والكاملة ؟

المرأة لتتواجد كأمرأة وأنثى فى حاجة إلى رجل ، والرجولة قوة ، وهى فى مسيس الحاجة إلى القوة ، لا سيما فى البيئة الصحراوية البدوية ، عماد هذا العالم القوة ، والأخطار والمهالك محدقة بالإنسان فى كل آن وكل مكان ، وهذا لا يقنع المرأة أن تحميها وتدفع عنها الأخطار فحسب ، وإنما فى حاجة إلى من يحافظ ويكون أمينا عليها ، ليست فى حاجة إلى القوى الذى يستخدم سيطرته وجبروته وتحكمه ضدها ، وإنما فى حاجة إلى من تطمئن إليه ، تثق فيه ، يفى بوعوده وعهوده ، يصدقها ، يحفظها ، ويرعاها ، ولن يتسنى لأى إنسان أن ينهض بكل تلك الواجبات بدون أن يكون أمينا .

وربما كانت القوة والأمانة هما أبرز وأوضح وأجلى صفات موسى – عليه السلام – دونا عن بقية الصفات الأخرى ، وربما يكون فى هذا حكمة بالغة ، لأن بنى إسرائيل كانوا فى مسيس الحاجة إلى أن يتحلوا ويتصفوا بالقوة ، فهذا العنصر كان ينقصهم نقصا شديدا ، وجعلهم لا وزن لهم ، ولا قيمة فى نظر المصريين ، وكان أن أصدر فرعون هذا الحكم القاسى الذى كان – إذا استمر – على وشك إبادتهم ومحوهم من على الوجود ، نعم ، كانوا ضعاف إلى أقصى آماد الضعف ، وهذا الضعف جعلهم يقبلون بالذل والهوان والضعة ، حتى أصبح سمة من سمات شخصيتهم .

وأيضا كانوا فى حاجة إلى أن يتصفوا بالأمانة ؛ لأن صفة الخيانة بدأت تنتشر بينهم ، وأخذوا فى نقض العهود ونكث الوعود ، وتبديل وتغيير وطمس معالم أى وكل شئ يصل إلى أيديهم .

ونبى أى أمة جاء ليكون قدوة ومثل أعلى لأفراد أمته ، جاء ليسيروا على نهجه ، ويتبعوا سنته ، ويقتبسوا من أخلاقه ومن طباعه .

واتصاف موسى بهذين الصفتين أكبر حجة على بنى إسرائيل ، فليس لهم عذر بعد ذلك ليكونوا ضعاف ، وكان بينهم القوى .

وليس لهم عذر بعد ذلك ليكونوا خونة وكان بينهم الأمين .

جاء موسى ليسد هذا النقص فى بنى إسرائيل ، ويملأ هذا الخواء ،ويعمر هذا الخراب ، لذلك فكان أهم صفتين ، كان من الواجب أن يتصف بهما بنو إسرائيل ويتميزون بها عن بقية الخلق هى القوة والأمانة ، ولكنهم على ما يبدو ، لم يقتبسوا من موسى شيئا ، ولم يتصفوا بما كان يتصف به من قوة وأمانة .

الفصل العاشر
" موسى " الأمير المصرى

العلاقة التى كانت تربط موسى بالمصريين علاقة قلقة متوترة .

كذلك العلاقة التى كانت تربط بين موسى والإسرائيليين علاقة حرجة وحساسة .

فهومن ناحية يعتبر أمير مصرى نشأ وتربى فى قصر الفرعون ، محاطا بكل مظاهر الرعاية والحدب والاهتمام ، فحينما تقول امرأة فرعون على الملأ مخاطبة فرعون ومن حوله : ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [سورة القصص:٩] فما قالته يعتبر مرسوم ملكى ، أوامر عليا ينبغى أن تطاع وتنفذ تنفيذا تاما وكاملا وكأن تلك المرأة الصالحة لمحت أو تأثرت أو اهتزت بنور النبوة الكامن فى داخل وكيان موسى الطفل ، وقد انعكس أو فاض على أسارير وجهه الوضيء ، ولم يكن لديها عتامة فى الطبع أو غلظة فى النفس أو ظلمة فى الحس تمنعها من أن تستقبل فيوض أنوار النبوة ، وإلا ما الذى جعلها تتمسك بهذا الطفل الذى ساقته أقدار غامضة إلى قصر الفرعون ؟

ولم هذا الطفل بصفة خاصة والقصر حاشد بالأطفال ؟

وانظر إلى التعبير القرآنى العظيم الذى يكشف بكل جلاء عن نفسية تلك المرأة (قرة عين) مجرد أن تقع عيناى عليه أشعر بالسرور والرضا ، (لى ولك) السعادة والفرح والسرور ملأت نفس الملكة ، وكان ينبغى أن تنتقل تلك المشاعر إلى الملك ، أو أن الملكة توهمت أن الملك يشاركها نفس الإحساس والشعور حينما وقعت عيناه على وجه الطفل

وعلى ما يبدو أن الملك لم يكن يشاركها هذا الإحساس ، ومع ذلك أنفذ أمرها ، وكأن الملكة أحست أن الملك لا يشعر بما تشعر به ، فابتعدت عن مجال المشاعر ، واقتربت من مجال النفع ، أو لمست جانبا هاما فى شخصيات الملوك وهو اتخاذ الأولاد (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) .

ولم يحدثنا القرآن كثيرا عن تلك المرأة ، وإنما كان حديثا فى سياق ذكر النساء الصالحات ، ولم تظهر مرة أخرى فى الفصول والمشاهد التى جاء فيها ذكر موسى ، ولكن قد نرجح – أنها وقد ارتبطت بالطفل هذا الارتباط الوثيق مما حدى بها أن تمنع قتله ، واقنعت الملك بأنه قد ينفعه أو يكون له ولدا–

أن علاقة الأمومة دامت واستمرت ونمت مع الأيام ، وأنها كانت كالملاك الحارس ، داخل القصر وخارجه ، وأن من الجملة التى قالتها نستخلص أنها كانت امرأة قوية الشخصية ، مطاعة ،مرهوبة الجانب ، بليغة ، عليمة بدخائل النفوس ، خبيرة بالتعامل مع من حولها لا سيما الملك ، صافية النفس ، نقية الضمير ، رقيقة الإحساس ، تتميز بأمومة طاغية ، نوافذ قلبها وعقلها مفتوحة على العالم ، نستطيع أن نلمح ظلها فى كثير من المشاهد والفصول ، وأن نستنتج أثرها فى كثير من الأحداث والمواقف ، فلماذا لم يقتل فرعون موسى وقد أعلن ذلك ؟ ولماذا لم يسجن فرعون موسى وقد أعلن ذلك ؟ ومن هذا الرجل الذى جاء يسعى من أقصى المدينة ليحذر موسى أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه؟ وما دافعه ؟ ومن الذى دفعه إلى ذلك ؟ وكيف علم بالمؤامرة؟

هنا تجد ظل الملاك الحارس ، تلمحه دون أن تتبينه .

هنا تشعر بأثر الرعاية والاهتمام دون أن تتأكد منها .

وكأن خط الحب والحنان الذى اتصل بين الملكة والطفل ظل موصولا ، وتحول الحب والحنان إلى إيمان ويقين ، وكان هذا الحب والسرور الذى تفجر فى قلبها عندما رأت الطفل كان مقدمة وبشير عن إيمانها به .

فقد أحبته طفلا .

ورعته فتيا .

وحمته رجلا .

وآمنت به نبيا .

وتمردت على فرعون ، وابتعدت عن عالم الظلم والطغيان ، وفارقت معقل الكفر والعصيان ، وكان موسى – ابنها الروحى – طريقها إلى الإيمان ووسيلتها إلى الله.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة التحريم:١١] ولقد آمنت به إيمانا صادقا ومخلصا حتى صارت مثلا يعرضه الله على البشرية ، ولايكون هذا إلا إذا وصل صاحب المثل إلى درجة التمام والكمال ، ومنطقها يدل على ذلك (ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ) فهى تطمع فى القرب من الله فى حالة كونها فى الجنة ، وتخشى على نفسها من فتنة فرعون ، وتتبرأ مما يعمله ، وتطلب النجاة والعصمة والحماية من هؤلاء القوم الظالمين .

وتلك الدرجة العالية والسامية من الإيمان ، لا نستطيع أن ننكر أن موسى أحد أسبابها ، بل العامل الرئيسى فى بلوغ تلك القمة الإيمانية ، وإن كان لا التاريخ ولا القرآن يحدثنا عن تلك العلاقة العظيمة بين امرأة فرعون وموسى، مع أنهما أسهبا فى العلاقة بين موسى وفرعون .

ولانستطيع أن ننكر أن موسى شعر بالحب والامتنان نحو تلك المرأة التى حدبت عليه وآمنت به إيمانا صادقا ، جعل كل أبهة الملك وعز السلطان يتضاءل أمام إيمانها .

هذا من ناحية الملكة .

أما من ناحية الملك، فنظن أن الملك كان يرعى موسى إن لم يكن لأنه يحبه فعلى الأقل إكراما لزوجته ومجاملة لها ، لا سيما وأن موسى قد أعطى بسطة فى الجسم وقوة فى البنيان ، وذكاء وعلما وحكمة ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ [سورة القصص:١٤]كل تلك الصفات التى اشتمل عليها موسى من خلقية وخلقية وعقلية مما يخلب ألباب الملوك .. حتى قيل أن موسى يصحب فرعون أو إن فرعون كان يصطحب موسى فى جولاته وتحركاته ، وكأنه ابنه " حيث كان يركب ركوبه كالولد مع والده وكان يسمى ابن فرعون "[١]

ولكن هل عاصر موسى ملكلا واحدا أم ملكين ؟

هل الملك الذى ربى موسى فى قصره هو الملك الذى عرض عليه براهينه ومعجزاته لكى يؤمن ؟

---

١ تفسير الكشاف – المجلد – (٣) – صفحة (١٦٩)

على الأرجح أنهما ملكان وليس ملكا واحدا ، بدليل قوله تعالى فى سورة الشعراء على لسان فرعون﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [سورة الشعراء:١٨] ففرعون لم يسند إليه الفعل بصفة المفرد ، ولكنه بصيغة الجمع ، وكلمة فينا توضح ذلك ، وإلا لقال : (ألم أربك وليدا ، ولبثت عندى من عمرك سنينا)

إذن فهناك ملك ربى موسى فى قصره ، وملك آخر تعقب موسى وخرج فى ولايته موسى وبنوإسرائيل .

" إذن فرع رمسيس الثانى قد يعتبر الفرعون الذى اضطهد بنى إسرائيل وولد موسى فى زمنه إلى ذلك عداؤه الشديد للشعوب الأسيوية التى ظل يحاربها متغيبا عن مصر زهاء تسع سنوات . وقد يكون كرهه لبنى إسرائيل المقيمين فى مصر مترتبا على خشيته من أن حزبا ممالئا لأعدائه المـوطنين لهـم مـن قبـل لا سيما وقـد تكـاثروا فى عـددهم وتناسلوا حتى كانت لهم جالية تشمل جزءا عظيما من مديرية الشرقية .

وحيث أن الملك رعمسيس الثانى قد أشرك ابنه ((منفتاح)) معه فى الحكم قبل وفاته ، وكان ((منفتاح)) الولد الثالث عشر لرعمسيس وقد بلغ أولاده ١٥١، وكان مسنا حين ولايته العهد فيكون قدعاصر موسى فى بيت أبيه وبحق قال لموسى (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنينا) ويكون منفتاح هو فرعون الخروج الذى أرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام لاخراج بنى إسرائيل من مصر وتكون التوراة على صواب عندما قالت : وفى هذه الأثناء كان ملك مصر قد مات "[١]

١ قصص الأنبياء – د . عبد الوهاب النجار – صفحة (٢٠٢)

ولكن ما أثر هذا التغيير فى شخص الحاكم على شخصية موسى ؟

تغيير شخصية الملك فى مصر يتبعه تغيير فى كل شيء على الأقل داخل القصر الملكى – الحاشية – الوزراء – المستشارين المقربين ، المعاونيين .

وما كان يتمتع به موسى فى القصر من منزلة ومكانة وقربى لا نقول إنها تبددت ولكن على الأقل داخلها شيء من الجفاء والفتور ، وإن لم يعلن بصراحة أنه شخص غير مرغوب فيه فعلى الاقل لا يرحب به ولا يهش لمقدمه ولا يفتقد إذا غاب .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك أن شخصية موسى بما فطرعليه من الصدق والصراحة والجرأة والنخوة والعزة والكبرياء ونجدة المظلوم ومساعدة المحتاج ، لا تجعل منه الشخص المثالى للتكيف فى حياة القصور ، وما يتطلبه هذا من دبلوماسية وتزلف ومجاملة تصل إلى حد النفاق ، وتجمل يصل إلى حد الغش والتدليس .

ولا نستبعد أن لموسى فى القصر الحاكم مواقف حازمة وحاسمة وتصرفات وأفعال تنسجم مع شخصيته وتتفق مع طباعه ، وفى نفس الوقت تختلف بل تتناقض وتتعارض مع نظام الحكم ، ومع ما يجب أن يكون عليه من يعيش داخل القصر ، بأن يكون متوافقا مع النظام ومؤيدا له ، بل يكون جزءا من النظام وأساسا من أسسه ، وربما كان يتغاضى أو يتسامح مع موسى لأن له مكانة ومنزلة ، ولكن حينما تغير الملك ورحل وضع وجاء وضع آخر وتغيرت ظروف وجدت ظروف أخرى ، لم يعد لموسى تلك المكانة والمنزلة ، وظل موسى على مواقفه وأفعاله وتصرفاته .

وبدأ موسى يضيق بمن فى القصر ، وبدأ من فى القصر لا يحتملون موسى، والحاقدون والحاسدون والمتأمرون والمزاحمون ، ومن يريدون أن يأخذوا أماكن ومواقع كثيرون ، وهذا لا يتم إلا بعملية إزاحة وإبعاد وإقصاء .

موسى يعتبر هدف مثالى لذلك ، فهومن ناحية ليس مصريا ومن ناحية أخرى يخالفهم فى الكثير من عقائدهم وأفكارهم ونظرتهم ، ومن ناحية هو قوى وعالم وحكيم ، وهذا يثير الكثيرمن الغيرة والحقد والحسد فى مكان فيه الكثير من الأقوياء والعلماء والحكماء ، ومن ناحية يوجد علاقة بينه وبين الإسرائليين ، وتلك العلاقة يجدونها فى منتهى الغرابة لرجل يعيش فى القصر الملكى ويعامل كأمير .

لذلك لا نستبعد أن يكون قد حدثت محاولات لإبعاده لطرده من القصر- بل ومن المدينة كلها ، قد يكون بعضها نجح ولكن لم يصل إلى هدفه ، والبعض قد فشل ولكنه ترك أثرا فى نفس موسى ، و من اعتبروه خطرا أو تهديدا لأمور كثيرة تخص النظام والاستقرار ، فقد نظموا حملة تشهير به وكذلك تحريض ضده وأصبح الجميع يترصدون له أو ينتظرون ويترقبون الفرصة حتى يتم القضاء عليه

وموسى يعى أن وضعه أصبح حرجا للغاية ، فهو لا يستطيع أن يقف أمام ما يدبر له ، ولا يستطيع مجابهة النظام والمجاهرة صراحة بالمخالفة والمعارضة ، وفى نفس الوقت لا يستطيع ترك هذا المكان الذى عاش فيه والانتقال إلى مكان آخر ، فهناك فى داخله أصوات تصرخ أن كل هذا يجب أن يتغير الاستبداد والفساد والطغيان والكفر والعصيان والوثنية الخ...

وهو فى هذه الحالة من الحيرة والحزن والاكتئاب كان يخرج من المدينة بدون أن يراه أحد فالعزلة والوحدة والتأمل والتفكير كثيرا ما يكونون فيهم الشفاء لما يجده من أحاسيس ومشاعر مؤلمة ، ولعله وهو فى لحظات التفكير والتأمل يجد مخرجا من هذا الضيق . وبعد

أن يقضى وطره سحابة يوم أو بضعة أيام يعود أيضا بدون أن يراه أحد متجنبا الناس ، مختارا الزمان والمكان الذين لا يتواجد فيه الناس فى الشوارع أو الميادين . ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة القصص:١٥]الأية تكشف بكل وضوح عن حالة موسى النفسية ، هو لا يريد أن يرى أحدا ، أو يراه أحد، يعيش فى مأزق لا يدرى كيف يخرج منه ، وما يفعله – اعتزال الناس والوحدة والعزلة – نوع من تعليق المواجهة والصدام ، نوع من تجميد الموقف ، ولكن ماذا يفعل ؟ ما الوسيلة التى يتخذها ليصل إلى هدفه ؟ الأمر أكبر منه حقيقة ، وليس لديه من الإمكانية والقدرة للمواجهة أو التغيير أو الثورة الظلم والفساد والاستبداد والطغيان والكفر والوثنية فى كل مكان ،وهو لا يستطيع أن يتحمل الوضع أكثر من هذا ، كما أنه لا يستطيع فعل شيء طاقات هائلة من الغضب والتمرد والثورة لا تجد لها منفذا أو تصريفا ، تتحول إلى مشاعر من الإحباط والضيق والحزن .

- **علاقة موسى ببنى إسرائيل .**

لا شك أن موسى كثيرا ما كان ييمم شطر الإسرائيليين ، وأنه كان يجد عندهم بعض الراحة ، وبعض الإطمئنان ، وقليل من العزاء لما يشعر به ، فهم شيعته ، وبنو جلدته ، يشعر أنهم على شئ من الصواب ، أن لديهم ما يشعر به من ميل فطرى نحو التوحيد ، وعبادتهم واتصالهم بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام توقظ فى نفسه مشاعر مبهمة لا يتبينها ولكنها موجودة ، وتحرك فى عقله أفكارا هائمة تريد أن تستقر وتأخذ

مكانها فى فكره وضميره ، ولكنه فى نفس الوقت لا يستطيع أن يتخلص إلا بصعوبه من الإحساس الذى انتقل إليه من المصريين نحو اليهود ، فهو لا يرضى عن كثير من مواقفهم ، وينتقد العديد من أفعالهم وتصرفاتهم ، لذلك فهم يتحملون جريرة تلك الأفعال والتصرفات ، ومسؤولون مسئولية كاملة على ما جنت عليهم طباعهم وطبيعتهم، ولكنه فى نفس الوقت يتعاطف معهم ، ويرثى لما صاروا إليه من وضع مهين وحالة مزرية، وإنهم بما يستبطنونه ويخفونه من عقيدة وقيم ومبادئ ، وهذا الخط الذى يجسدونه لا يستحقون ما هم عليه ، فهم أبناء يعقوب وينتهون إلى إبراهيم عليه السلام ، لذلك فهم أصحاب رسالة إلى الإنسانية ، ينبغى أن ينظر إليهم نظرة فيها الكثيرمن الإحترام والتقدير ، ولا شك أنه بذل محاولات للرفع من شأنهم وتحسين وضعهم والدفاع عنهم فى كثير من المناسبات والمواقف، ولا شك أن ذلك كان يقابل بالإنكاروالاستهجان من جانب المصريين ، واصلاح شأن اليهود وتحسين أوضاعهم فى مصر كان يتطلب قدرات وإمكانيات وطاقات لم تكن متوافرة عند موسى فى ذلك وقت . وأظن أن هذا الموقف الذى اتخذه موسى من اليهود سبب له الكثير من المتاعب والانتقادات من جانب المصريين ،وأعطى فرصة للحاقدين والحاسدين والكارهين أن ينالوا من موسى .

- نعم – كما قلنا – علاقة قلقة متوترة تربطه بالمصريين .
- وعلاقة حرجة وحساسة تربطه باليهود .
- ووسط هذا الجو المشحون بالترقب والترصد والإنتظار للتخلص من موسى أو ابعاده عن القصروالمدينة .

- ووسط هذا الجو من الإحباط والضيق والحزن ، ومشاعر الغضب والتمرد التى تشب فى صدر موسى .
- حدث ما فجر الجو المشحون .
- وأهاج المدينة وأغضب المصريين .
- وكانت فرصة ومبررا ومسوغا للقضاء على موسى أو التخلص منه .
- فقد قام موسى بنصرة يهودى على مصرى فقتله .
- وسواء كانت الوكزة قاتلة أو لم تكن ، وسواء قصد موسى القتل أو لم يقصد. فإن الرجل قتل .

• إعادة التحقيق فى جريمة القتل

لم يكن الاهتمام بجريمة القتل فى حد ذاتها ، ، فجرائم القتل تحدث كل يوم.

ولم يكن الاهتمام بشخصية المقتول فى حد ذاته ، فهو شخصية من عامة الناس ، وهؤلاء لا يهتم بهم لا فى حياتهم ولا فى مماتهم .

ولم تبحث ملابسات الواقعة ولا ظروفها .

وكان المفروض أن يبحث ويدرس هذا الأمر .

ولكن ثارت الثورة ، واجتمع الملأ وانعقدت المحاكمة ، واشتد الحوار ، وبدأت تعقد خيوط المؤامرة ، لأن القاتل موسى .

وليس مصر – فى ذلك الوقت – بالمجتمع – لا سيما الطبقة العليا – الذى يتحرى العدل والانصاف فى أحكامه ، خصوصا إذا كان هذا الأمر يخص أميرا مصريا عاش وتربى داخل القصر ومحسوبا على الطبقة الحاكمة ، بل محسوبا على أساس الحكم والنظام وهو فرعون .

فما حدث مع يوسف – عليه السلام – يدل دلالة واضحة ، أن معايير العدل والانصاف لا تطبق ولا تنفذ وبالأخص داخل القصر ، وخصوصا حينما تكون القضية بين طرفين ، الطرف الأول ينتمى إلى طبقة القصر والطرف الآخرمن عامة الناس ... فلماذا هنا المعايير اعتدلت ، والضمائر استيقظت ، والأصوات ارتفعت ، وارتفعت نسبة الحمية لكى يقتص من موسى ؟؟

ومن الذى يطالب بالقصاص ؟

الملأ الذى لا يشغلهم أمر عامة الناس ، والملأ هم أشراف الناس وسراتهم.

ثم كان واضحا وجليا أن القضية يريدون أن يستثمروها، ويوظفوها لأهدافهم وأغراضهم... وإلا أن الأمر لم يكن فى حاجة إلى التشاور والتآمر ، وهذا ما قاله الناصح الذى أخبر موسى بأمر المؤامرة﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [سورة القصص:٢٠]

جاء في تفسير النسفى :

" ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك أى يأمر بعضهم بعضا بقتلك أو يتشاورون بسببك والائتمار التشاور يقال الرجلان يتآمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر) [١]

هم يجتمعون ويتحاورون ويتشاورون ويفكرون ويتآمرون ويبحثون عن التكييف القانونى للقضاء على موسى ، موسى هو المقصود ، الذى حرك خيوط المؤامرة وأثار كل

---

١ تفسير النسفى – الجزء الثالث – صفحة (٢٣١)

تلك الأمور ، كون موسى القاتل والدليل على ذلك أن قضية القتل مضى عليها يوم أو بعض يوم ، وسارت الأمور سيرتها العادية وكأن شيئا لم يحدث ، حتى أن الرجل الذى وقعت أمامه الجريمة وبسببه وهواليهودى تكرر منه نفس المشهد، أنه تقاتل مع مصرى آخر ، وطلب مساعدة موسى أيضا، فلو كان أمر القتل أثار الكثير من اللغط ، ما تكرر من اليهودى ما حدث منه بالأمس ، ولأنه بحكم القانون يعتبر مشارك فى الجريمة ، لأن القتال كان بينه وبين المصرى فى البداية ، وتكرر الأمر مع موسى (أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما) ولكن تكرار الاستصراخ من اليهودى ، وتكرار ما حدث من الرجل يدل على أن هذا الرجل (صاحب مشاكل) ، مشاغب ، مشاكس ، والأهم أنه لا يتحمل نتائج تصرفاته وأفعاله وأعماله ، وإلا ما الذى اضطره أن يستصرخ موسى فى المرتين ، ولذلك قال له موسى فى عنف وغضب وثورة ،مقتربا منه وكانه قطعة من الجمر ، (إنك لغوى مبين) ولأن الغضب كان مسيطرا على موسى ظن اليهودى أن موسى يريد أن يقتله ، لأنه هو القاتل الحقيقى منطقيا ، ولأنه هو المحرض هو الذى حرض ودفع موسى إلى ذلك ، فليس بين موسى والمقتول أى علاقة من أى نوع ما .

وعلى ما يبدو هذا الرجل اليهودى بين أحد أمرين :

- إما أن يكون مختلا عقليا أو مضطربا نفسيا يعانى من عقدة الاضطهاد ، شأن أغلب اليهود ، فهو يرى كل إنسان ظالما له ويطلب من الآخرين أن ينجدوه أو يساعدوه لكى يقتص ممن ظلمه ، لأن محال أن يكون هذا الرجل مستقر عقليا أو سوى نفسيا ، فليس من المنطقى ولا من المعقول أن يتقاتل الرجل بالأمس، وتكون نتيجة

- التقاتل جريمة قتل ، ويتكرر منه نفس الأمر اليوم ، ليس هـذا فحسـب بـل ويطلب نجدة موسى

الذى قتل الرجل بالأمس ، المنطق العقلى ، أو الحالة النفسية التى يجب أن يكون عليها الرجل الخوف والفزع مما حدث ، وهذا يدفعه أن يلزم بيته ولا يخرج على الأقـل يومـا أو يومين فما حدث جريمة قتل ، وهو المتسبب فيها ، وهو القـائم بعنصرـ التحـريض والدفع ، حتى وإن خرج فيجب أن يتجنب إثـارة المشـاكل أو التحـرش بـالآخرين ، خوفا من أن يحدث ما حدث من قبل ، حتى ولو حدثت مشاكل فيجـب ألا يسـتعين بموسى ، فموسى ليس من شأنه أن ينجد إنما يقتل ، لذلك فيجب ألا يستنجد بموسى بالمرة حتى ولو رآه أمامه ، بل يبعده عن الأمر ، أو يبتعدعن موسى ،ويجنـب موسـى ماحدث .

- **الأمر الثانى** : أن يكون هذا الرجل – اليهودى – مدفوعا لتـوريط موسـى بـأى شكل من الأشكال ... لمجرد أن يضرب موسى المصرى من أجل اليهودى هـذا نـوع من التوريط ، ويزيـد مـن حـرج موقـف موسـى ، فيكفـى أن يـذهب هـذا المصرـى المضروب ليشكو موسى ، ولسوف يجد آذانا صاغية لشكواه، ويضاف هـذا الأمـر إلى سجل موسى ، الذى أخذوا فى تجميعه ليزداد حـرج موقفـه فى القصرـ الحـاكم وبـين المصريين ، ولكن الرجل قتل ، فلا يوجد شاك يشـكو موسـى ، وللأسـف لا يوجـد شهود يشهدون على موسى ، فلم يكن هناك أحد سوى موسى واليهودى والمصرى

وفشلت المؤامرة ، وفشلت عملية التوريط بسبب أمرين : أن موسى قتل الرجل وكان المفترض أن يضربه فقط ، ولم يكن هناك شهود يشهدون على الواقعة وكان المفترض أن يكون هناك شهود .

ويتكرر هذا المشهد – استصراخ اليهودى بموسى – بكل تفاصيله وجزئياته وملابساته فى اليوم التالى ، مع تلافى الأخطاء التى حدثت فى المشهد الأول . ففى المشهد الثانى يتم وسط الناس وعلى مرأى ومسمع منهم ، ووقت وقوع الجريمة يتم الربط بين جريمة

اليوم – التى لم تحدث – وجريمة الأمس التى حدثت ، ويتم الإعلان والإعلام بأن قاتل اليوم هو قاتل الأمس وهو موسى ، وبالطبع لن تتم عملية القتل اليوم ، ولكن سيتم إعادة تمثيل المشهد والربط بينه وبين خاتمة الأمس بدون أن يتم ختام المشهد بجريمة ؛ لأنه يكفى أن يربط الناس أو المشاهدون والسامعون بين المشهد الذى يمثل اليوم وبين ختام المشهد بالأمس ، والذى سيقوم بهذا الربط هو اليهودى ، وإلا فما معنى أن يقول الرجل ما قاله وموسى متجه نحو المصرى وكله غضب وثورة يريد أن يبطش به ؟!

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

[سورة القصص:١٩]سيقول البعض : إن كان هدف اليهودى الكشف عن جريمة موسى التى حدثت من قبل فالمفروض أن يقول : (أتريد أن تقتله كما قتلت نفسا من قبل) .

أظن أن الأمر سيصبح مكشوفا ، وتتضح أنها مؤامرة ، وهذا الرجل ليس من السذاجة ولا من الغباء بحيث يفضح أمره أمام الناس أنه يريد فضح موسى الذى ارتكب جريمة القتل من أجله ودفاعا عنه . ولم يكتف الرجل بذلك فربما سمع البعض ولم يسمع الآخر ،لذلك فقد قام بإكمال الرسالة الإعلامية والإعلانية ، وكان من الماهرين المدربين على هذا الأمر، فقال : (إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ) ، ولم يكتف الرجل بذلك، وإنما أكمل الرسالة بقوله : (وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ).

- **تشنيع وتشهير :**

إنها حملة تشنيع وتشهير بموسى ، وكأن الرجل يقول لموسى على الملأ : (وأنت يا موسى الذى تهاجم الجبابرة ، وتنتقد الظالمين ، وتعترض على الطغيان والظلم بلسانك ها هى أفعالك تكذب أقوالك ، بالأمس قتلت واليوم تريد قتل آخر ، وأنت الذى تدعو إلى الصلاح والخير بلسانك ليل نهار ، ها هى أفعالك تدل وتبرهن إنك من الفاسدين والمفسدين لقد فضح أمرك أمام الناس المخدوعين بك ، لقد كشفت حقيقتك أمام الناس الذين يثقون بك)

وقد يقول البعض : كيف يقوم بعملية التوريط رجل من شيعة موسى ؟

والرد على ذلك : إما أن يكون الرجل من المصريين وقد لبس وحمل من الشارات ما يدل على أنه من اليهود، فظن موسى أنه يهودى ، وإما أن يكون من اليهود بالفعل وتم شراؤه ، وتجنيده لتوريط موسى ، وأظن أن تلك الأمور ليست بعيدة عن اليهود .

فهذا الرجل قد أعد إعدادا ، وجهز تجهيزا ، وحفظ ما يقوله حفظا ، فالأمر مخطط ومدبر ، وكل شيء محسوب حسابه .

ولكن كيف سيق موسى إلى هذا الفخ للمرة الثانية وفى اليوم التالى ؟

ألم يتعلم من تهوره واندفاعه وتسرعه ؟

لقد استغل خير ما فى موسى ، والمشهور عنه من نجدة الضعيف ومساندة الملهوف ومساعدة المحتاج ونصرة المظلوم ، وكراهيته للطغيان والاستبداد ، وكأن ما رآه من تعدى المصرى على اليهودى رمزا أو تجسيدا للظلم والاستبداد والقهر الواقع من المصريين على اليهود ، فاندفع بكل ما يعتمل داخله من تلك المشاعر الشريفة والنوازع النبيلة ليفعل ما فعله بل يكرر ما فعله مع العلم إن نتيجة كل هذا كانت فظيعة .

وإن كانت فطانة موسى وقوة بصيرته لم تتخل عنه فى تلك الأوقات الحرجة والصعبة ، فقد قال لليهودى ، أو هذا الرجل الذى تم التورط على يده (إنك لغوى مبين) ، أى إنك مضل واضح الضلال ، هذا ما توصل إليه عقل موسى ، ولكن طبعه وتلك المشاعر والصفات الطيبة والخلال الشريفة ، ما كانت تمنعه عن عمل ما يراه خيرا ، فاندفع بكل قوته نحو المصرى ... ولم يدرك حقيقة ما كان واضحا وظاهرا .

ولكن حينما سمع موسى ما قاله اليهودى ، انكشف ما كان خافيا أمام موسى ، ووضح ما كان مستترا ، وجلى ما كان مبهما ، وعرف ما كان مدبرا

ولكن متى ؟ بعد فوات الأوان .

لا شك أن موسى تراجع ، وترك هذا المكان لا يلوى على شيء ، بعد أن وصلت الرسالة للناس ، وبدأ النبأ يسرى والمرجفون فى المدينة يتحدثون .

(وجاء رجل من المدينة يسعى)

- **من هذا الرجل ؟**

وجاء من أقصى المدينة ، هذا يدل على أن الخبر انتشر فى المدينة وفاض على الأطراف والكل علم به .

ولكن ما دلالة كلمة (أقصى) ؟

- إما أن يكون الرجل كان يعيش فى طرف من أطراف المدينة زاهدا ومبتعدا عما يخوض فيه أهل المدينة ، وربما تكون هناك علاقة صداقة بينه وبين موسى تقابلا تحدثا تحاورا تناقشا اتفقا ، فقد كان موسى يترك المدينة ويبتعد عنها وأهلها فى أوقات

- الضيق والتبرم بما يعيشون عليه ، فلا يستبعد أن يكون قابله خارج المدينة ، وكان هذا الرجل شديد الحرص على حياة موسى ، لذلك أسرع إليه يحذره .

- أو أن الرجل من آل فرعون ، ومحال أن يكون موسى مضى تلك السنين فى القصر ، ولم يكون له جبهة أو حزبا يؤيده فيما يقول ، ويناصره فيما يرى ، ومستبعد أن تكون تلك السنوات التى مضاها موسى داخل القصر مضت سدى بدون أن يجند ما يرى فيه الخير والنفع ، لا سيما وأن ما يقول به موسى يتفق مع الفطرة السوية، ويوافق المنطق والعقل ، وليس من المستغرب أن يستجيب البعض ، فليس كل من يعيش فى القصر على ضلال وباطل ... وأن تلك الجبهة أو هذا الحزب أو تلك المجموعة هى التى أرسلت الرجل ليحذر موسى ، وربما يكون هو الرجل الذى أتى ذكره فى سورة (غافر) بعد أن وجه موسى الدعوة إلى فرعون . ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة غافر:٢٨]

- أو إن الرجل خيط آخر من خيوط المؤامرة ، فموسى يعرف الكثيرمن خفايا القصر ، ويعرف الكثير من مسالب وعيوب ونقائص النظام ، ويعرف الشخصيات الفاسدة والمفسدة ،ويعرف ويعرف ويعرف ، ثم أن له أنصاره ومؤيديه، وهو شخصية لا يستهان بها ،ويحسب لها ألف حساب ، ولاشك أنهم أغروه بكثير من المغريات – والقصر حافل بها – لكى يقلع عن طريقته فى النقد والإثارة وكشف عيوب النظام ،ولكنه رفض ذلك، إذن ليس من صالحهم القبض عليه ولا محاكمته ، كما انهم لا يستطيعون قتله ، فهو

- محسوب على الأمراء ، عاش وتربى فى القصر إذن ليس أمامهم إلا إخراجه من المدينة ، ثم أن قتل أمير من أجل رجل من عامة الناس ستكون بداية وبادرة قد تنبه الناس أن هناك أو يجب أن يكون هناك شبه مساواة بين سدنة النظام أو من يعيشون فى القصر والآخرين ، وهذا ما لا يود الحاكمون تنبيه الناس إليه ، أو لفت الأنظار إليه ، لذلك من مصلحة الجميع أن يخرج موسى من المدينة ، وليس من العسير القبض على متهم بجريمة قتل على الفور ، فنظام الأمن قوى بما فيه الكفاية ، والبيئة المصرية بتضاريسها لا تساعد أحدا على الأختفاء والاختباء .

والذى يؤيد ذلك أن الرجل لم يكتف بتحذير موسى ، وإنما كان هناك تحريض قوى على الخروج

﴿... إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة القصص:٢٠]

الآية تدل على أمور منها :

●إن الملأ هؤلاء أوامرهم نافذة .فهم الهيئة العليا للنظام بيدهم مقاليد كل شئ .

●يأتمرون هم لا يبغون العدل ، أو يبغون إجراء محاكمة عادلة ليروا إن كان موسى مذنبا أم لا .

●بك إذن أنت المقصود يا موسى ، لو لم يكن موسى لما كان هناك اجتماع وتشاور ، وأخذ ورد أنت هدفهم فليس كل قتيل يقتل فى مصر- من عامة الناس يجعلهم يجتمعون ويتشاورون

- ليقتلوك إذا كانوا قرروا القتل فلم التشاور وإذا قرروا إقامة محكمة للتشاور فى أمره ، فلم سبقوا الأحداث وأصدروا الحكم .

- فاخرج ... لقد سد أمام موسى جميع المنافذ وحاصره وضيق عليه الحصار ، مع أن مهمة الرجل منذ البداية كانت مهمة تحذير ، يكفى أن يقول إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، ويترك الأمر لموسى يتصرف كيف يشاء ، ولو شعر الرجل أو أحس بنية موسى للخروج لما قال له أخرج ، ولكن على ما يبدو لمح إمارات تصميم موسى على البقاء ومواجهة ما تأتى به العاصفة ، وليس موسى بالشخص الذى يهرب من جريرة ارتكبها بيده ، فقد اعترف بها صراحة أمام الله وتاب وأناب إلى الله فور قيامه بفعلته ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة القصص:١٦]

والذى يعترف ويقر بذنبه أمام الله ،فهو من الشجاعة والجرأة والقوة أن يعترف بذلك أمام البشر متحملا أى صورة من صور العقاب ،وعلى ما يبدو أن الرجل لمح الإصرار

والتصميم بالرغم من أنه قال له (ليقتلوك) ،وكذلك لم يقنعه هذا الإقتراح (فاخرج) ، وبدأ يشك فى هدف وغاية الرجل ، وظن موسى أنه قد يكون من ضمن المتـأمرين ، فالأمور قد وضحت ، وأخذ يفكرموسى فى أمر هذا الرجل ، فاسرع الرجـل محـاولا أن يقطع كل شك ، مبددا كل إرتياب ، قد يفكر فيه موسى (إنى لك من الناصحين) لا مبرر لها إن لم يكن لمح إمارات الشك والإرتياب عند موسى ، فهذا الرجل جاء من أبعد مكان فى المدينة يسعى، وأخـبره بـأن هنـاك مـؤامرة مـن عليـة القـوم ليقتلـوه ، فالمفروض أن تخرج من المدينة وتنقذ نفسك ، هل هو فى حاجة بعد ذلك أن

يقول أنه من الناصحين ، فلو أكتفى بما قالـه فالواجـب عـلى موسـى أن يشـكره عـلى إخباره بأمر المؤامرة ، وبهذا الذى عمله الرجل هو أكثر من مجرد ناصـح ، إنـه منقـذ ، فقد قدم البرهان والدليل على صدق نيته ، ولكن رغم كل هذا موسـى يقـف لم يقـرر الخروج بعد ، فقال الرجل (إنى لك من الناصـحين) ، لا ليجعـل موسـى يصـدقه ، ولكن ليزيل آخر أثر من أثار المقاومة والعناد والتصميم ، وكأن لسـان حـال الرجـل يقول له : هذا النصح لك ياموسى بصـفة خاصـة ، أنـا لا أنصـح أحـدا أيـا مـا كـان بالخروج من المدينة ، فليس تلك حرفتى ولا مهنتى ، ولكن الأمر متعلق بك أنت ولو جمعت كل المخلصين الناصحين لأشاروا عليك بما أشرت عليك به .

وأخيرا نجح الرجل فى إقناع موسى بالخروج من المدينة ، بعدما أقنعه أن هناك مؤامرة وتدبير. على هذا فموسى لم يخرج هاربا خائفا من عقـاب فعلتـه ، ولكنـه هـرب مـن المؤامرة التى كانت تدبر من أجله ، وموسى يوضح ذلك أثناء مواجهته فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٢٠]اعتراف

صريح من موسى وإقرار بالفعل ، ولكن كانت هناك ظروف وملابسات وحالـة مـن الجهل – بما يدبر له – والاندفاع والتهور ولم أكن أعرف بأمر التدبير والمؤامرة لـذلك أنا لم أهرب من العقاب العادل والجزاء المنصف ، ولكنى هربت منكم ومـن ظلمكـم وطغيانكم وجبروتكم ، والدليل أن لم يطالبنى أحد بـدم الرجـل ، لأن كـل مـا كنـتم تبغونه هو إخراجى من المدينة ، وإبعادى عن الحكم ، وإقصائى عن النظام . ولم يجادل فرعون موسى فى هذا الأمر كثيرا ، لأنه يعلم يقينا بأمر المؤامرة .

وسواء كان هذا الرجل مخلصا وصادقا فيما جاء يحذرموسى منه ، أو كان ضمن خـيط من خيوط المؤامرة التى تم توريط موسى فيها ، وبعد ذلك دفع دفعا إلى الخـروج مـن المدينة أو الفرار من المؤامرة ، وليس الهرب . سواء كان هذا أو ذاك ، رجح هذا الأمر أو ذاك ، فإن موسى خرج من المدينة ، ومن مصر .

وبذلك تنتهى مرحلة من مراحل وجود موسى فى مصر ، ليعود إليها مرة أخـرى بعـد سنوات إلا إن ما بين الخروج والعودة تغيرت أمور كثيرة أهمها شخصية موسى .

الفصل الحادى عشر
لم تم إخراج "موسى" من مصر؟

- **لا يصبح الناس أو يمسون فيكتشفون أن بينهم نبيا أو رسولا .**

ولا يسير الناس فى الأسواق والميادين فيفاجئ واحد منهم أن الله – y – قد اختار واحدا منهم وأنزل عليه الوحى ليكون رسولا ،النبى أو الرسول ، نبى أو رسولا بالقوة منذ أن يولد ، بل قبل أن يولد ، ومعنى ذلك أن شخصيته مهيئة ومعدة ومجهزة لأن يكون نبيا أو رسولا .

والمدة التى يقضيها قبل أو يوحى إليه هى فترة تمهيد ، تتلبس الشخصية حالة مبكرة من الحالات النبوية ، حالة ترقب.اتنظار حالة من حالات الوعى أو الانكشاف ، أو الوصول إلى قناعة أن هذا العالم لابد أن يزول ؛ لأنه فاسد ، وهناك ملامح عالم صالح يتخلق فى ضميره وعقله .

حالة الرفض بكل قوة لما هو موجود .

وحالة التشبث والتمسك بكل نبل وشرف بأهداب العالم الطاهر النقى الذى لا وجود له فى اللحظة الآنية .

- **ضلال الأنبياء:**

حالة من حالات البحث والتنقيب عن شئ مبهم غامض ملامحه ما تكاد تظهر حتى تختفى ، ما تكاد تلمح حتى تتوارى . تلك الحالة مفعمة بمشاعر الحيرة والعذاب والضيق والاحباط والتبرم ، ممتزجة بمشاعر الأمل والاطمئنان والسعادة والفرح والرضا والسرور .

فهو – النبى – متأرجح بين عالمين .

متذبذب بين أمرين .

حائر بين حالتين.

مشتت بين إتجاهين .

ضائع بين غايتين .

وقد لخصت الآية الكريمة نلك الحالة فى سورة الضحى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [سورة الضُّحى:٧] والضلال له معان متعددة فصلها القرطبى – رَحِمَهُ اللَّهُ – فى تفسيره : " ويكون الضلال بمعنى الطلب لأن الضال طالب، وقيل ووجدك متحيرا عن بيان ما نزل عليك فهداك إليه فيكون الضلال بمعنى التحير، لأن الضال متحير .

وقيل : ووجدك ضائعا فى قومك فهداك إليه ويكون الضلال بمعنى الضياع .

وقيل : ووجدك محبا للهداية فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [سورة يوسف:٩٥]، أى فى محبتك ،**قال الشاعر** :

هذا الضلال أشاب منى المفرقا   والعارضين ولم أكن محققا

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى   بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقال بعض المتكلمين : إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة ، فيهتدى بها فى الطريق ، فقال الله لنبيه محمد صلى اللله عليه وسلم : (ووجدك ضالا) أى لا أحد على دينك وأنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق إلى "[1] تلك حالة النبى – وكل نبى – قبل أن يكاشفه الله ، أو يوحى إليه ، أو يكلمه أويعلمه أنه قد اختارهواصطفاه واجتباه .

شخصية تمركزت فيها كل آلام وأحزان الوجود الإنسانى القلق .

شخصية تكثفت فيها كل أشواق وأمانى الإنسانية المعذبة .

ويبحث ويضنيه البحث عن كيفية تخليص الوجود من تلك الآلام والأحزان .

ويفكر ويؤرقه التفكير عن الوسيلة لإرضاء تلك الأشواق وتحقيق تلك الأمانى ، وإراحة الإنسانية من عذابها .

وتبدو شخصية النبى – قبل أن يعرف بحقيقة أمره غريبة فى طبعها ، فى فكرها ، فى رؤاها ، فى ميولها ، فى حديثها فى صمتها منعزلة - إلى حد ما – عمن حولها ، وحيدة - إلى درجة ما – فيما تفكر فيه أو تحلم به .

وقد تصبر شخصية النبى أو الرسول حتى يأتيها المدد من الله ، يرسم ويوضح ويكشف لها الطريق والأسلوب والأداة ، مؤيدها بالحجج والبراهين والمعجزات حينئذ ينطلق النبى مفجرا كل تلك الطاقات داخله ، مستخدما كل تلك الإمكانات التى ذللت وسخرت له ؛ ليقوض دعائم عالم الباطل والطغيان والكفر ، واضعا الأساس لعالم الحق والعدل والرحمة والإيمان .

---

١ تفسير القرطبى – الجزء (٢٠) – صفحة (٨٧)

وقد لا تصبر شخصية النبى ، ولا تستطيع أن تكتم ما يغلى داخلها ، أو تكظم كل تلك الطاقات التى تأبى إلا أن تدفع صاحبها فى أى طريق يوجهها إليه، ولديها من القوة والجرأة والقدرة على المواجهة والصدام أن تقف فى وجه هذا العالم ، حتى بدون أن يأتيها المدد ، أو يرسم ويوضح ويكشف لها الطريق فإذا أتاها المدد من عند الله ، زاد الشخصية قوة وأضاف إليها صلابة وقدرة ، وأكسبها بصيرة ورشدا وعلما وحكمة ، وهداها إلى أقوم السبل .

شخصية موسى من هذا النوع الأخير .

فهو لم يترفق بنفسه ولا بمن حوله ، ولم تطل حيرته ، ولم يمتد ضلاله ، ولم ينتظر حتى يأتيه المدد من عند الله ، وإنما انطلق واندفع يعيد تشكيل وصياغة العالم حسبما توافر له من إمكانات ، وزود من طاقات ، بجهده البشرى الصرف ، أو لنقل بدافع من تلك القبسة الإلهية التى أودعها الله فى كيانه ، والتى بدأ يتحسسها ويشعر بها من خلال تلك الطاقة التى تدفعه رغما عنه لفعل أشياء معينة .

ولم يحدثنا التاريخ عن تلك الفترة من حياة موسى قبل الوحى ، وما موقفه من النظام ، هل كان مؤيدا له وموافقا ، أم معارضا له ومختلفا معه ؟

ولم يحدثنا القرآن عن فترة شباب موسى ، وتعاطيه مع النظام الحاكم فى مصر ، وإنما أعطانا لمحة نستطيع بعد ذلك أن نبنى عليها الكثير ، ونستطيع أن نستنتج ونستخلص مواقف موسى فى مصر ، ومن الحكم ، ووضعه فى القصر والمدينة . ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة القصص:١٤]جاء فى

تفسير الوسيط للقرآن الكريم : " (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ) بيان لجانب من النعم التى أنعم الله – تعالى – بها على موسى فى تلك المرحلة من حياته و(لما) ظرف بمعنى حين ، والأشد : قوة الإنسان واشتعال حرارته من الشدة بمعنى القوة والارتفاع يقال : شد النهار إذا ارتفع وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ولا واحد له من لفظه .

وقوى (واستوى) من الأستواء بمعنى الاكتمال وبلوغ الغاية والنهاية ، وحين بلغ موسى – عليه السلام – منتهى شدته وقوته واكتمال عقله ، قالوا : وهى السن التى كان فيها بين الثلاثين والأربعين (آتيناه) بفضلنا وقدرتنا (حكما) أى: حكمة وهى الإصابة فى القول والفعل وقيل النبوة (وعلما) أى فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور ،وإدراكا قويا لشئون الحياة (وكذلك نجزى المحسنين) بيان لسنة من سننه – تعالى – التى لا تتخلف ، وأى ومثل هذا الجزاء الحسن والعطاء الكريم ، الذى أكرمنا به موسى وأمه نعطى ونجازى المحسنين ، الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله – تعالى – به فكل من أحسن فى أقواله وأعماله ، أحسن الله – تعالى – جزاءه وأعطاه الكثير من الآئه " [1]

وجاء – أيضا – فى تفسير (فتح القدير) " ((ولما بلغ أشده)) وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثورى وغيرهما . وقيل الأشد ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين والأستواء من الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل الأستواء وهو بلوغ الأربعين ، وقيل الإستواء إشارة إلى كمال الخلقة وقيل هو بمعنى واحد وهو ضعيف لأن العطف يشعر بالمغايرة (آتيناه حكما وعلما) الحكم الحكمة على العموم ، وقيل الفقه فى الدين والعلم والفهم وقال ابن إسحاق : العلم بدينه ودين آبائه وقيل كان هذا قبل النبوة " [2]

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد العاشر – صفحة (٣٨٦)

٢ تفسير فتح القدير – الإمام الشوكانى – الجزء الرابع – (٢٣٢)

نخرج من هذا بأمور عديدة منها :

- أن موسى كان على علم وحكمة
- والحكم – كما فسر – الحكمة وهى الإصابة فى القول والفعل ... وقيل النبوة
- والعلم : الفقه فى الدين ، وفهما سليما للأمور ، وإدراكا قويا لشؤون الحياة .
- وأن موسى بلغ درجة تامة وكاملة من ناحية سلامة البنيان والقوة والشدة
- وكان عمره ما بين الخامسة والعشرين والأربعين .
- تلك الفترة تتميز بالحماس والاندفاع والقوة والقدرة والرغبة القوية فى تحقيق الذات والميل للتغيير إلى الأفضل ، والميل فى إيجاد عالم تتحقق فيه قيم الخير والعدل والكمال .

لقد قدرلموسى ما لم يقدر لأحد من أبناء زمنه .

فهو أخذ العلم والثقافة عن المصريين ، بحكم أنه مصرى ، وعاش فترة من زمنه فى القصر ... أو وهب الله له العلم الذى يمكنه من فهم أمور زمنه فهما صحيحا وإصدار أحكاما صائبة ، أو اتخاذ مواقف سديدة .

وهو أخذ الدين والتوحيد عن اليهود ، بحكم أنه يهودى . أو يسر الله هذا ما جعله قادرا على تكوين نظرة شاملة أو فكرة عامة عن الوجود .

لم يحصل – أو لم يوهب – هذا الحكم والعلم بعدما بلغ من الكبر عتيا ، ولكنه كان فى ذروة النشاط والحيوية ،وفى تمام القوة وكمال الفتوة .

أظن شخصية تجمع كل تلك الصفات ، وتحوز كل تلك الخلال ، وتشتمل على كل تلك السمات ، وتحتوى على كل تلك المناقب ، لن تقف مكتوفة الأيدى بدون أن تفعل شيئا ، ولن تمضى سنوات عمرها وهى ترى الظلم والجبروت والاستبداد والطغيان والفساد

والكفر والعصيان ، بدون أن تعمل على تغيير ما أمامها ، ليس هناك من صفة أو سمة تجعلها تنكص أو تتخاذل و تضعف أو تستسلم أو ترضى بل كل الصفات والسمات تدفع صاحبها إلى الثورة والتمرد والمواجهة والمجابهة والمعارضة .

المنطق الإنسانى والمنطق التاريخى يقول ويحتم أن موسى ثار بالنظام الحاكم ، تمرد على الفساد ، واجه الظلم ، عارض الكفر ، زلزل العصيان ، رفض كل ما ينتشر على أرض مصر من عتو وطغيان ،ولم يهادن الظالم ، ولم يتواطئ مع الفاسد ، ولم يتصالح مع الكافر ، ولم يوافق الطاغى

لذلك المنطق الإنسانى والمنطق التاريخى يقول بل يحتم إن أمر موسى بدأ ينتشر رويدا رويدا ، وإن ما يقوله بدأت الأذان تستمع إليه متعجبة مندهشة منكرة فى البداية ، ثم مفكرة متأملة ، ثم بعد ذلك مقتنعة وموافقة والأمر بعد ذلك فى حاجة إلى مدة من الزمن لكى تؤيد وتساعد ، بل تنادى وتطالب بما يقوله ، والأمر بعد ذلك فى حاجة إلى مدة من الزمن لتحقق وتنفذ وتجسد ما تردده الألسن وتحلم به الضمائر ويجول فى العقول .

والذى زاد من خطورة وأهمية أمر موسى ، أنه أمير ، جاء من داخل القصر ، ليس غريبا عنهم ، ولا دخيلا عليهم ، تربى فيهم وليدا ، ومكث فيهم من عمره سنينا ، ويعلم كل خافية ، ويعرف كل دخيلة ، ويدرى كل صغيرة وكبيرة . فهو (شاهد من أهلهم) عليهم .

والذى زاد من خطورة وأهمية ما يقوله موسى وما ينادى به ، أن تلك الأرض ظمأى إلى العدل ، عطشى إلى الهدى الإلهى ، متلهفة إلى تقويض وإزالة عالم الطغيان ، متشوقة إلى عالم الخير والجمال .

والذى زاد من خطورة وأهمية ما يدعو إليه موسى ، وما يبشر به أنه لا يقتصر أمره على الدنيا فقط ، وإنما يتطرق إلى الحياة الأخرى ، وتلك الحياة كانت ملامحها تعيش كامنة فى ضمائر المصريين .

والذى زاد من خطورة وأهمية ما يمهد له موسى أنه يبغى إزالة النظام ، تقويضه من الأساس ، فهو بادرة وسابقة للاجتراء على النظام لم يسبق أحد فيها موسى من قبل .

- **موقف النظام من " موسى "**

كما عرفنا ، كم كان النظام فى مصر قويا متماسكا صلبا ، ومحال أن يكون هناك نظام على تلك الصورة ، ولا يشكل جهازا من مهمته الحفاظ على شكل وصورة النظام وهيبته ، ومن ضمن مهام هذا الجهاز مهاجمة والقضاء على أى دعوة أو داع يريد تقويض إحدى دعائمه ناهيك عن الأساس والأهم وهو الفرعون .

ورب سائل يسأل : ما فائدة هذا الجهاز إذا كان النظام – كما تقول – قويا وصلبا ؟

لم تكن قوة هذا النظام نابعة من ذاته بقدر ما كانت ضرورة استدعتها أو حتمتها عوامل كثيرة ذكرنا بعضها من قبل .

فهو نظام فاسد -. ولكنه قوى .

وهو نظام مستبد -ولكنه مستقر .

وهو نظام طاغ - ولكنه مستمر .

وهو نظام قاهر -- ولكنه دائم .

ومع ذلك ، وبرغم تلك الضرورة والحتمية التى تستوجب وجود هـذا النظـام ، فـإن تلك الضرورة والحتمية ، كما استدعت وحتمت بقاءه ، قـد تسـتدعى وتحـتم زوالـه ، حينما يتجمد ويتكلس ويترهل ويتدهور ، ويكون حوله ما يشـبه الدرقـة أو الصـدفة تعزله عمن حوله ، وتعزل من حوله عنه، حينئذ يصبح حقبة متلكئة يتقهقر - يتراجع -ويتخلف ، يريد أن يمسك بالزمن وبمنطقه وبسنن الطبيعة من تغير وتطـور ، وهـو إن استطاع أن يفعل ذلك بعض الوقت ، فلن يستطيع فعل ذلك فى كل الأوقات .

يعى النظام والقائمون به والقائمون عليه ذلك ، تلك الحالة المريضة والوضـع القاتـل .-والصورة المميتة ، فيحاول النظام التماسك والتقوى ، ولكن كل تلـك المحـاولات تظهر أثرها فى الخارج بينما داخل النظام يغلى - بركان ، كل أسباب ومقومات الثـورة كامنة فيه ، ولكنه مغلف بطبقات متراكمة وسميكة من الصخر والجليد ، فى حاجة إلى ثقب حتى ينفجر ، ويخرج ما كان مكبوتا .

إذن كان هناك جهاز – أو أى شكل من الأشـكال التنظيميـة – مهمتـه الحفـاظ عـلى النظام ،وبمرور الوقت قوى واستفحل هذا الجهاز ، ويزداد قوة وشراسة وضـخامة ، كلما ضعف النظام ، حتى إذا وصل النظام إلى درجة بعيدة من الضعف والتدهور ،

تحدث عملية افتراس من الجهاز للنظـام ، أو يتحـول النظـام إلى جهـاز مهمتـه الأولى الحفاظ على نفسه . ومن أجل تنفيذ تلك المهمة يضحى بكل شيء وأى شيء ، وبذلك تتحول

الدولة بجميع أجهزتها ونظمها إلى دولة بوليسية ، كما يقول : دكتور (جمال حمدان) أو كائن سرطانى يأكل نفسه .

وعلى الأرجح هذا الجهاز ، رصد وسجل ما يقوم به " موسـى " ، وأدرك مـا سـوف يحدثه " موسى " على المدى البعيد .

وعلى الأرجح أن هذا النظام والقائمين عليه قد أغروا"موسى " ، ولكن الإغراءات لم تجد معه ، لذلك لجأوا إلى إثارة المشاكل والتحريض ضده والتضييق عليه ، ومحاصرتـه ، ولكن قناة موسى لم تلن ، ولم يجدوا فى شخصيته نقاط ضعف يتسـللون إليـه منهـا ، حينئذ لجأوا إلى عملية التوريط ، وهو ضرب أو قتل المصرى من أجل اليهودى ، وهم يعلمون مدى ولائه وعطفه وحدبه على اليهود ، ومدى كراهيته وبغضه ونقمته لـيس على المصريين ولكن على النظام الحاكم .

- **" موسـى " الثائر**

قد يقول البعض إن فى تصويرنا " موسى " بأنه مصـلح أو ثـائر ضـد النظـام الحـاكم ومتمرد على الظلم والبطش والعسف الواقع على بنى إسرائيل خاصة وعلى المصرـيين عامة ، فيه مبالغة ، وتحميل الأمور أكثر مما تحتمل !!

فما شأن موسى بالنظام الحاكم إن كان ظالما أو عادلا ؟

وما شأن موسى بالناس إن كانوا راضين على الحكم أم كانوا ناقمين متبرمين به ؟

فهذا شأن المصلحين الاجتماعيين – الزعماء – الثوار – القادة .

فموسى فى المقام الأول نبى ورسول. مهمته تصحيح وجهة الناس نحو الله ، والأخذ بأيدى البشرية

وإرشادها إلى أقوم السبل وأصلحها إلى الله فهذه مهمة موسى الأولى ، وكل الأنبياء والرسل ؟

نعم وهم – الأنبياء والرسل – وإن كان جل اهتمامهم منصبا على تصحيح وجهة الإنسانية نحو الله ، وتأصيل وتعميق تلك العلاقة ، إلا إن هذا لا يستقيم ولا يتأتى إلا بتغيير المجتمع والعالم تغييرا شاملا ، ذلك لأن المحور الذى يدور حوله العالم والأساس الذى يقوم عليه الوجود هى تلك العلاقة بينه وبين الخالق . فإذا كانت تلك العلاقة قائمة على أساس خاطئ ، أو على الوهم والخرافات ، فإن ما بنى على هذا الأساس متداع وفاسد ، ويجافى الحق والصواب ، ومعنى أن يأتى شخص ما ويطالب بتصحيح العلاقة بين الله والبشر فهو فى نفس الوقت يطالب بتقويض وهدم العالم من الأساس ؛ ليبنى بعد ذلك على أساس من الحق والعدل .

وربما يكون هذا هو السبب فى إن أول صدام يقع بين الرسول والآخرين الأغنياء أو أسياد المجتمع وأولو السلطة والصولجان دينيا كان أم دنيويا ، لأن كل هؤلاء تقتضى مصلحتهم أن يبقى الوضع على ما هو عليه ، وأن يستمر الوضع كما هو بدون تغيير أو تبديل ، مع أن الرسول أو النبى يطالب بشئ محدد وبسيط ، ولهم الخيار والحرية بأن

يقبلوا دعوته أو يرفضوها ، فما لهم يناصبونه العـداء ، ولا يـدخرون وسـعا فى تسـفيه دعوته ،والتكتل والوقوف صفا واحدا لتبديد جهده ،والقضاء على شخصه إن أمكـن والتابعين والمؤيدين له ؟ !

هم يفعلون ذلك ؛ لأنهم يعلمون حقا ويقينا أنه متى استبان الحـق والصـواب لفـرد ، وأخذ يدعو ويرشد الناس إلى ما هدى إليه ، فإن هذا بمثابة ثقـب مـن النـور سـيظل يتسع

ويتسع إلى أن يعم نوره الأرجاء وينتشـر فى العالم ،وهو أيضا بمثابـة شرخ وصـدع فى أساس العالم القائم سيظل يتعمق ويتعمق إلى أن يتقوض البناء ، وينهار الصرح .

- فهم يعلمون أنهم على باطل ، ولكنهم يكابرون .
- ويعلمون أن عالمهم فاسد ولكنهم يعاندون .
- ويعلمون أن تلك الدعوة هى الحق والعدل ولكنهم يجحدون .

وموقفهم من دعوة التوحيد فريقان :

الأول ، ينكر تلك الدعوة إنكارا تاما ، جريا على عادة أبائه وأجداده ، فلم يرب ، ولم يعد أن ينظر لأى دعوة بموضوعية وحيدة كاملة ، أو حتى يناقش ما يعرض عليه ، وإنما سبيله فى ذلك السخرية والاستهزاء﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة سبأ:٧] ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٨٣]

هنا ينكرون البعث والنشور بعد الموت ، ولو أنهم عرفوا أو أدركوا أن هناك إله يتصف بكذا وكذا ، لما استبعداو البعـث والثـواب والعقـاب . ذلـك لأن الأمـور العقائديـة كالبناء المتماسك، ذى الأساس الراسخ المتين ، إذا آمنت بالله إيمانا صحيحا صادقا قويا ، فإن ما يترتب على ذلك ليس فى حاجة إلى نقاش أو جدال؛ فإذا آمنت بالله وجاء بعد ذلك من يقول لى : إن الله سيبعث الموتى من قبورهم فإن هـذا الأمـر غـير مسـتبعد ، وليس بالغريب ، بل هو الطبيعى والمنطقى ، لأن الأمر هنـا لـن يعـرض عـلى العقـل ليوازن بين إمكانية حدوثه أو عدم حدوثه . ولكن الأمر هنا بقضه وقضيضـه خـاص بمبدأ الإيمان

هل الإله الذى آمنت به قادر على ذلك أو ليس قادرا ، بل إن هذا أيضا لا يجوز فى مبدأ الإيمان ، لأن مبدأ الإيمان يقتضى أن يكون الإله موصـوفا بمطلـق القـدرة أنـا هنـا لا أصف الإله أو أمنحه ما يجوز وما لا يجوزأو أعطيه ما أعقله أو ما لا أعقله ، فصـفات الله أتلقاها ، لأنه – y – هو من وصف بها ذاته .

- **الثانى** : يرفض فكرة الإلوهية ؛ لأن عقله ووجدانه مشغول ، هو يؤمن بغـير الله ، ويتمسك به ،وكيانه متلبس بهذا الشيء، وعلى قدر قوة تمسكه على قدر رفضه لمـا يعرض عليه ، ولا شك أن تمسكه بما هو مقتنع به يترتب عليه امتيازات وصـلاحيات وتفويضات ،وأنه متى تخل عن تلك العقيدة ، فسوف يتخلى عن كل تلـك المكاسـب والصلاحيات .

وفرعون من هذا النوع الأخير ، فمعنى أن يعرض عليه موسى الإيمان بالله ، هذا فى حد ذاته إبطال لدعوة فرعون أنه إله ، وإبطال تلك الدعوة معناها مصادرة كل المكاسب والصلاحيات والتفويضات الممنوحة لفرعون، ومعنى ذلك – أيضا – أن الكهنة – أعمدة المجتمع – سيتخلون عن الصلاحيات ، وطالما الأساس – وهو فرعون – أبطلت دعوته ، والكهنة صودرت صلاحياتهم ، إذن الأساس تقوض والأعمدة إنهارت ... إذن قضى على كل شيء، وهذا ما أدركه فرعون من وراء دعوة موسى ،

وأعتبره أنه جاء للفساد ، وليبدل الدين ويخرجهم من مصر . ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف:١٢٧] ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الأعراف:١١٠] ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة غافر:٢٦]

كيف لفرعون أن يخاف من رجل واحد أعزل من كل شيء إلا من دعوة الحق ؟!

لا شك أن فرعون فى تلك اللحظة على يقين أن ما جاء به موسى هو الحق، وأخشى ما يخشاه فرعون أن تنتشر دعوة موسى ، لأنه سيكون أول صرعى تلك الدعوة ، ومن موقعه ومن منطقه يرى أن الحق فساد ، أو أن تلك الدعوة الحقة قمينة أن تظهر وتعرى وتكشف الفساد فى الأرض ، وتضع الأسماء الحقيقية للمسميات لأن الناس من كثرة

الإلف وطول الخضوع ودوام الإذلال ، وتوارث هـذا الأمـر يظنـون أن الفسـاد هـو الأمر المعتاد والطبيعى ، وما دونه وغيره هو الباطل ، فيصبح الحـق بـاطلا ، والباطـل حقا . وإذا حدث ذلك فى مجتمع من المجتمعات ، فإنه صـائر إلى الهـلاك ، وأسـوأ مـا تبتلى به المجتمعات الإنسانية أن تهلك عن عماية أو عن جهل .

لذلك آل موسى على نفسه القيام بمهمـة تبصـير النـاس ، وتنبـيههم وإيقـاظهم، وإن أمكن دفعهم وحثهم ، بل وتحريضهم للبحث عن حياة أو وضع يليق بالإنسان ، حياة خالية من الظلم والإستبداد والقهر ، واختزال أمة بالكامل فى شخصية فـرد واحـد ، وتسخير وتذليل جهد وإبداع وعبقرية أمة من أجل تخليد أو تجميل شخص واحد .

موسى جاء يزلزل ويصدع وضعا خطأ ، ونظاما معوجا ، وشكلا منحرفا ، عاش عليه وبه الناس الآف السنين ، فحينما يثور موسى فهو يثور بالنظام والناس على حد سواء .

لذلك – فهو بعمله هذا – قد استفز النظام ،وأثار وأغضب القائمين عليه، وكان مـن الممكن أن يسجن ، وكان من الممكن أن يقتل ، ولأمر ما اختار رموز النظام بـدلا مـن السجن أو القتل إخراج موسى من مصر ، وخرج موسى من مصر ، ولكن بعد أن بذر بذور الرشد والهداية ، وترك صوتا قويا أخذ يتردد صداه فى حنايا الصـدور والضـمائر خرج موسى ليعود مرة أخرى ،وبين الخروج والعودة ، تبدل حال موسى ، وتغـيرت رسالته ودعوته ولا شك تغيرت أمور كثيرة فى مصر .

الفصل الثانى عشر
عـودة الغـائــب

بعد مضى عشر سنوات فى (مدين) وهى تلك المدة التـى قضـاها موسـى عنـد شـيخ مدين ، وبعد أن ارتضى أن يعمل عشر سنوات بدلا من ثماني ، ويتزوج إحدى ابنتيـه ، خرج موسى من (مدين) ومعه أهله .

ولكن إلى أين ؟

الإنسان لا يقرر الخروج من مكان ومعه أهله ، إلا وقد عزم الذهاب إلى مكـان معـين ومحدد ، وربما يكون قراره بالخروج نتيجة عزمـه وقصـده الـذهاب إلى هـذا المكـان ، وليس " موسى " بالشخص الذى يسير على غير هـدى ،أو يخـبط فى الأرض لتسـوقه المقادير إلى أى ناحية .. لا سيما وليس هناك دوافع قوية تدفعه للخروج من (مدين) ، لذلك فنكاد نجزم أن موسى ما خرج من (مدين) إلا وهو قاصد (مصر) ، وجاء فى تفسير (سار بأهله) : " شاخصا بهم إلى منزله من مصر " [1]

" قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعـون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلا كلما أورى زنده لا يضئ شيئا فتعجب من ذلك " [2]

---

١ تفسير الطبرى – الجزء – (١٠) – صفحة (٦٥)

٢ تفسير ابن كثير – الجزء (٣) – صفحة (٥١٤)

وقد قصد مصر للأسباب التالية :

- فموسى اضطر اضطرارا ودفع دفعا للخروج من مصر ، ولولا ذلك ما خرج .
- لقد بدأ موسى مشروعه الاصلاحى بمصر ، وسار فيه خطوات واسعة ولابد أن يكمله أو يستأنفه .
- لا شك أن موسى قد نجح فى تكوين جبهة فى القصر الحاكم مؤيدة له ، ولأفكاره الإصلاحية ، وكذلك وفق فى تكوين حزب أو جماعة تناصره وتساعده فى نشر رسالته وتبليغ دعوته ، حتى لو كان هذا الحزب أو هذه الجماعة تعمل سرا ومن تحت الأرض فهى موجودة وتؤثر ، حتى ولو كان هذا التأثير ضعيفا ، إلا أنه على المدى الطويل سيكون ذا جدوى .
- رغم أن موسى انقطع عن مصر مدة عشر سنوات ، إلا إن صلته بمصر والمصريين لم تنقطع ، والأخبار كانت تصله ، وما يحدث فى مصر بصفة عامة ، والقصر ـ بصفة خاصة ، فليست (مدين) بعيدة عن مصر ، هذا من ناحية ، وليست بين (مدين) ومصر قطيعة أو خصام أو عداء يمنع التجار والزوار وآخرين من الذهاب والمجئ إليها ، وكل هؤلاء لا شيء يمنع أن يتصل موسى بهم أو يتصلوا به .
- ليس موسى بالشخص الذى يمضى عشر سنوات يرعى فيها الغنم ويخدم شيخ (مدين) بدون أن يفعل شيئا أو يفكر بعمل شيء ، ونخال أن موسى قضى تلك الفترة مترقبا راصدا منتظرا مفكرا متأملا مراجعا مقيما أحواله وخططه ومشاريعه فى المستقبل ؟، وكذلك الأحوال والأوضاع فى مصر ، وأنه كان يتحين الظروف والفرص المناسبة ليقرر العودة إلى مصر .

- بنو إسرائيل – همُّ موسى الأكبر – فى مصر ، فهو لم يحل مشكلتهم المستعصية ، ولم يخرجهم من مأزقهم ، وهو وإن بدأ يخطو خطوات فى ذلك ، أو بدأ يعطى لهم وضعا أو يحسن من ظروفهم وأحوالهم إلى حد ما ، إلا إن كل هذا تبدد بعد خروج موسى ، وهو يشعر أنه يحمل همومهم ومشاكلهم ، ومأزقهم فوق ظهره، وأنه لن يستطيع عمل شيء لهم إلا وهو فى مصر . بعيدا عن مصر ، وبعيدا عنهم هو عاجز عن فعل أى شيء .
- لم ينس موسى أنه أمير مصرى ، كانت له مكانة ومنزلة فى القصر ، وإن ما حدث كان مؤامرة ، ربما يكون المحرضون قد تركوا أماكنهم أو تفرقوا ، وربما تكون الرغبة العدائية ضد موسى التى تأججت فى ظروف ما قد فترت حدتها وتبددت سورتها ونسى الناس – وإن كان لا شأن لهم فى هذا الأمر – ما حدث من موسى ، وإنهم فى مصر – وبالأخص فى القصر – إن لم يكونوا مرحبين بموسى إلا إنهم ليسوا ممانعين ولا معارضين فى عودته ربما تكون كل تلك الأفكار دارت فى ذهن موسى وهو يقرر العودة .
- إن موسى أحب مصر أرضا ووطنا ، والأنبياء يهيمون بأوطانهم ، فعلى هذه الأرض ولد (وبلغ أشده وأستوى) ، وكون صداقات وأنشأ علاقات ، وساق له القدر تلك المرأة الطاهرة النقية التى أحبته وأنقذته من القتل وآمنت وصدقت به ، وهى زوجة فرعون ، وأيضا أمه التى صبرت واحتسبت أجرها وثوابها عند الله ، وأخيه هارون وأخته ، كل هؤلاء يجعلون للمكان روحا تطوف بموسى كل آن وحين تجذبه ليرد المكان ليطفئ شوقه لكل هؤلاء .

ما الجديد ؟

كل ما سبق أسباب وجيهة لعودة موسى إلى مصر ، ولكن إذا كان موسى الذى خرج هو نفسه موسى الذى عاد فما الجديد فى الأمر ، وما التغيير الذى طرأ ؟

هل سيعود موسى ليفعل ما كان يفعله قبل الخروج ،ويقول الذى كان يقوله ؟

لقد عرف الناس والنظام ما كان يفعله موسى ، وما كان يقوله موسى ، وخرج من مصر لظروف ما ، أو أخرج من مصر ، ثم بعد سنوات عاد . فما الجديد الذى سيفعله موسى ، وما الحديث الذى سيقوله موسى ؟

إن لم يكن معه جديد سيمل الناس منه وقد لا يطيقونه .

إن لم يكن معه جديد قد تتكرر المؤامرة ، وربما فى هذه المرة لا يستطيع الخروج ويتم القضاء عليه .

لا مناص أن يكون هناك أشياء تغيرت إما فى موسى أو فى مصر .

أما فى موسى فهو الذى كان عليه منذ أن خرج من مصر ، اللهم إلا أثار الزمن وتضاريس تلك الحياة الخشنة الصعبة التى كان يحياها فى (مدين) .

أما فى مصر ، فلا شيء تغير ، وإن حدث فهو تغيير طفيف لا يعول عليه .

فمثلا حينما خرج محمد – ﷺ – من مكة مهاجرا خفية ، ليس معه من أحد سوى رفيقه إبى بكر الصديق ، عاد بعد ذلك إلى مكة ، بجيش جرار ، وقد عم الإسلام الأفاق ، وغزا نوره الأنحاء والشعاب ، بدون ذلك لا معنى لعودة رسول الله – ﷺ – إلى مكة لذلك فمحمد الذى خرج أو أخرج من مكة ليس هو الذى عاد فاتحا إليها بعد ذلك ، أمور كثيرة تغيرت خاصة بالرسول وبالدعوة وبمكة أيضا .

- هنا بأى وجه سيعود موسى ؟
- وما الأداة التى سيستعين بها أثناء المواجهة ؟

أصبحت المواجهة بينه وبين النظام والقائمين عليه صريحة وعلنية ومكشوفة ، وهم يعلمون إنه ما عاد إلا للمواجهة ، وهذا صواب ، وهو لا ينكره وإلا لما عاد ؟

وأكيد هم يدركون ذلك ، وقد أعدوا له العدة ، وينتظرونه بما يليق به .

هو لا يستهين بالمواجهة ، ويدرك أن الأمر فى غاية الخطورة ، وأن المهالك محدقة به فى مصر ، والمعاطب تترقبه وتترصده . فماذا يفعل وهو فرد وحيد أعزل أمام جبروت النظام وطغيان وعتو فرعون ؟

نعم لديه الإيمان برسالته ودوره ، ولديه القوة والتصميم والإرادة والصدق والعزم ... نعم كل هذا لديه ... ولكن هذا جهد فرد ، ماذا يفعل فرد أمام إمبراطورية راسخة فى البطش والاستبداد ؟

- ماذا يفعل فرد أمام إمبراطور يدعى الألوهية ؟

• قدر الأنبياء

كل هذه الأفكار جالت بذهن موسى وهو فى طريقه إلى مصر .

كل هذه الإحاسيس ثارت بوجدان موسى وهو فى سبيله إلى مصر .

ولكن ما كان للفكر ولا المشاعر أن تثنيه عن هدفه .

قد يسجن - قد يهلك - قد يقتل

ولكن هذا قدره لو كان يملك قدره لعاش أميرا فى قصر فرعون متمتعا بكل ما فى الحياة من أصناف وأنواع المتع !

ولو كان يملك قدره ما عاش طريدا يعمل راعيا للغنم بعد العز والجاه والسلطان الذى كان يعيش فيه فى مصر .

إنه لا يملك إلا أن يندفع بما فى داخله من مشاعر الثورة على الظلم والطغيان والعسف والاستبداد ، والانتصاف للمظلومين والمطحونيين والضحايا .

هو لا يملك شيئا سوى أن يستجيب لهذا النداء داخله .

وان يوفى بالوعدوالعهد الذى أخذه على نفسه﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة القصص:١٧]

إذن ليسجن .-. ليهلك .- ليموت .

وأنه ليخاف .... ويخشى ... ويهاب ... ويرتعد فرقا ويرتعش فزعا .

ولكن فى أعماقه شيء أقوى من كل خوفه أكبر من كل فزعه أعظم من كل فرقه .

يدفعه أن يسرع الخطا إلى مصيره ، لا شئ يوقفه ، لا شئ يعرقله ... لا شئ يمنعه .

- ✓ هنا وفى تلك اللحظات الفارقة تتكشف عظمة موسى .
- ✓ هنا وفى هذا المكان القفر البارد المظلم المنعزل يتجلى سمو ورقى موسى .
- ✓ هنا وسط هذا العالم الظالم المظلم يتألق معدن الرجل .
- ✓ هنا وفى جنح الليل البهيم ينبض ضمير إنسان يحمل فوق كاهله كل آلام وأحزان البشرية .
- ✓ هنا رجل قدم أوراق اعتماده ليكون نبيا .
- ✓ هنا إنسان اجتاز كل الاختبارات وكل الابتلاءات ليفوز بجدارة بجائزة الرسالة .

هنا فرد أثبت – ولمن ؟ لله – أنه بلغ مكانة ومنزلة لم يبلغها بشر من قبل ، لـذلك أنعـم الله عليه بنعمة لم ينعمها على أحد من قبل ، وهو أن يكلمـه الله تكلـيما : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [سورة النساء:١٦٤]

ما معنى أن يكلم الله عبدا من عباده ؟

أن الله – **y** – رأى فى هذا العبد أنه أهل للتكريم والتعظيم والتبجيل .

جدير بأن يوضع على جبينه وساما ، ويشهد الإنسانية كلها على هذا التشريف . ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٤٤]

- **الخروج من المأزق:**

كثير من المآزق والمشكلات التى يتعرض لها البشر ، لا إنفـراج ولا حـل لهـا. الطـرق مسدودة ، والسبل مقطعة ، والفكر حـائر . وبمـرور الوقـت يـزداد المـأزق تحرجـا ، والأزمة ضيقا ، ويكون العجز هو سيد الموقف ، يبسط عباءته الكئيبة السوداء الثقيلـة على كل شيء .

ولكن كل هذا حادث على المستوى الإنسانى ، حيث الإمكانات شحيحة، والطاقـات محدودة ، والجهد قليل .

لذلك لا خـروج مـن المـأزق إلا بـالخروج مـن أو عـلى المسـتوى الإنسـانى ، حيـث الإمكانات لا حصر لها ، والطاقات لا حد لها ، والجهد لا نفاد له .

كل تلك المواصفات لا تنطبق إلا على المستوى الربانى ، والنطاق الإلهى هنا ييسر الله

الخروج من المأزق ، حيث ظُن ألا خروج مطلقا ، هنا يعين الله على حل كل المشكلات ، حيث تُوهم ألا حل لها أبدا .

وهذا ما نستشفه من تلك السورة العظيمه (طه) ، ففى تلك السورة حديث من الله لنبيه محمد – ﷺ – عن نبيه موسى – عليه السلام – لتسمعه وتتأمله الإنسانية جمعاء، وتخرج بالعبرة والعظة كيف يخرج الله عباده المخلصين من مآزقهم التاريخية ، وأزماتهم النفسية ، ليس هذا فحسب ، بل ويمن عليهم بكرمه وسخائه العظيمين . ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة طه:٢٤]موسى عابر للصحراء المهلكة الليل مظلم ، بارد ، موحش ، الخوف يجوس بأقدامه المفزعة فى كل بقعة ، الرياح تصفر بقوة ووحشية وعنف ، توقع الخطر والهلاك فى أى لحظة ، ومن أى جهة .

النار هنا ، وفى هذا الوقت ، وفى هذا المكان تمثل مصدر أمن وراحة واطمئنـان ودفء ونور وسلام وسكون واستقرار !

فشلت كل محاولات موسى لاشعال نار ، وموسى هنا متلهف للنار ؛ لأن معه أهلـه ، يشعر بفداحة مسئوليته ، فليس من أحد سواه ليوفر لهـم هـذا الأمـر ، فهـذا واجبـه ، وليس من خلق موسى التفريط أو التقصير فى واجب من واجباته ، تعـود عـلى الأداء الكامل والتام ، بل انه يشق على نفسـه فى ذلـك ، ويكلـف نفسـه الكثـير مـن العنـت والشدة ، ولا خيار له فى ذلك .

وهو يبحث فى أرجاء المكان عن وسيلة أو حل لهذا المأزق ، إذا به يبصر من على البعـد نارا ، أول شيء فكر فيه أهله ، وهو يعرف أنه نالهم الكثير من التعب والجهـد ، فـأراد أن يشيع فى نفوسهم الاطمئنان والراحة والأمن ، إلى أن يأتيهم بالنار ، فطلب من أهله أن يتوقفوا وينتظروا .

هنا وفى هذا الزمان وفى هذا المكان وفى هذا الموقـف العصـيب داخـل موسـى ومـلأه إحساس بالأمن والاطمئنان والراحة والسكينة والسرور والرضا ، ليس بسبب رؤيته للنار فحسب ، ولكن تستغرقه حالة غريبة ونادرة لم يشعر بها من قبل ، وهـو لم يقـف طويلا ليتأمل تلك الحالة ... إحساس مبهم وغامض أنه مقبل على شئ جليل وعظيم. أراد أن ينقل شيئا قليلا من هذا الإحساس إلى أهله ، ليشاركوه هـذا الإحسـاس مـن ناحية ، وليطمئنهم من ناحية أخرى ، فقال ((آنست)) وكان من الممكـن أن يقـول : رأيت ... شاهدت ، أبصرت ، أدركت، عثرت ، وجدت ، لمحت ، لقيت ، ولكن كل

تلك الكلمات لا تعبر عن الحالة المستغرقة " موسى " أو لا تؤدى الغرض الذى يريد أن ينقله لأهله وفى المشاهد الثلاثة فى سورة (طه) و (النمل) و (القصص) لم تختلف تلك الكلمة ، وكانت قاسم مشترك ، رغم اختلاف كثير من التفاصيل فى المشاهد الثلاثة .

- **مصدر الأنس:**

ليس مصدر الأنس رؤية النار ، فالنار لن تخرج موسى من هذا المكان الموحش ، ولا الوقت الكئيب ، ولن تحيل الصحراء إلى جنة ورضوان ، غاية ما فى الأمر أنها ستحسن من وضعه ، أو تيسر بعض التيسير على أهله ، ولو لم يقدر لموسى أن يعثر على النار ماذا كان سيفعل ؟ لا شيء كان سيمضى ليله على أى وضع محتميا فى أى جانب ، أو فى أى كهف إلى أن يظهر الصبح وتشرق الشمس، وهذا الأمر ليس بالغريب ولا العجيب على موسى ، فكثيرا ما لاقى من لواء السفر ومشقة الطريق .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن ما أبصره موسى ليس نارا من نيران الدنيا ، وإنما كانت نورا ، " قال الشوكانى : (ومذهب المفسرين أن المراد بالنار – هنا – النور "[1]

فأغلب استعمال القرآن للنار يكون فى مجال ونطاق العذاب والعقاب لتكون جزاءا للكافرين والعصاة والمفسدين والشياطين ، أما وأن المجال هنا مخاطبة ومحادثة الله – y – لنبى من أنبيائه ، وتكليفه بأمر ، وإرشاده على أقوم السبل التى يجب أن يسلكها ، فالمجال هنا ليس مجال نار وإنما نور .

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد العاشر – صفحة (٣٠٥)

أما لماذا رآها موسى نارا ، وبدت له كذلك ، لأن الله لا يصدم أنبياءه بغـير مـا ألفـوا ، فهو رفيق بهم ، رحيم بأحوالهم النفسية .

فحقيقة ما رآه موسى ليس نارا .

وحقيقة ما رآه موسى ليس نورا مما عهده فى الدنيا .

إنه شيء من عند الله يبعث فى النفس السكينة والاطمئنان والسعادة والسـرور والرضا ، لا يبعث فيها فقط ، وإنما يعمها ويشملها ، ليس هذا فحسب ، بل ينشر ويشع فى أرجاء المكان الجلال والطهر والنقاء والقداسة ، ولا يجب أن يكون فى هذا المكان ما لا يتوافق مع تلك القداسة ، لذلك قال الله – y – لموسى – عليه السلام – ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾﴾ [سورة طه:١٢]وحديث القرآن يؤكد أنها ليست نارا﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة النمل:٨]وأيضا : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة القصص:٣٠]" قال الألوسى : (استظهر بعضهم أن المبصر كان نورا حقيقية إلا أنه عبر عنه بالنار اعتبارا لاعتقاد موسى – عليه السلام – وقال بعضهم كان المبصر فى صورة النار الحقيقية وأما حقيقته فوراء طور العقل إلا أن موسى – عليه السلام – ظنه النار المعروفة) "[١]

ووجود الشجرة فى هذا المكان لتحقيق مزيد من الاطمئنان وتسكين روع موسى فقـد عمل مدة من الزمن راعيا للغنم ، وألفت نفسه رؤيـة الشـجرة ، فهـى تكفيـه بظلهـا وثمرها ونارها ، ليس هو فقط ، وإنما تكفى غنمه أيضا .

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – ز . محمد سيد طنطاوى _ المجلد العاشر – صفحة (٤٠١)

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى هناك ارتباط من نوع ما ما بين النور والهداية والطهر والقداسة والشجرة ، وقد تجلى هذا فى سورة النور : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة النور:٣٥] فمصدر الايقاد هنا والنور شجرة ، وتلك الشجرة مباركة ، ومن معانى البركة اليمن والطهر والنقاء والقداسة والزيادة والنماء ، وتلك الشجرة لا وجود لها فى الواقع ، لا فى الشرق ولا فى الغرب ، لا تنبتها الأرض ، فزيتها من النقاء والصفاء واللمعان يضئ بدون الحاجة إلى نار ، هذا النور مصدر هداية وإرشاد .

وما لنا نجهد عقولنا ، يكفى أن يقع اختيار الله – y – للبقعة التى يحدث فيها موسى لكى تضئ وتشرق وتزهر وتشيع فى هذا المكان كل معانى القداسة والطهر والنقاء ، فتلك البقعة تتألق قداسة ونورا وطهرا من مجرد حديث الله لموسى ، والبقعة فى اللغة (القطعة من الأرض تتميز مما حولها) [١] .

فالله نور – وحديثه نور –وكلامه نور .

وكتبه نور– وأنبياؤه نور

---

١ المعجم الوجيز – صفحة (٥٨) .

ويظل المكان الذى شهد وسمع هـذا الحـديث مقدسـا . ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [سورة النازعات:١٦] ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [سـورة مـــريم:٥٢] ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [سورة الطور١ :٨] ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة التين١ :٢]

نعم ، كل تلك المعانى أدركها موسى مبهمة ،وهو لم يدركها بحاسة من حواسه ، وإنما أدركها بكل كيانه ، أو أن تلك المعانى هى التى اشتملته واسـتغرقته وأحتوتـه ، وعـلى قدر ما أسعفته اللغة قال (آنست) : " وهو إبصار الشئ ورؤيته بوضـوح لا التبـاس معه حتى لكأنه يحسه بجانب رؤيته له " [1]

ومع ذلك فلم يتوقف موسى طويلا أمام تلك الحالة النفسية ، فهو يتصرـف وفـق مـا تحتمه طبيعة الأمور ، يذهب نحو ما رآه نارا ، ليأتى بقبس أو يجد من يدله ويرشده إلى الطريق الصواب حيث مقصده مصر .

طوال الطريق يفكر موسى ويضنيه التفكير ، أى الطريق سيسلك ليتعامل مع المصريين ، وأى الأساليب سيتخذها ليتفاهم مع فرعون ، إنه حائر قلق متـوتر ، إنـه لا يشـغله الطريق إلى مصر ، فمهما حاد وضل عن الطريق أو انحرف عن الجادة ، سيعود إليـه ، فلن يعدم قافلة أو مسافرين هذا أمره هين ، ولكن العسير ماذا سيفعل فى مصرـ حيـنما يصل إليها ؟

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد العاشر – صفحة (٤٠١)

فى تلك الحالة موسى مشتت بين أمرين ، الأول أمره هين ويسير وهو توفير الأمن لأهله ، والثانى عويص وعسير ، وهو موقفه فى مصر .

وفى تلك الأثناء ، كان الغالب عليه والمهيمن الأمر الثانى ، لذلك قال (أجد على النار هدى) تمثلت له النار مصدر ومنبع هداية وإرشاد من حيرته وضلاله ، لا تشغله النار وإنما ما ترمز إليه ، لذلك قال (على النار) هنا لم يشغله الاستعمال الطبيعى للنار ، لذلك لم تذكر الآيات هنا - فى سورة طه – جملة (لعلكم تصطلون) ... تلك حالة – التى فيها موسى – من حالات النبوة ، بادرة من بوادرها ، استشرافة من استشرافاتها ، لا يشغله هنا إلا ما يشغل الأنبياء ، النذر اليسير من الحياة الدنيا ، لذلك قال (بقبس) الحد الأدنى الذى يكاد ينفع أهله .

ولكن حينما تزايلة تلك الحالة ، أو قبل أن يدخل فيها ، النار بالنسبة له ، كما هى لأى شخص آخر ، لذلك قال فى سورة (النمل) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [سورة النمل:٧] ، واستخدم السين لأنه ربما يستغرق هذا وقتا ، وفى سورة (القصص) ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة القصص:٢٩]

(ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ) لرغبته فى الاسراع وأنه لن يتوانى فى ذلك .

وكشف عن رغبته أنه لا يريد أن يغيب عن أهله طويلا ، وأن ينجدهم بالنار ، فقال فى سورة (طه) وفى سورة (القصص) : (لعلى) ، رغبة الإنسان شيء ، وما يتطلبه الواقع شيء آخر .

•الحالات النفسية لموسى:

إذن المشهد العام فى السور الثلاث واحد ، ولا نقول تفاصيله مختلفة ، ولكن الحالات النفسية التى تتناولها الآيات لموسى مختلفة ، وحسب كل حالة نفسية من حالات موسى تكون الآيات ، فحينما كانت استشرافات النبوة أو بوادرها هى الغالبة على موسى ، وهو مهيأ لها أو معد للاستقبال ، كان الإرسال مباشرة وبدون تمهيد أو انتظار ، وكانت الرسالة طويلة ومفصلة وكاشفة وواضحة : ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [سورة طه:٢٣]الرسالة هنا تتوافق وتتفق مع حالة المستقبل ، وكانت بمثابة بيان إلهى وتقرير شامل وكامل لرسول الله.

- إنى أنا ربك ما تبحث عنه ما تنتظره ما ترقبه .

- فاخلع نعليك أشياء كثيرة ستفارقك وتفارقها لم تعد موسى الحائر الضال القلق الخائف المعذب ، لقد خلقت خلقا آخر ، من الآن لن تحتاج إلى ما يعينك على السير فى الطرق والسبل والدروب ، ستنتعل أشياء أخرى ، فإذا كان كل الناس ينتعلون نعالا

- لتجنبهم وعورة الطريق ، أو تبعد عنهم الضرر والأذى ، فأنت لست فى حاجة إلى شئيء من هذا ، لأنك مع الله ، والمكان الذى تم فيه الحديث ، فاضت عليه أو انبثقت منه أنوار التقديس ، فأصبح مقدسا طاهرا مباركا .

- فقد وقع اختيار الله – عزوجل – عليك دونا عن الخلق من الآن فصاعدا أنت نبى. أنت رسول الله .

- متن الرسالة الفحوى أنت موحى إليك . فاستمع بكل جوارحك بكل كيانك . بكل خلاياك .

- الله الواحد . لا إله سواه لا أحد يشاركه فى هذا .

- يترتب على هذا أن تعبد الله ، وأهم ما فى العبادة الصلاة ، وأهم ما فى الصلاة الذكر ... ذكر الله .

- هذا الكون له بداية ، وله نهاية ، ونهاية مجهولة ، مجهول موعدها ، ولكنها لا شك ستأتى وتحدث ، لكى يحاسب كل إنسان على ما قدمت يداه .

- ستقابل الكثير من العقبات ، وستجد من يحاربك ويعترضك ، فلا تلن لهم ، ولا تتركهم يؤثرون فيك .

إلى هنا ستأخذ الرسالة منحى آخر ... تزويد موسى بالأدوات والأساليب التى ستعينه وتساعده فى مهمته ، والله – عزوجل – يترفق به ويتلطف ، لأنه يعلم إن هذا أكثر ما تطيقه طبيعة بشر فى بداية عهده بالنبوة ، **فبدأ الجزء الرحيم واللطيف من الرسالة :**

- ✓ سؤال عما فى يمين موسى .
- ✓ اعطاء الفرصة لموسى أن يتكلم بعد أن أذن الله له .

✓ تكلم موسى أو أجاب عن سؤال الله ، وكما هى عادة موسى لابد وأن يعطى كل شئ حقه ويوفيه تمام الايفاء ، ويظهر هذا من حديثه عن العصا ، أو أن موسى أراد أن يتزود من إيناس وسعادة الحديث إلى الله .

✓ أمره الله بإلقائها فإذا هى حية تسعى .

✓ أمره الله بأن يأخذها ، فسوف يعيدها إلى سيرتها الأولى .

✓ وهناك شئ آخر أو برهان . أدخل يدك إلى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .

✓ هذا بعض من كل فكم هى كثيرة وعميمة آيات الله .

✓ ثم يأت التكليف الإلهى بالذهاب إلى فرعون .

أما فى سورة (النمل) فالحالة النبوية لم تكن مستغرقة موسى ، لذلك كان هناك تمهيد لكى يكون الاستقبال فى أحسن حالاته: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة النمل:٨] . ثم يأتى حديث الله – y – لموسى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة النمل:٩].

كذلك فى سورة (القصص) كان هناك تمهيد ، من خلال وصف المكان﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة القصص:٣٠] ثم يأتى حديث الله – y – لموسى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة القصص:٣١]

ولا يمنع أن يكون المشهد فى السور الثلاثة واحد ، ولكن هناك إضافات ، لمحات إضاءات كاشفة خاصة بكل سورة ، لم تذكر فى السور الأخرى ، تساعد وتعين على

تكوين المشهد العام ، بكل عظمته وجلاله وقدسيته ، وتعطى فرصة للقارئ أن يفكر ويمعن التفكير ، ويتأمل ويطيل التأمل ، بتأن وتريث .

أو أن عظمة وجلال وقدسية الموقف ما لا تتسعه وتتحمله سورة واحدة ، أو يعجز العقل على استيعابه وإدراكه دفعة واحدة أو مرة واحدة ، فوزع وفرق على السور ، ترفقا ورحمة بعجز وقصور العقل ، ومع هذا التوزيع والتقسيم العقل عاجز عن إدراك مرامى ومقاصد الآيات ، فما بالك لو جاءت جملة واحدة؟!

أو أن لأمر ما جاءت بعض السور مفصلة ، وتفاوتت السور فى نسبة هذا التفصيل ، وجاءت السور موجزة ، مثلما جاء فى سورة (النازعات) ، فقد اختزلت تفاصيل المشهد واكتفت فى تلك اللقطة الموجزة إيجازا بليغا . ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النازعات:٢٦ ومع كل ذلك لا نستطيع أن نغفل الحالة النفسية للرسول ، وأبعاد تلك الحالة ، فهو المتلقى ، وهو المستقبل ، وعلى أساس تلك الحالة تتحدد كثير من الأمور والقضايا .

- **إعلام وتكليف .**

خرج موسى من هذا ، بأن أعلمه الله أنه نبى ورسول ، وعرض له معجزتين (العصا واليد) برهانين لكلامه عند فرعون ، وكأن هذا ما كان يبحث عنه موسى ، وكأن هذا ما

كان يقلق فكره ويؤرق ليله ، وتجد هذا التكليف بتلك المهمة عقب إعلام موسى بالنبوة . ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة طه:٢٤] فى سورة (النمل) ﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة النمل:١٢]فى سورة (القصص) : ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة القصص:٣٢]وفى سورة (النازعات) : ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة النازعات:١٧]

- إعلام بالنبوة .
- معجزة وبرهان .
- تكليف .

هنا أخرج موسى من مأزقه هنا فرج عن موسى أزمته

الآن يستطيع أن يقف أمام العالم كله ، وليس أمام إمبراطورية .

الآن يستطيع أن يواجه كل ما فى العالم من أشرار وطغاة وليس فرعون فقط .

الآن أصبح موسى نبيا ورسولا :

وإذا كان قد تعود قبل ذلك على أن يؤدى أعماله على الصورة التامة والكاملة ، فإنه الآن يجب أن يؤديها على صورتها الأتم والأكمل ، ويعلم أن المهمة شاقة والتكليف عسير ، وإن كان من قبل قد عزم على تأديتها مختارا ومن تلقاء نفسه ، وقد يؤديها على قدر وسعه ، وعلى ما يطيق جهده ، فالآن يؤديها بتكليف من الله ، ولا ينبغى أن يؤدى

المهمة على قدر وسعه ، وإنما يؤديها بما يتناسب ومقام الله ، بما يتوافق ومكانة المكلف ، لذلك وبسرعة بحث موسى فى أوجه التقصير التى قد تصدر منه ، بكل صدق وصراحة

وجرأة وشجاعة ، **كما هى عادته ، فكانت** :

❋ ضيق صدره لذلك فقد يجد نفسه – فى بعض المواقف – مندفعا متهورا ، متأففا ، غاضبا ، غير صبور ، غير متأن . وكل هذا لا يليق ومقام النبوة فطلب من الله – **y** – أن يشرح صدره.

❋ المهمة فى غاية العسر ، وأمره فى غاية الحرج ، فطلب التيسير من الله .

❋ قد يحدث الارتجاج ، ويتعثر فى النطق أثناء تحاوره ومناقشته مع فرعون فطلب من الله أن يحلل عقدة لسانه .

❋ قد يحدث تقصير منه ، فاحتاط لذلك فطلب أن يكون له مساعد ووزير .

وقد أجاب الله كل ما طلب موسى ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة طه:٣٦].

موسى لا يترك شيئا للظروف أو للصدفة ، لا يريد أن يفاجئ بشيء لم يعمل حسابه ، إنه مقبل على معركة مع من يعتقد نفسه إله ، وموسى عرف وخبر وسبر غور فرعون ، فقد عاش قريبا منه ، والمعركة بينهما ستكون فى قمة الشراسة والبطش ، ليس معه فقط ، ولكن مع كل رموز وأركان النظام أقوى إمبراطوية فى الأرض إمبراطورية الشرك والعصيان والظلم والعسف والاستبداد والبطش وجها لوجه أمام موسى النبى .

الفصل الثالث عشر
" موسى " وبنو إسرائيل .

شاءت إرادة الله أن يربى موسى بعيدا عن بنى إسرائيل .

وشاءت إرادة الله أن يصاغ وجدان موسى وفكره بعيدا عن المصريين .

فهو لا يشعر بفضل ولا منة من بنى إسرائيل عليه .

ولا يتقيد وجدانيا ولا يرتبط عقليا بما كان المصريون يؤمنون به أو يعتقدون فيه .

إذن قدر لموسى أن يكون حرا فى إنتمائه وولائه .

وقدر لموسى أن يكون حرا فى إرتباطه الوجدانى ، والتزامه العقلى أو العقائدى .

هذه المساحة العريضة من الحرية أتاحت لموسى أن يأخذ مواقف غاية فى الجرأة والشجاعة والصراحة من المصريين والإسرائليين على حد سواء ، هذه الحرية لم تضطر موسى أن يجامل الإسرائيليين ، ولم تدفع موسى أن يهادن المصريين ، وأتاحت له أن يسلك فى حياته ويفعل ما يراه صوابا ، وما يمليه عليه ضميره .

وربما هذا ما جعل بنى إسرائيل لا يحبونه ، ولكن يحترمونه ويوقرونه .

وربما هذا ما جعل المصريين لا يكرهونه، وإنما يخافونه ويهابونه ويخشونه .

لذلك لا نستبعد أن المصريين وبنى إسرائيل أو بعض أجهزة النظام المصرى ، وبعض رموزه ، وبعض شيوخ بنى إسرائيل قد اجتمعوا على رأى واحد ، هو إخراج " موسى " من مصر ، أو على أقل تقدير عدم الرغبة فى بقاء موسى فى مصر ، فهو شخص غير مرغوب فيه .

ولا نستبعد أن بعض شيوخ بنى إسرائيل كانوا مستفيدين وكانت لهم مصالح من بقاء اليهود فى مصر ، وأن يظلوا على هذا الوضع المزرى والمهين ، بل أنهم كانوا – الشيوخ – يعملون على أن يستمر هذا الوضع ولا يتغير ، وأن بعض الفئات من عامة الناس فى بنى إسرائيل ألفوا وتعودواعلى هذا الوضع ، لأنه يتناسب على ما جبلوا عليه من الخضوع والخنوع والرضى بالهوان .

وإن هؤلاء الشيوخ ليسوا على استعداد للتضحية بتلك المصالح ، أو التخلى عن الفوائد التى يحصلون عليها بسبب بقائهم فى مصر مهادنين أو متوافقين أو غير معارضين للنظام المصرى .

وأن تلك الفئات من عامة الناس ليسوا على استعداد للخروج عما تعودوا وألفوا .

وأن موسى ثائر بتلك المصالح التى يتمسك بها بعض الشيوخ .

ورافض ، بل متمرد على هذا الإلف والعادة التى عليها عامة الناس من بني إسرائيل .

وكما كان هناك مؤامرة مدبرة ومنظمة من قبل النظام المصرى لتوريط موسى ، كان هناك محاولة جادة ،واعتمدت لها مبالغ طائلة لتشويه سمعة موسى، من شيخ له مكان ومكانة فى بنى إسرائيل ، وهو (قارون).

- **من " قارون " ؟**

شيخ من شيوخ بنى إسرائيل ، حاز من المواهب والقدرات والإمكانات ، وأجاد استخدام واستثمار وتوظيف تلك المواهب والقدرات والإمكانات ، ما جعله مضرب المثل فى الغنى ، ليس فى زمنه فقط ، بعد فى الأزمان التالية ، حتى وقتنا هذا !!

فلم يكن لديه أموال طائلة فحسب ، بل كنوز وخزائن ، مفاتيح تلك الخزائن – وليس الخزائن – لا تحمل من الرجال الأشداء إلا بشق الأنفس ، وقد عبر القرآن الكريم عن هـذا بقولـه﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة القصص:٦٧] ولا يستطيع (قارون) أن يجمع تلك الكنوز وهو فى خصـام مـع المصريين أو النظام المصرى ، بل نخال أنه كانت هناك علاقات وثيقة ومتينة بل ومريبة بينه وبين النظام ، وأنه كانت هناك صفقات وعمـولات ورشـاوى واسـتغلال نفـوذ واستغلال مناصب ، وتبادل فوائد ومنافع بينه وبين بعـض أعمـدة النظـام فى مصرـ . لذلك من الممكن لقارون أن يتبنى نفس موقف النظام المصرـى مـن " موسـى " إن لم يزدعلى ذلك ، وإلا ما معنى أن تجمع آيات قرآنية بينه بين فرعون وهامان إلا أن يكون الثلاثة على رأى واحد وكلمـة واحـدة وموقـف واحـد مـن موسـى ؟! ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٣٩] فالآيات تتحدث عـنهم وكـأنهم جبهـة واحدة ، ولهم موقف واحد ، وقول واحد ، ولا يتأتى هذا الموقف وهذا القول ، إلا إذا كانت بينهم علاقات كثيرة تربطهم ، تلك العلاقات هى التـى شـكلت هـذا الموقـف الواحد ، أو الموحد من موسى .

فما جاء به موسى وما يقوله وما يريده فيه تهديد صريح لنظامهم ومصالحهم ومكانتهم ولكن إذا كان هذا واضحا ومفهوما بالنسبة لفرعون ووزيره هامان ،فما شأن قارون ؟ لم تتأت كنوز قارون إلا من خلال وضع فاسد قائم ، هـذا الوضـع هـو الـذى مكـن وأتاح

لقارون أن يحوز تلك الكنوز الطائلة ، موسى سيأتى ويغير هذا النظام ، وبالتالى سيتغير كل ما يتعلق بهذا النظام ، إذن قارون معرض للتهديد ، فهو يرتكز على هذا النظام ، إن لم يكن هو من ضمن ركائزه .

هذا من ناحية ، وهناك شيء آخر ، المكانة والمنزلة الاجتماعية التى كان عليها قارون ، فهذا رجل تجمع لديه كنوز لا حصر لها ، وكان ينفق بسخاء على مظهره الاجتماعى ، ولا شك أنه كان يبحث – إن لم يكن وصل إليها – على السيادة والرياسة والزعامة بين قومه ، فهو يظن أنه بالمال يستطيع أن يشترى ويحصل على كل شيء ، وهذا واقع على الأقل كما يظن ، ولكن ماذا تفعل كنوزه مع نبوة موسى ، حتى قبل النبوة ، فنظن أن علاقة موسى بقارون لم تكن طيبة بالمرة ، فقارون يملك الكثير ، ولكن لا يتمتع بالوجاهة الاجتماعية التى يتمتع بها موسى كأمير ربى فى القصر ،ويلازم فرعون فى روحاته وغدواته ، مع أن موسى لا يملك ما يملكه فرعون ، بل لا يملك شيئا بالمرة ، ثم أن مكونات شخصية موسى تجعله ينفر من قارون ومن هم على شاكلته ، لا سيما حينما يجعله المال متكبرا ومغرورا ومعجبا بنفسه ، ويجرأه المال على البغى والظلم والفساد ، ويأخذه الكِبر والعُجب ، وتأخذه العزة بالأثم حتى بعد أن ينصحه قومه ليرتدع عن غيه ورعونته ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

[سورة القصص:٧٦:٧٧)

وكان رده في غاية الغرور والتكبر. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [سورة القصص:٧٨] موسى وقارون شخصيتان متناقضتان فى كل شيء ، ومتنافرتان ، وأكثر ما كان يضايق قارون من موسى ، أن كثرة مال قارون لم تزد من مكانة قارون فى نظر موسى ، ولا شك أنه كانت هناك محاولات من جانب قارون لاسترضاء موسى أو جذبه ليكون ضمن حزبه وجماعته ، ولكن تلك المحاولات فشلت ، لأن لا سلطان للمال على موسى ، والمال لا يرتقى بصاحبه فى نظر موسى ، لذلك زادت الجفوة بين الرجلين . وحينما جاءت النبوة إلى موسى ، اشتعل قلب الرجل حقدا وحسدا وغيرة ، فمعنى أن يكون موسى نبيا ، فقد استأثر بكل الاهتمام ، وكل الأضواء أصبحت مسلطة على موسى ، بينما هو يتوارى فى الظل ، بل ليس له مكان بالمرة ، حتى رغبته وأمنيته أن يكون الرجل الثانى فى بنى إسرائيل – بعد أن كان الرجل الأول – تبددت بوجود " هارون " أخو موسى .

وقد أشار إلى كل تلك الأمور صاحب الكشاف - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - :

" قارون اسم أعجمى مثل هرون ، وقيل معنى كونه من قومه أنه آمن به ، وقيل كان إسرائيليا ابن عم موسى ، هو قارون بن يصهر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهت ، وقيل كان موسى ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ، ولكنه نافق كما نافق السامرى ، وقال : إذا كانت النبوة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والمذبح والقربان إلى هارون فمالى؟

وروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة والحبورة لهرون يقرب القربان ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان إلى موسى ، فجعله موسى إلى أخيه وجد قارون فى نفسه وحسدهما، فقال لموسى : الأمر لكما ولست على شئ إلى متى أصبر ؟.

قال موسى : هذا صنع الله .

قال : والله لا أصدقك حتى تأتى بآية ، فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجئ كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، وأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر ، وكانت من شجر اللوز ، فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . (فبغى عليهم) من البغى وهو الظلم ، قيل ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم ، وقيل من البغى وهو الكبر والبذخ تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده وقيل زاد عليهم فى الثياب شبرا " [1]

لم يشغل قارون أمر نبوة موسى ، ولم يشغله مشاريع وخطط موسى الاصلاحية ، ومحاولته انقاذ وإخراج بنى إسرائيل مما هم فيه ، وإنما كان شاغله أين هو من كل هذا ؟ وما الفائدة التى ستعود عليه ؟

نظر إلى أمر النبوة بمعيار المكسب والخسارة ، فوجد أنه لم يكسب شيئا بالمرة ، بل أنه سيخسر الكثير سيخسر مكانة ومنزلة ووجاهة اجتماعية ، وأن موسى وأخيه قد استأثرا بكل شئ دونه .

□

---

١ تفسير الكشاف – المجلد الثالث – صفحة (١٩٠)

قد يقبل قارون كل هذا ، ولكن على مضض ومشقة ومعاناة .

ولكن ما لا يقبله قارون ولا يطيقه أن تمتد يد موسى إلى ماله ، ليأخذ منه ليعطى فقراء ومساكين بنى إسرائيل ، إن هذا المال ماله ، ليس لأحد الحق أن يأخذ منه شيئا تحت أى مسمى من المسميات ، لقد قال (لقد أوتيته على علم عندى) ليس لأحد من فضل فى هذا المال إلا لى .

ولكن ما حدث أن موسى ذهب إليه مخبرا إياه أن هذا المال مال الله ، وينبغى عليه أن يدفع حق الزكاة حينئذ جن جنون قارون ، وخرج عن طوره، وعن عقله ، وركبه شيطانه .

• أكبر حملة تشويه في التاريخ

ما من نبى إلا وتجد من أبناء زمنه وقومه من يحاول أن يغض من شأنه ، وتشويه صورته النقية الطاهرة ، وتلويث شخصه النبيل السامى ، وتتفاوت تلك المحاولات من ناحية الإتقان والسذاجة تبعا لمهارة ودربة من قاموا بها .

ولم يبلغ أحد من المهارة والإتقان وجودة الحبكة فى التاريخ الإنسانى كله كما بلغها بنو إسرائيل فهم متخصصون ومهرة وأصحاب بيوت خبرة فى نوع واحد هو كيفية تشويه سمعة الأنبياء ، مهارتهم وعبقريتهم تجعلهم لا يرتضون دون الأنبياء منزلة ، وهذا أدنى شئ وأقل شئ يفعلونه مع الأنبياء والرسل ألم يكونوا قتلة الأنبياء ؟!

وهذا ما فعله قارون مع موسى ، ولا نشك أن كثيرا من شيوخ بنى إسرائيل قد شايعوا قارون وأيدوه وعاونوه فى ذلك ، حتى ولو لم يفعلوا ، فهم مشتركون ومتواطئون بصمتهم وسلبيتهم ، وعدم دفاعهم عن نبيهم ، ودفع تلك التهم الباطلة والإفتراءات

الكاذبة عن موسى . وما حدث هنا يؤكد أن عدد من شيوخ بنى إسرائيل كان مشتركا فى مؤامرة توريط موسى و إخراجه من مصر ، وقت أن قتل المصرى كما فصلنا من قبل .

تفتقت عبقرية قارون يساعده فى ذلك البعض ، ويستعين بنفوذه وماله ، أن يورط موسى فى جريمة زنا . أى شيطان دفعه أنة يدبر هذا ؟! ومع من .؟ مع موسى !

" كان قارون يؤذى نبى الله موسى عليه السلام كل وقت ، وهو يداريه للقرابه التى بينهما ، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، فحسبه فاستكثره ، فشحت به نفسه ، فجمع بنى إسرائيل وقال : إن موسى أرادكم على كل شئ ، وهو يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا فمر بما شئت ، قال : نبرطل فلانة البغى حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار ، وقيل طستا من ذهب ، وقيل طستا من ذهب مملوءة ذهبا ، وقيل حكمها . فلما كان يوم عيد قام موسى فقال : يا بنى إسرائيل من سرق قطعناه ومن أفترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه ، وإن أحصن رجمناه ، فقال قارون : وإن كنت أنت ؟

قال : وإن كنت أنا .

قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانه .

فأحضرت فناشدها موسى بالذى فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق ، فتداركها الله .

فقالت : كذبوا ، بل جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى ، فخر موسى ساجدا

يبكى وقال : يا رب أن كنت رسولك فأغضب لى ، فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك ، فقال يا بنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزمه مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ، ثم

قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب، ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى العناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال : خذيهم فانطبقت عليهم وأوحى الله إلى موسى ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم، أما وعزتى لو إياى دعوا مرة واحدة لوجدونى قريبا مجيبا فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بيتهم ، إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله " [1]

لم يتوقف الأمر عند هذا ، بل كانت الحملة مستمرة ودائمة ولا تهدأ ، الحقد والحسد والغيرة ، وكراهية الحق ومقت العدل ومعاداة الخير متأصل فيهم، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

بحثوا وأضناهم البحث عن عيب يلصقوه بموسى ، ولأن موسى كان حييا – شأن كل الأنبياء – ولا يتعرى بمرأى من أحد ، فقالوا ما يفعل ذلك إلا بسبب عيب فى جسمه ، فهو مصاب بالأدرة ، مع أن هذا لو كان صحيحا ، فلا ينتقص هذا من كرامة ومكانة ومنزلة موسى .

---

١ تفسير الكشاف – المجلد الثالث – صفحة (١٩٢)

ولم يكتفوا بذلك بل اتهموه أنه قتل أخاه هارون ، فقد خرجا معا وعاد موسى بمفرده وأخبرهم أن هارون مات وقام بدفنه ، فلأن طباعهم فاسدة وشياطينهم حاضرة ، اتهموا نبى بقتل أخيه ، وهو الذى طلب من الله أن يشرك معه أخاه فى النبوة والرسالة !!

وتعجب موسى من تلك الحملة المغرضة التى لا تنقطع ولا تكل ،مع أنهم يعلمون حق

العلم أنه رسول الله ، بالأدلة والبراهين والمعجزات . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة الصف:٥]وبرأ الله نبيه " موسى " من كل ما قالوا ، ورفع مقام ومكانة موسى عنده﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [سورة الأحزاب:٦٩] جاء فى تفسير الكشاف : " قيل نزلت فى شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قالة الناس ، وقيل فى أذى موسى عليه السلام وهو حديث المومسة التى أرادها قارون على قذفه بنفسها . وقيل اتهامهم إياه بقتل هرون وكان قد خرج معه إلى الجبل فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به عليهم ميتا فأبصروه حتى عرفوا أنه غير مقتول وقيل أحياه الله فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام ، وقيل قرفوه بعيب فى جسده من برص أو أدرة فأطلعهم الله على أنه برئ منه (وجيها) ذا جاه ومنزلة عنده فلذلك كان يميط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وصم ولا يوصف بنقيصه كما يفعل الملك بمن عنده قربة ووجاهة "[1] ومع

[1] تفسير الكشاف – المجلد الثالث – صفحة (٢٧٦)

كل تلك المرارة التى شعر بها موسى من جراء تلك المواقف ، والألم النفسى بسبب تلك الأقوال ، من أصحاب القلوب المريضة والضمائر الخربة والنفوس الفاسدة ،والتى حار موسى فى محاولة فهم دوافعها ومبرراتها ، مع كل هذا لم يتغير موقفه من قومه ، فنفسه أكبر وأرقى وأسمى من أن تتأثر بنلك الترهات والصغار ، إلا أن الأمر فى حاجة إلى عتاب ولوم ، فى حاجة إلى تأنيب وتوبيخ ، فى حاجة إلى تأديب وترهيب ، فهذا نبى من أنبياء الله ، رسول من رسل الله ، له كل تعظيم وإكبار وتوقير وتبجيل ، إن لم يكن لشخصه –

وشخصه يستحق كل هذا – فمن أجل المهمة التى كلف بها ، من أجل الرسالة التى أرسل من أجلها ، يقول موسى ونفسه ملآنة بالحسرة والمرارة : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الصف:٥]

- **ملمح من ملامح شخصية بنى إسرائيل :**

– هنا لمس وأبان وكشف موسى عن أهم وأخطر ملمح من ملامح شخصية قومه أنهم يفعلون كل ما يفعلونه من ذنوب وجرائم وتجاوزات وهم يعلمون وويعرفون ويدركون ، لا عذر لهم من جهل أو غباء أو عدم إدراك، يعرفون معرفة يقينية أنه نبى ولكن كل أفعالهم وتصرفاتهم لا تتفق ولا تتسق ولا تنسجم وتلك المعرفة !!

بم تسمى هذا ؟

سمه إعوجاج خلقة فساد طبع عتامة نفس .. إنحراف عقل بوار ضمير إنعدام نخوة موت حمية .

جميع تصرفات وأفعال بنى إسرائيل تسير على هذا النهج ، وموسى فى رحلته الطويلة الشاقة والمضنية معهم يحاول ما وسعته الحيلة أن يعدل من تلك الخلقة ، أن يصلح فساد طبعهم ، أن يرتقى ويسمو بنفوسهم ، أن ينير عقولهم ، ويحيى ضمائرهم ، ويبعث النخوة ويثير الحمية فى صدورهم .

انظر لموقفهم بعدما انتصر موسى على فرعون آمن السحرة ، وموسى يعلم أن فرعون سيصب جام غضبه عليه وعلى قومه ، فهو – فرعون – كالوحش الجريح لذلك ألتفت موسى إلى قومه داعيا إياهم إلى الصبر والتحمل والتماسك ، واعدا إياهم أن الله سيجزيهم خيرا عن صبرهم وتضحياتهم . ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٢٨]هذا وعد وبشرى من نبى لقومه ، المفروض أن يفرحهم ويسعدهم، وهذا دافع لهم أن يصبروا صبرا جميلا ، فالثواب – كما يقال – على قدر المشقة ، وأن يثبتوا رسولهم ونبيهم وينصروه ، ويكونوا معه يدا واحدة وقلبا واحدا ، ولكن انظر ماذا قالوا : ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٢٩] نعم ، كان الأذى واقع بهم من قبل أن يأتيهم موسى ، ولكنه أذى لا جزاء له ، لا غاية ولا هدف منهم .

ولكن الأذى الواقع بهم بعد مجئ موسى لا يسمى أذى ، فهم مثابون على صبرهم

وتحملهم ، بمجئ موسى أصبح لوجودهم معنى وغاية ، أصبحوا حملة رسالة ودعوة إلى الإنسانية ، حضانة لتلك الدعوة حتى تستوى وتستغلظ وتقف على قدمين لتنشر النور والحق والعدل فى العالم ، ولكن على ما يبدو لم يكونوا على مستوى الدعوة والرسالة ،ومع ذلك حاول موسى أن الله معهم ولن يتخلى عن نصرتهم . وتحقق وعد موسى لهم ، وأهلك الله عدوهم وهم ينظرون .

ولا شك أن الكلمة التى قالوها لموسى – وهى تحمل معنى التأفف والضيق والتبرم بالموقف الذى وضعهم فيه موسى ، وقد حملوه وحده نتائج ما يترتب على هذا الموقف وكأن الأيذاء شئ جديد عليهم مع أنهم كانوا يصبحون ويمسون فيه – تلك الكلمة تركت فى شخصية موسى أثرا لا ينمحى ، ومع ذلك فليس أمام موسى إلا الصبر والتحمل .

- وبعد أن رأى بنو إسرائيل الكثير من الآيات والبراهين والدلائل على صدق موسى ، وتأييد الله له ، وبعد أن أنجاهم من فرعون ، وبعد خروجهم من البحر ، وأمامهم موسى ، مروا على قوم يعبدون الأصنام ، المفروض أن يستنكروا ما يفعله القوم من عبادة الأصنام ، بعدما أرشدهم موسى وهداهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ولكن حدث منهم موقف فى غاية العجب والغرابة ، فقد ذهبوا إلى موسى وقالوا له اجعل لنا إله كما لهم إله !!

- ☒ لا ندرى كيف صبر عليهم موسى ؟!
- ☒ لا ندرى كيف تحمل رزالتهم موسى ؟!

يطلبون من النبى أن يبيح لهم ويحلل لهم ويصرح لهم ويختار لهم ويجعل لهم صنما يعبدونه من دون الله . ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٣٨] إنكم قوم تجهلون هذا رد فى غاية الرقى والسمو ، من شخصية نبيلة كريمة. ما زال موسى يعاملهم معاملة راقية وسامية ، مع أن أفعالهم وأقوالهم تدل على أنهم لا يستحقون ، ومع ذلك أخذهم بالسياسة والتروى والعقل والمنطق

وكأنه يحدث أطفالا ، أو أشخاصا لا عقل لهم ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ [سورة الأعراف:١٤٠]هنا موسى يعتصم بالصبر ويتمسك بالحلم والتحمل ، وأخاله يكظم غضبا وثورة ترج كيانه رجا ، ومع ذلك فما له حيلة إلا الصبر ، فهم قومه ، وهم من أرسل إليهم إنهم قدره ، ولابد أن يتحمل هذا القدر.

راضيا قانعا . ويحاول موسى أن يردهم إلى عقلهم ، ويوقظ ضمائرهم ، ويذكرهم بمنن الله ونعمه عليهم ، لعل ما يقوله يجد صدى فى نفوسهم .

- يذهب موسى لميقات ربه لتلقى التوراة ، ويغيب عن قومه أربعين ليلة ، وكأن موسى كان يتوقع أن شيئا ما سيحدث منهم ، إن ماضيهم وحاضرهم معه وسابق تفكيرهم وتصرفاتهم وأفعالهم ، كل هذا يؤكد أنهم سيأتون عملا ما ، لذلك قبل أن يفارقهم طلب من " هارون " أن يخلفه ، مع أن هذا الأمر ليس فى حاجة إلى نص

- صريح وقول من موسى إلى هارون ، فهـارون وزيـره ، ومـن مهامـه أن يأخـذ مكان موسى إذا غاب وكأن موسى لا يتحدث إلى هارون ، وكأنه يقصد شيئا آخـر ، وكأنه يقول لقومه : إن لى عينا ترى كل ما سيحدث منكم . فحذار ويقول له : أصلح وهل يتوقع من هارون فسادا ؟

ويقول له : لا تتبع سبيل المفسدين وهل يتوقع مـن هـارون أن يؤيـد ويشـايع ويتبـع المفسدين ؟

إن موسى هنا يقصد بحديثه أشياء خفية غير الظاهر منها .

إنها رسالة لقومه ، رسالة تحذير وتهديد يشعر بعدم اطمئنان ، يشعر أن هناك فى قومـه قلق توتر بوادر مقدمات إرهاصات لشـئ مـا إنهـم قومـه يعـرفهم حـق المعرفـة ، وأفعالهم وتصرفاتهم لا تبشر بخير ، ومع ذلك لابد أن يتركهم ويغيب عنهم تلك المدة ، إنها تجربة لهم .. وهو لن يعيش معهم إلى الأبد إنه الأن سيغيب مدة موقوتة ويعود ، وفى

يوم ما سيغيب إلى الأبد ، نعم ، هى تجربة ليرى النبت الذى بذره هل سـيؤتى ثـماره ؟ هل نجحت حاولاته معهم أم لم تنجح ؟

- هل استقامت أخلاقهم ؟
- هل صلحت نفوسهم ؟
- هل استيقظت ضمائرهم ؟
- هل صفت وتطهرت طباعهم ؟
- هل انتفعوا واستوعبوا الدروس والعبر والعظات التى مروا بها ؟

إنهم من سيحملون عبء الرسالة بعده إلى العالم ، بدونهم كل ما سيفعله سيذهب أدراج الرياح ، وهو يعلم أن المهمة صعبة ، وفى حاجة إلى عزم قوى وإرادة صلبة ، وقلب صادق ، ونفس طاهرة نقية مطمئنة ، فى حاجة إلى قوم تكون صلتهم بالله كأقوى ما يكون ... إنها تجربة ولينظر عما ستسفر .

أو كأن ما حدث ابتلاء من الله لهؤلاء القوم ليمحص قلوبهم ، هل تخلصوا من الوثنية ، ونفضت نفوسهم كل بقايا ما تعودوا عليه من عبادة تقليدا لمصريين ؟ أم مازال فى صدورهم ميل وحنين ، ولم يملأ التوحيد قلوبهم ، ولم يعمر الإيمان صدورهم ؟

وسيترتب على نتيجة هذا الابتلاء أمور خطيرة إذا جاءت النتيجة خلاف المقدمات .

فهم – المفروض – حملة لكلمة التوحيد من لدن إبراهيم ويعقوب وإسحاق ويوسف – عليهم السلام – وقد فضلهم الله على العالمين ، وقد شاهدوا وعاينوا ولمسوا البراهين والدلائل والمعجزات ، ويعيش بين ظهرانيهم نبيان وليس نبي واحدا ، كل هذه المقدمات لابد أن

ينتج عنها قوم فى قمة الطاعة والإيمان والتوحيد لرب العالمين ، فماذا يريدون بعد كل تلك النعم ؟!

ولكن للأسف تأتى النتيجة مخيبة لكل التوقعات ،ومخلفة لكل المقدمات . ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة طه:٩٨]جاء فى تفسير الوسيط :" وهذه الآيات الكريمة تحكى قصة ملخصها أن موسى عليه السلام بعد أن أهلك

الله – تعالى – فرعون وجنوده سار ببنى إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلفا أخاه هارون ،وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم ، ثم عجل من بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره – سبحانه – بما أحدثه قومه فى غيبته عنهم ، وجملة (وما اعجلك عن قومك يا) مقول لقول محذوف .والمعنى : وقلنا لموسى : أى شئ جعلك تتعجل المجئ إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك ، مع أنه ينبغى لرئيس القوم أن يتأخر عنهم فى حالة السفر ليكون نظره محيطا بهم ونافذا عليهم ؟ "[١]

إذن فشل القوم فى الابتلاء ، ورسبوا فى الامتحان ، لقد كشفت التجربة أنه مازال فى قلوبهم بقايا من الوثنية ، مازال فى صدورهم هذا الحنين إلى ما كان يعبد المصريون . لم يتخلصوا من إلف عاداتهم .

ولكن هل لو لم يتركهم موسى ما فعلوا هذا الفعل الشنيع ؟

لا علاقة بين غياب موسى وما فعلوه فما وجود موسى بينهم يمنعهم من الاتيان بمثل تلك التصرفات ، فالأمر كائن فى نفوسهم ، مركوز فى طبائعهم ، وهذا أمر عقيدة ألم يطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنما يعبدونه ؟!

ولو كانوا يخافون موسى وهو بينهم لخافوه وهو غائب عنهم ، لأنهم يعلمون أنه عائد إليهم بعد مدة طالت أم قصرت .

والحوار الذى دار بين موسى وبينهم بعد عودته يكشف أن ليس لهم من عذر فيما فعلوه ، لأنهم ارتكبوا أمرين :

- عبادة العجل .
- اخلافهم وعد نبيهم .

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد التاسع – صفحة (١٣٦ و١٣)

" فالاستفهام فى قوله (أفطال) للنفى والانكار و (أم) منقطعة بمعنى بل .
والمعنى : أفطال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه ؟ لا إنه لم يطل حتى تنسوا ما أمرتكم به ، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى الذى وعدتمونى إياه ، وهو أن تثبتوا على اخلاص العبادة لله – تعالى – ومعنى إرادتهم حلول الغضب عليهم أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك وهو طاعتهم للسامرى فى عبادتهم للعجل "[1]

هنا موسى يفند لهم الأعذار التى قد يعتذرون بها ، ويكشف حقيقة أمرهم .

فلم تطل غيبته عنهم ... أربعون ليلة ليس بالوقت الطويل لتضعف عزيمتكم وتذوى إرادتهم .

ثم كان هناك وعد وعهد من موسى النبى ، شهد عليه هارون ، هذا الوعد والعهد لا يسقطان بالتقادم ، هذا إذا كان هناك تقادم ، هذا الفعل القبيح والتصرف ليس له من نتيجة إلا غضب الله عليكم .

- **دفاع الأحمق**

ما فعله بنو إسرائيل شرك فى أجلى صوره .

الطامة الكبرى أنهم فعلوا ذلك وهم يعلمون أنه شرك .

الأكثر من هذا أنهم فعلوا ذلك على مرأى ومسمع من نبى (هارون)

الأكثر من هذا أنهم فعلوا ذلك ناقضين عهد ووعد نبيهم (موسى) .

الأكثر من هذا أنهم فعلوا ذلك وليس هناك من مبرر ولا تفسير

هل كانوا مغيبين ؟

---

١ المرجع السابق (١٣٨)

هل كانوا مسلوبى الإرادة ؟

هل كانوا مضللى العقل ؟

نعم ، هذا ما قالوه لموسى ، وهو يحقق معهم : (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا)

" أى قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذى هو أقبح من ذنب : ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامرى ما سول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله – تعالى – وحده " [1]

هم كاذبون فيما يقولون .

فقد كانوا فى قمة الوعى .

وكانوا فى تمام وكامل إرادتهم .

وكانوا فى قمة الانتباه والإدراك واليقظة العقلية .

فكل ما حدث ، وما فعله " السامرى " كان بمثابة الضغط على الزناد لينفجر كل ما فى داخلهم من كفر وفسوق وعصيان ، وما كانوا يخفونه من تمرد وتململ ، وما كانوا يدارونه من دناءة وإنحطاط .

ما حدث – وكان لابد وأن يحدث – فضحههم أمام الله ، وأمام نبيهم، وأمام أنفسهم ، وأمام الإنسانية .

السامرى وعجله كانا يعيشان داخلهم ، أنه تجسيد حى لما كانوا يفكرون فيه ، أنه صورة واقعية لما كانوا يتناجون به فى ضمائرهم ، أنه رغبة كانوا يشتهونها.وإلا لما سقطوا فى

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد التاسع – صفحة (١٣٩)

أسر حب العجل ، كما تسقط الفراشات محترقة فى النار ، إنهم لم يتلبثوا ، لم يترددوا ، وإنما كان هناك إصرار وتعمد ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ [سورة طه:٨٨] . وقالوا بعد أن حاول معهم هارون ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة طه:٩١] لقد اسقط الله عنهم كل الحجب والأقنعة والدهانات حينما قال﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:٩٣]فلم يدخل الإيمان قلوبهم ؛ لأن حبهم للعجل يحول بينهم وبين الإيمان الحق " والإشراب : السقى ، وجعل الشئ شاربا ، واستعمل على وجه التجوز فى خلط لون بآخر كأن أحد اللونين سقى الاخر ، يقال : بياض مشرب بحمرة أى مختلط وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى خالط حبه قلبه .

قال الإمام الرازى : قوله تعالى : (وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ) فى وجه هذه الاستعارة وجهان : الأول : معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب ، وقوله فى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله ﴿...إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ ...﴾ [سورة النساء:١٠] ، الثانى : كما أن الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض ، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الفعال . وفى الجملة الكريمة ((وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ)) مضاف محذوف وهو لفظ (حب) لدلالة المعنى عليه .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود الذين مردوا على العصيان قد خالط حب العجل نفوسهم حتى استقر فى قلوبهم كما يخالط الماء أعماق الجسد . وحذف لفظ الحب من الجملة الكريمة ، يشعر بشدة تعلق قلوبهم بالعجل حتى لكأنهم أشربوا ذاته .

والتعبير بقوله : (وَأُشْرِبُواْ) يشير إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذى لا اختيار لهم فيه كأن غيرهم أشربهم إياه .

وقوله تعالى : ((بِكُفْرِهِمْ)) دليل على أن محبتهم للعجل ناشئة عن كفر سابق وجحود متأصل فكفرهم الذى ترتب على عبادتهم للعجل ، قد سبقه كفر آخر ، فهو كفر على كفر "[1]

- **خيانة الله .**

ما فعله بنو إسرائيل من عبادة العجل يعتبر خيانة عظمى ، بل تعدت ذلك بمراحل ؛ لأنها خيانة فى حق الله ، وفى حق موسى ، لذلك كان ولابد وأن يكون هناك عقاب يتناسب وعظم هذه الجريمة الشنعاء ، وليس من جزاء سوى القتل ، وكان القتل هو الجزاء الأمثل لأمرين :

- الذى أشرب فى قلبه حب العجل ، ليس له من علاج إلا القتل ، فلن تجدى معه أى وسيلة ، أو أى طريقة من الطرق ، كالمريض الميئوس من شفائه .

حينما يعرف أن عقاب تلك الخيانة القتل ، فإن حب الحياة ، مقدم على ما دون سواه ..

---

١ تفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد الأول – صفحة (٢٠٦ و٢٠٧)

فقد يحل حب الحياة مكان حب العجل ، وبـذلك يمكـن الـتخلص مـن هـذا الأمـر الممقوت مـن الله . ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة البقرة:٥٤]" أمر من موسى – عليه السلام – لهم بقتل أنفسهم حتى تكون توبتهم مقبولة ، وهذا الأمر بلغه موسى إياهم عن ربه ، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحى لأنه تشريع من الله – تعالى – والمراد بقتلهم أنفسـهم أن يقتـل من لم يعبد العجل منهم عابديه ، فيكون المعنى : ليقتل بعضـكم بعضـا ، كـما فى قولـه تعـــالى : ﴿... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ...﴾ [سورة النور:٦١] أى فليسلم بعضكم على بعض .

وقيل المراد أن يقتل كل من عبد العجل نفسه قتلا حقيقيا حتى يكفر عـن ردتـه بعبادته لغير الله ، وقد ورد أنهم فعلوا ذلك ، وأن الله – تعالى – رفع عنهم القتل وعفا عمن بقى منهم على قيد الحياة كرما منه وفضلا ،وهذا هومعنى التوبـة فى قولـه تعـالى ((فَتَابَ عَلَيْكُمْ)) ومعنى العفو فى قوله تعالى : فى الآية السـابقة ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة البقرة:٥٢].

وقد ساق ابن كثير وغيره من المفسرين كثيرا من الآثار الى تحدثت عن كيفيـة حصـول هذا القتل ، من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابـن عبـاس أنـه قـال: ((قـال تعـالى لموسى : إن توبة عبدة العجل أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولده فيقتلـه بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى عـلى موسـى وهارون ، ما أطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أمروا بـه فغفـر الله للقاتـل والمقتول))

وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب الزهرى أنه قال : ((لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا ومعهم موسى ، فتضاربوا بالسيوف ، وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه ، حتى إذا فتروا أتاه بعضهم ، فقال له : يا نبى الله ادع الله لنا ، وأخذوا بعضديه يشدون يديه فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدى بعضهم على بعض ، فألقوا السلاح ، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم ، فأوحى الله – جل ثناؤه – إلى موسى ((لا تحزن)) أما من قتل فحى عندى يرزق ، وأما من بقى ، فقد قبلت توبته ، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل "[1]

- **رؤيــة الله .**

من كانت فى نفسه عتامة ، وفى طبعه غلظة ، وفى قلبه قسوة ، وفى خلقه كِبر وعُجب وعناد ، فلا يصلح معه التعلم ، لم يستفد بنو إسرائيل مما مر بهم شيئا، ولم يخرجوا بالعبرة ولا العظة ، وإنما ظلوا كما هم ، وعلى ما هم عليه ، هم لا يصدقون موسى فيما يبلغ عن ربه – **y** – وكأن لسان حالهم يقول : ولم يحدثك الله دوننا عنا ، فليحدثنا نحن كما يحدثك ... بل طلبوا أكثر وأشد من ذلك، طلبوا أن يروا الله عيانا !!

- بم سيرد عليهم موسى ؟
- وبأى قول أو وجه سيقابل الله ؟

أخال أنهم جعلوا موقفه فى غاية الحرج . وأنه لم يجد شيئا يرد به عليهم وتركهم والله يفعل بهم ما يشاء، ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:٥٦]"

---

١ تفسير الوسيط – د . محمد سيد طنطاوى – المجلد الأول – صفحة (١٣٢ و ١٣٣)

فقد روى عن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم أنه قال فى تفسير هذه الاية ((قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا ، فتاب الله عليهم ، فقال لهم موسى : (إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ، ونهيكم الذى نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذ بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول : هذا كتابى فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ؟ !

وقرأ قول الله تعالى ﴿...لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً...﴾ [سورة البقرة:٥٥] ؛ قال : فجاءت غضبة من الله – تعالى – ، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا جميعا . قال : ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة:٥٦] فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا لا ، فقال : أى شئ أصابكم ؟ فقالوا : أصابنا أننا متنا ثم أحيينا . قال : خذوا كتاب الله ، قالوا لا ، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم " [١].

- **طاعة النبى:**

يمر الأنبياء بلحظات فارقة ، ومواقف حاسمة ، تلك اللحظات والمواقف يتحدد على ضوئها كثير من الأمور ، والتى يكون لها إسهام كبير فى تغيير وتبديل وتشكيل مصائر الأمم ، ليس هذا فحسب ، بل يكون لها النصيب الأكبر فى تغيير النهج الذى تسير عليه البشرية .

---

١ المصدر السابق – صفحة (١٣٦)

والنبى جاء ليقوم ويصلح ويهدى ويرشد ويحيى ، أى يعيد تكوين الحياة علـى الأرض وفق الفطرة السوية وعلى نهج المقصد الإلهى لذلك فهو منح وأتيح له مـالم يـتح لبقيـة البشر ، هذه المنح ليس لمجرد التشريف ، ولكنه ليمكنه من أداء المهمة الصـعبة والتـى هى مناطة به دونا عن غيره .

- ومن طبيعة النبوة الطاعة .
- فالله يأمر .
- فيطيع النبى والنبى يبلغ هذا الأمر .
- فيطيع الناس .

ولكن قد يكون من حول النبى ليسوا على مستوى المهمة أو الدور المكلف بـه النبـى ، فالمهمـة أو الـدور يسـتدعى تضـحيات ، وترتقـى وتزيـد التضـحيات إلى أن تكـون تضحيات بالنفس ، حينئذ قد يجد النبى حرجا أو عنتـا أن يـأمر أو يبلـغ هـذا الأمـر . ولكن لا خيار له ، فالأنبياء ليس أماهم إلا طريق واحد ولابد أن يسيروا فيه ، وكل ما يفعله النبى أن يتلطف بمن معه ، لا يكون فظا أو غليظا فى التبليغ أو الأمر يكفـى أن يكون الأمر شديدا على النفس مكروه للقلب ، هذه الشدة ، وهـذه الكراهيـة يخففهـا النبى ويحببها بطريقته ، بأسلوبه الإنسانى العظيم ، حتى تصدر الطاعة المخلصـة ممـن حوله .

- ومع ذلك فقد لا يطاع النبى .
- أنقول فى هذه الحالة أن النبى فشل قصر عجز فرط. ؟

لا .

■ ولكن من حوله هم الفاشلون .المقصرون العاجزون.المفرطون .

لم يخسر النبى شيئا لأنه أدى ما عليه .

■ هم الذين خسروا النبى ؛ لأنهم لم ينهضوا بواجبهم نحوه .

• نبى مطاع

موقف فى غاية الحرج والشدة شعر به رسول الله – ﷺ – بعد هجرته من مكة إلى المدينة ، ومعه المهاجرون ، فمع أن الأنصار لم يدخروا وسعا فى أن يخففوا من آلام المهاجرين ، وضربوا أمثلة عظيمة من آيات الإيثار ، إلا أن النفس فيها شئ من ألم الحاجة والحرمان ، فقد ترك المهاجرون كل شئ من مرافق الحياة والمال وراءهم فى مكة ، مفضلين الإسلام وصحبة الرسول عن الدنيا وما فيها . وهذا الأمر كان يشغل رسول الله – ﷺ – يريد أن يضمد الجراح التى أصيب بها من هاجر ، وهو يفكر فى هذا ، " ترامت الأنباء إلى ((يثرب)) أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة إلى مكة ، تحمل لأهلها الثروة الطائلة ، ألف بعير موقرة بالأموال يقودها ((أبو سفيان بن حرب)) مع رجال لا يزيدون عن ثلاثين أو الأربعين !

إن الضربة التى تنزل بأهل مكة – لو فقدوا هذه الثروة – موجعة حقا ، وفيها عوض كامل لما لحق المسلمين من خسائر فى أثناء هجرتهم الأخيرة ، لذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ((هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها .))

لم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفا ، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة ، ثم سار – بعد– بمن أمكنه الخروج "[1]

إلى هنا والأمر فى غاية اليسر والسهولة ، سيعترض المسلمون قافلة لقريش ، تحوى الكثير والكثير ، وستكون عوضا لما صودر ونهب وجمد واحتجز من أموال المهاجرين فى مكة ، فى وقت المهاجرون فى مسيس الحاجة إلى المال ... والأمر ليس فيه جهد ومشقة ، كل ما سيفعله المسلمون تحويل طريق القافلة من مكة إلى المدينة ،والقوافل التجارية حينئذ – لا سيما إذا كانت لقريش – لم تكن مزودة بقوة مسلحة يخشى من بأسها ، أى أن الأمر بمثابة صفقة مضمونة مائة فى المائة .

ولكن الذى حدث بعد ذلك غير كل التوقعات ، فقد علم قائد القافلة ((أبو سفيان بن حرب)) أن أمرا يبت لقافلته ، فأرسل إلى المكيين يستصرخهم لينقذوا القافلة ، وفى نفس الوقت غير طريقه ونجى من الشرك ، وأرسل إلى الجموع المسلحة التى خرجت وكانت تبلغ تسعمائة وخمسون مقاتلا .

إلا أن الكفار أرادوا أن يستغلوا تلك الفرصة ، ولا يضيع خروجهم المسلح بدون فائدة ، فأصروا أن يردوا ((بدرا)) ويمكثون هناك ثلاثا يأكلون ويشربون ويسكرون ، ليشيع بين العرب أن المسلمين جبنوا عن ملاقاتهم والتصدى لهم ، بعدما فشلوا فى الحصول على القافلة . وقال أبو جهل : ((والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم ثلاثا ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب ، وبسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا))

---

١ فقه السيرة – محمد الغزالى – صفحة (٢٣٤)

وهذا ما كان يحذره رسول الله – ﷺ – . فإن تلك الحملة وأثرها المعنوى سيكون لها أثر سيئ على الدعوة الناشئة فى بداية أمرها لذلك قرر أن يواجه تلك الحملة المسلحة بالسيف .

ولكن كيف يبلغ الرسول هذا الأمر ، إن النفوس كانت مهيئة ومعدة لأن تستولى على قافلة تجارية ، غنيمة سهلة سائغة ، فإذا بالرسول يريد أن يفاجئهم بصدام مسلح مع قوة شرسة طاغية ، فكما قال الرسول لأصحابه بعد أن عرف من فى تلك الحملة من صناديد قريش : ((هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها)) .

هل لو صارح الرسول المسلمين بالأمر يقبلون ويوافقون على الحرب ؟

قد يقبلون .

وقد يرفضون .

ولكن إذا رفضوا ... ماذا سيكون موقفه بعد ذلك ؟

وهل إذا أمر يكون أمامهم خيار من الرفض أو القبول ؟

إنه تضحية بالنفس .

الأمر خرج عن نطاق إطاعة أمر أو عصيانه .

وكذلك خرج عن نطاق الشجاعة والقدرة على التضحية بالنفس أو الضن بها .

الأمر دخل فى نطاق قبول هذا الدين جملة أو رفضه جملة .

إنها لحظة فارقة .

إنه موقف حاسم . ولابد أن يكون هنا رأى حازم .

إما أن ترتدى العباءة ليمتزج نسيجها بنسيج كيانك وخلاياك ، وإما أن تلقيها وتفارقها إلى غير رجعة .

هذا هو أمر الدين .

هذا هو أمر العقيدة .

لا تردد لا تراجع لا تريث لا تأنى .

وإنما حزم وتقدم وإسراع وتعجل .

وهذا ما حدث .

" استشار رسول الله – ﷺ – الناس فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يار سول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ،وولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له الرسول – ﷺ خيرا ، ودعا له .

ثم قال : ((أشيروا على أيها الناس – وإنما يريد الأنصار – وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يار سول الله إنا من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت فى ذمتنا منعك مما نمنع ابناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله – ﷺ – يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة .

فلما قال ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟

قال : أجل .

فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

وفى رواية : لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره فانظر الذى أحدث الله إليك فامض ، فصل حبال من شئت ، وعاد من شئت وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت .
فسر رسول الله – ﷺ – بقول ((سعد)) ونشطه ثم قال سيروا وأبشروا، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . "[1]

هنا نبى ، بكل جلاله وعظمته وكبريائه ونبله وشرفه وكرمه يأمر فيطاع طاعة مطلقة ... بلا حدود ،وبدون تحفظ .
لقد منحه قومه كامل التفويض كل الصلاحيات ، توكيل للتصرف فى كل كبيرة وصغيرة ، وهم وراءه ، حتى لو سلك بهم المهالك والمعاطب ، فهم مندفعون وراءه .

١ فقه السيرة – محمد الغزالى – صفحة (١٣٩ وما بعدها)

• نبى خسره قومه

هذا الموقف الذى حدث بين موسى وقومه كان نهاية المطاف ، نهاية طريق بدأه موسى مع قومه ، وقد بذل فيه كل ما يمكن وأقصى ما يمكن أن يبذله نبى فى سبيل إصلاح قومه وهدايتهم.

كان أكبر إبتلاء لهذا النبى العظيم النبيل هم قومه ، وقد صبرعليهم صبرا جميلا ، وحاول معهم محاولات اتسمت من جانبه بالرقى والسمو والصدق والاخلاص والحب ، وكان الرد من جانبهم متصفا بالدناءة والانحطاط والبذاءة والغلظة .

وكأنى بموسى يداخله إحساس بالاحباط والحزن والحسرة ، فهاهى محاولاته وجهاده وكفاحه يضيع سدى وبدون جدوى ، ولكن هذا الإحساس يتبدد ويحل محله إحساس يالقناعة والراحة والاطمئنان ، لأنه فعل كل ما فعله اتساقا مع شخصيته الشريفة ، وطبعه النبيل ، والأهم الفوز برضا الله ، فإذا حقق هذين الهدفين ، فحسبه ذلك

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة المائدة:٢٦]

بداية ، كلام موسى يشى وينبئ أنه يعرف موقفهم مقدما ، أنهم لن يطيعوه وسيتمردوا ويتقاعسوا ويتخاذلوا ، فقد عصوا وتمردوا على أمور أهون وأيسر من ذلك ، فما بالك وهو يطالبهم بالجهاد والقتال؟! لذلك حاول ما وسعه الجهد أن يبث فيهم روح النخوة والشرف والنبل ، فقد رفعهم الله إلى مكانة علا ، وأنعم عليهم بنعم كثيرة .. فيجب أن يبرهنوا أنهم أهل لذلك ، ويستحقون تلك المنن ، وهو يحاول – وقد حاول كثيرا من قبل – لعلهم فى هذه المرة يخلفون ظنه ، ولو قال موسى هذا الكلام بالأسلوب والطريقة

والوعد والوعيد لجهاد لتأثر به فبعد ما حدث منهم فى المرات السابقة ، مازال حريصا عليهم ، يشعر بالانتماء لهم (يَٰقَوۡمِ) ، ثم يذكرهم بنعم الله عليهم – وكأنهم نسوا – وجعل فيهم أنبياء وأغناهم وأعطاهم كما لم يعط أحدا فى العالمين ، (يَٰقَوۡمِ) لاحظ هذا التكرار ، وما يدل عليه من شخصية موسى النبيلة ... إنه وصل به الأمر إلى أن يتضرع لهم ، يرجوهم ، يستعطف ، لأنه حريص عليهم ، عزيز عليه إلا يطيعوا أمر الله .

المطلوب : ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله عليكم .

لو كان أحد غير بنى إسرائيل لأعتبروا هذا الأمر بشرى ووعد بالنصر والظفر ، لأنهم سائرون وراء نبى ، وقد رأوا بأم أعينهم ، كيف نصر الله نبيه ، ونصرهم معه فهى أرض ومقدسة وقد وعدهم الله بها .

ومع كل هذا يشعر أن نفوسهم لم ترتق ،ولم تسم لرقى الهدف وسمو المقصد ، يلمح هذا فى وجوههم المكفهرة ، وشفاههم المرتعشة ، يعرف هذا من حركات أجسادهم المتخاذلة المتململة ، يسمع هذا من همهماتهم وكلماتهم المشتتة المتفرقة ، لا ليسوا بقوم دعاهم نبيهم إلى الجهاد المقدس ، لم يسمع صيحات الحماس ، ولا قعقة السلاح ، لم يشعر بالأيادى تمتد إليه مؤيدة مساندة وإنما يرى أمامه خشب مسندة ، عيون جاحظة ، أنطفأ منها بريق الحيوية ، وكأنهم مساقون إلى الموت، لم يصلح معهم التلطف والوعد والتبشير . آخر شئ فى جعبة موسى التحذير والتهديد والوعيد ، لعله يؤثر فى هذا الجماد المتراص حوله ، (لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ) . وهذا ما حدث بالضبط منهم ، وكأن موسى يرى من سجف الغيب ، أو كأنه يعرف ما توسوس به نفوسهم والضمائر .

ولكن ما حكاية تلك الأرض المقدسة التى أمروا أن يدخلوها ؟

" إن بنى إسرائيل بعد أن ساروا مع نبيهم موسى – عليه السلام – إلى بلاد الشام ، عقب غرق فرعون أمام أعينهم . أوحى الله – تعالى – إلى موسى أن يختار من قومه اثنى عشر نقيبا ، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التى يسكنها الكنعانيون حينئذ ليتحسسوا أحوال سكانها وليعرفوا شيئا من أخبارهم ؛وقد أشار القرآن قبل ذلك إلى هذه القصة بقوله : (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) .

ولقد نفذ موسى – عليه السلام – ما أمره به ربه – سبحانه – وكان مما قاله موسى للنقباء عن إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة : ((لا تخبروا أحدا سواى عما ترونه))

.

فلما دخل النقباء الأرض المقدسة ، واطلعوا على أحوال سكانها . وجدوا منهم قوة عظيمة وأجساما ضخمة ... فعاد النقباء إلى موسى وقالوا له – وهو فى جماعة من بنى إسرائيل - : قد جئنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها ، فإذا هى فى الحقيقة تدر لبنا وعسلا ، وهذا شئ من ثمارها غير أن الساكنين فيها أقوياء ، ومدينتهم حصينة . وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال ، إلا اثنين منهم، فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى – عليه السلام – وبقتال الكنعانيين معه ، لكن بنى إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين ، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة وأصروا على عدم الجهاد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء

وقالوا : يا ليتنا متنا فى مصر أو فى هذه البرية . وحاول موسى – عليه السلام – أن يصدهم عما ترددوا فيه من جبن وعصيان وأن يحملهم على قتال الجبارين ، ولكنهم عموا وصموا .

وأوحى الله – تعالى – إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم "[1]

نلاحظ من الآيات أن موسى لم يجادلهم بعد ذلك ولم يحاورهم ، وإنما الذى تولى الجدال والحوار ومحاولة الاقناع هما الرجلان ... وكأن موسى قد وصل إلى قناعة تامة أنهم لا جدوى منهم ولا جدوى فى أى محاولة للإقناع ، لأنه استنفد كل ما لديه من ترغيب وترهيب وتحذير ووعيد . وما قاله الرجلان يدل على أن أمر دخول الأرض المقدسة لم يكن رأى موسى فقط ولكن كان رأى النقيبين أيضا .

الجبن صفة مذمومة لا شك فى هذا ، ولكن ما حيلة الجبان إذا كان لا يملك لتلك الصفة تغييرا أو تحويلا .

أما أن يجتمع مع الجبن الوقاحة وسوء الأدب وعدم التقدير لما يقال فهذا أمر شنيع ، فالمنطقى والعقلى أن يقولوا : نحن لسنا أهل للمواجهة والجهاد والحرب ، لذلك فلن نقاتل ولن ندخل الأرض ، ونحن دون ما تظن ولا نستحق ما أنعم به الله علينا هم أحرار فى هذاوأظن أن موسى لن يلومهم ولا أحد يلومهم .

---

١ التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوى (١٠٢ و ١٠٣)

ولكن أن يصل بهم الأمر أن يقولوا لنبى الله : (اذهب أنت وربك فقاتلا إن هاهنا قاعدون) . فهذا إفتراء وتعدى لكل حدود اللياقة والأدب ليس هذا فحسب ولكنهم أجرموا فى حق موسى وحق الله . إنهم فقدوا كل صفات الآدمية لا شك أنهم قد جنوا. فقدوا عقولهم ، ذابت نخوتهم ، تبددت حميتهم ، لقد نسوا أنهم يخاطبون نبى يبلغهم أمر من الله .

حيئذ اتجه موسى إلى الله متبرأ متنصلا مفارقا لهم ، ونفسه مفعمة بالحزن والحسرة والخيبة والألم والغم ، متضرعا داعيا باكيا إلى الله قائلا : ليس لى كلمة عليهم ، لا أمر لى

مطاع عندهم ، إنهم ليسوا بقومى ، وأنا لا أملك إلا نفسى وأخى ، كل ما خرجت به بعد هذا الجهاد الشاق والكفاح المضنى . ويارب أريد حكمك الآن وفورا بينى وبين هؤلاء المجرمين الفاسقين الظالمين .

ونزل عقاب الله ، فإنها محرمة عليهم لا يدخلونها ليس هذا فحسب ، بل ويظلون تائهين فى الصحراء أربعين سنة أمة معلقة فى الهواء . أمة قد تجمد وتحجر وجودها ، أمة بكاملها سجنت فى الصحراء أربعين سنة ، لا تفعل شيئا سوى أن تمضغ ثمار الندم المر ، تشاهد كل ليلة أشباح اللعنة تقض مضجعها، وتشعر مع كل نهار بسياط الغم والألم تمزق ضميرها ووجدانها ، أربعين سنة لا فرق بينها وبين صخور الجبال التى تحيط بها من كل حدب وصوب ، أربعين سنة فى كهوف الرزيلة المظلمة ، وفى مستنقعات العصيان الموحلة .

ياليته كان موتا . وياليتها لم تكن حياة .

- **أمة فاشلة . أمة خاسرة .**

لقد فشلت تلك الأمة وكان فى إمكانها أن تنجح وبتفوق .

لقد خسرت تلك الأمة وكان فى إمكانها أن تفوز فوزا عظيما .

لو قيض الله لها رجلين مثل ((المقداد بن عمرو)) و((سعد بن معاذ)) اللذين أيدا الرسول تأييدا عظيما لقتال المشركين يوم بدر استغفر الله لقد ظهر رجلان بالفعل وقالا ونصحا ولكن هل يجدى نصح رجلين قوما لم ينتفعوا بنصح نبى الله .

لقد توافر لهم كل الأسباب لتكون أمة عظيمة ، وأهم تلك الأسباب نبى عظيم ورسول نبيل ، مثل موسى ، ولكن على ما يبدو أن السنوات التى قضوها تحت حكم المصريين

طمست كل معالم وميزات الآدمية فيهم ، " إن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستبداد ، وتساس بالظلم والاضطهاد تفسد أخلاقها ، وتذل نفوسها ، ويذهب بأسها ، وتضرب عليها الذلة والمسكنة ، وتألف الخضوع ، وتأنس بالمهانة والخنوع ، وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة ، حتى تكون كالغرائز الفطرية ، والطبائع الخلقية ، إذا أخرجت صاحبها من بيئتها ، ورفعت عن رقبته نيرها ، ألفيته ينزع بطبعه إليها ، وينفلت منك ليقتحم فيها ، وهذا شأن البشر فى كل ما يألفونه من خير وشر ، وإيمان وكفر ، وقد ضرب النبى – ﷺ – مثلا لهدايته وضلال الراسخين فى الكفر من أمة الدعوة فقال : ((مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما

حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النارل يقعن فيهـا ، ويجعـل يحجـزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجـزكم عـن النـار وأنـتم تقحمـون فيهـا)) رواه الشيخان .

أفسد ظلم الفراعنة فطرة بنى إسرائيل فى مصر ، وطبع عليها طابع المهانة والـذل وقـد أراهم الله تعالى ما لم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصـدق رسـوله موسى عليه السلام ، وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذل والعبودية والعـذاب إلى الحرية والاستقلال والعز والنعيم ،وكانوا على هذا كله إذا أصابهم نصب أو جوع ، أو كلفوا أمرا يشق عليهم يتطيرون بموسى ويتململون منه ويذكرون مصر ويحنون إلى العودة إليها ، ولما غاب عنهم أياما لمناجاة ربه اتخذوا لهم عجلا من حليهم الـذى هـو أحب شئ إليهم وعبدوه ! لما رسخ فى نفوسهم من إكبار سادتهم من المصريين وإعظام معبودهم العجل (أبيس) وكان الله تعالى يعلم أنهم لا تطيعهم نفوسـهم المهينـة عـلى دخول أرض الجبارين وإن وعده تعالى لأجدادهم إنما يتم على وفق سنته فى طبيعة الاجتماع البشرى ، إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية والعبودية للبشرـ وفسـاد الأخلاق ، ونشأ بعده جيل جديد فى حرية البداوة وعدل الشريعة ونور الآيات الإلهية ، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم ، حتى يبين لهم حجته عليهم ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم ، وعلى هذه السنة العادلة أمر الله تعـالى بنـى إسرائيـل بـدخول الرض المقدسة ، بعد أن أراهم عجائـب تأييـده لرسـوله علـيهم ، فـأبوا واسـتكبروا فأخذهم الله تعالى بذنوبهم وأعمالهم ، جعلهم الأئمة الوارثين "[1]

---

١ تفسير المنار – الشيخ محمد رشيد رضا – الجزء السادس صفحة (٣٣٧ و ٣٣٨)

• النبى الحزين .

الإنسان لا ينسى ولكنه يتناسى .

والنبى لا ينسى ولكنه يصفح عمن أساء إليه صفحا جميلا ؛ وذلك لأن شخصيته من الجمال والنبل والشرف ما تجعل كل تصرفاته وأفعاله متصفة بالجمال والنبل والشرف .

هو يصفح صفحا جميلا ، ولكنه لا ينسى الإساءة من الآخرين ؛ لأنه لا مبرر ولا مسوغ لها ، لأنه لم يسئ لأحد ، بل يريد النفع والهداية والارشاد للآخرين ، ويبذل فى ذلك مهجة قلبه ، وأقصى ما يتوقعه النبى من الآخرين أن يقبلوا أو يرفضوا ما يعرضه عليهم ، لهم مطلق الحرية فى ذلك ، ولا سلطان للنبى على الآخرين ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الغاشية:٢٢]ولهم أن يختاروا ما يشاءون ، شريطة أن يتحملوا وزر تلك الحرية وعبء تلك المسئولية ، أما أن يتصاعد الرفض والإعراض إلى الإساءة والإيذاء للنبى فإظن هذا ما لا ينساه النبى .

ففى كل المواقف التى تعرض لها موسى ، أو عرض بنو إسرائيل لها موسى ، تركت أثارا وندوبا فى شخصية موسى لا تمحى ؛ لأنها كانت مواقف فى غاية السوء ، وبلغت القمة فى الجهل والفحش والبذاءة ، ليس فى حقه فقط كإنسان ، وليس فى حقه فقط كنبى ، ولكن فى حق الله أيضا .

نعم كانت كل المواقف منهم تترك أثارا ، وتتراكم تلك الأثار وتكون رواسب فى شخصية موسى لتدفعه لأن يأخذ مواقف حاسمة وحازمة منهم ، وهذا ما يمليه المنطق والعقل ، ولكن لا المنطق ولا العقل هما اللذان كانا يحددان تصرفات وأفعال موسى ولكن الذى كان يحدد تلك الأفعال والتصرفات هى روح النبوة ، التى كانت

تتملكه وتملى عليه ليس الأفعال فحسب بل المشاعر والأحاسيس .

وربما هذا الذى غر بنى إسرائيل أن يتمادوا ، وكان الواجب أن يقصروا .

وربما هذا الذى دفع بنى إسرائيل أن يتجاوزوا ، وكان الواجب أن يتوقفوا .

وربما هذا الذى حض بنى إسرائيل على أن يعتدوا وكان الواجب أن يلتزموا .

مع أن تلك الروح التى كانت تتملك موسى لم تمنعه أن يعنف بهم ، ولم تردعه أن يغلظ عليهم ، ولم تحل بينه وبينهم أن يشتد بهم ، ولكن فى النهاية كان عنف وغلظة وشدة صادرة من نبى ، استدعتها وحتمتها وألزمتها مواقفهم البشعة المخجلة .

ولا نستطيع أن نقول إن موسى لم يكن لينا معهم ، بل وصل إلى أقصى ـ آماد اللين والرفق

ولا نستطيع أن نقول إن موسى لم يكن قاسيا وشديدا بل وصل إلى درجات بعيدة من القسوة والشدة .

ولكن للأسف لم يجد اللين والرفق .

وكذلك لم تنفع القسوة والشدة .

وحينما لا ينفع هذان الأمران ، فأنت مع قوم بور ، استعصوا على الصلاح، وفقدت – معهم – كل أساليب الهداية وأدوات الرشاد معناها وتأثيرها ولكن لم يكتشف هذا الأمر إلا فى نهاية الطريق .

لا شك إن المرارة والحزن والأسى وصلوا إلى قاع شخصية موسى .

بعدما صهرت الأحداث شخصيته ، فتألقت .

وبعدما صقلت المواقف شخصيته ، فأضاءت .

وبعدما محصت الشدائد شخصيته فصفت .

وفى النهاية - لم يغضب موسى -وهو الغضوب .

وفى النهاية - لم يثر موسى .-وهو الثائر .

وفى النهاية لم يستقو موسى وهوالقوى .

لم يعد موسى كما كان من قبل ، تتنزى فى عروقه الحمية والاندفاع إلى الدرجة أن يدعو على فرعون وملائـه﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة يونس:٨٨]وكان من الممكن أن يـدعو عـلى قومه بمثل هذا الدعاء ، أو أقل أو أشد ، ولكن لحسن حظهم لم يكن موسى فى الحالـة التى تدعوه لمثل هذا ، فقد فوض كل أمره إلى الله، شعر أن الله هو الذى سيضمد كـل جروحه النفسية ، أن الله هو الذى سيشفى كل تلك الندوب الغائرة فى كيانـه ، أن الله هو الذى سيمحى ويبدد تلك المرارة والحزن ويخفف الألم .

وكأنى بموسى قد تركهم وراء ظهره مبتعدا عنهم ، ورفع يديه عاليـا إلى الله ، متجهـا إليه بكل كيانه ، داعيا بصوت صاعد من أعـماق ضـميره: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة:٢٥]

لم يقل فاحكم ولم يقل فاقض وإنما قال فافرق .

ولم يقل قومى ولم يقل القوم وإنما قال القوم الفاسقين .

فافرق ، تتضمن معنى الحكم وزيادة ، تتضمن معنى القضاء وزيادة ، تتضـمن معنـى الفصل وزيادة ، تتضمن معنى الفراق وزيادة تتضمن معنى البعاد وزيادة .

تتضمن وتشتمل على كل ما فى نفس موسى ورغبته أن لا يرى هؤلاء القوم إلا تقع عيناه عليهم بعد ذلك ، إلا يحدثهم ، ألا يكلمهم .. الا يجمعهم به زمان أو مكان .

رغبة نبى عظيم .

أمنية نبى جليل .

وجاء حكم الله ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة المائدة:٢٦]

وبعد كل هذا .

ومع كل هذا .

موسى حزين .

حزين عليهم ، وتمتد رعاية الله وعطفه وحدبه لتواسيه ، لتخفف عنه ، ما يجد من حسرة وألم (فلا تأس على القوم الفاسقين) .

لأنه كان يأمل ويتمنى أن يدخل بهم الأرض المقدسة ، يعطيهم مكانتهم ، يبوأهم منزلتهم ، فقد أخرجهم من مصر خصيصا لهذا الأمر ، يريد أن يوفر لهم حياة كريمة ، كى يعبدوا الله ، وينشروا التوحيد فى جميع بقاع العالم ، ولا يكرهون على شئ ، لا يستذلون كما كانوا فى مصر . تلك أمنية مقدسة لنبى ، والأمانى المقدسة لا تتحقق إلا بالجهاد والتضحية بالنفس ، وهذا ما لم يقدر عليه بنو إسرائيل ، وهذا ما عجز عنه بنو إسرائيل .

ومات هارون .

ومات موسى بدون أن تتحقق الأمنية.

ومات موسى بدون أن يدخل الأرض المقدسة بقومه .

وظل بنو إسرائيل يعيشون فى التيه .

ويعيش التيه داخلهم إلى الآن !!

الفصل الرابع عشر
المأزق التاريخى لبنى إسرائيل

ما كان الله ليضيع جهاد وكفاح موسى، ومن قبله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام .

لقد شاءت إرادة الله أن تكون تلك الكوكبة المباركة من الرسل والأنبياء ، وتلك الزمرة المطهرة الميمونة أن تتواتر فى أمة بنى إسرائيل . فإن كانت لتلك الأمة مكانة فبسبب هؤلاء المكرمين النبلاء فهم حملة وحفظة تراث التوحيد للإنسانية ، وعزة العبودية لله الواحد القهار . بغير هؤلاء وما يرمزون إليه وما جسدوه ، بنو إسرائيل لا قيمة ولا شأن لهم ، بغير هؤلاء كان بنو إسرائيل أمة من الأمم التى عاشت زمنا ما فى مكان ما ، ثم بادت وأندثرت كما بادت وأندثرت كثيرا من الأمم ، ولم يعد لها ذكر أو أثر .

وقد جاء موسى ليبث الحيوية فيما ترك هؤلاء الأنبياء بعد أن أوشك أن يضعف ويتبدد .

جاء موسى ليعيد وصل ما انقطع .

جاء موسى ليقوى هذا الحبل المتين بعد أن وهن وكاد أن ينقض أنكاثا .

جاء موسى ليجدد دين إبائه وأجداده .

جاء ليهيئ فرصة لبنى إسرائيل ومكانا مقدسا مباركا لنشر دين التوحيد على الإنسانية

حرث موسى الأرض وهيأها وبذر البذور ورعاها ، وانتظر ، وصبر صبرا جميلا ، ولكن لأمر ما لم تخرج الثمرة ، عوامل كثيرة منعت الثمرة أن تخرج فى الوقت المحدد لها ، حجب كثيفة حجبتها عن الظهور .

وقف بنو إسرائيل دون تحقيق مشروع موسى ، وأن يدخلوا تحت راية النبوة وخلف رسولهم الأرض المقدسة .

ولكن لم فعلوا ذلك ؟

ربما يكون كل ما ارتكبوه من أفعال وتصرفات راجع إلى تلك الضغوطات والأوضاع التى فرضت عليهم فرضا ، فمحت وطمست الكثير من سمات شخصيتهم ، أو ما يجب أن تتصف به الشخصية الإنسانية مثل الأنفة والكبرياء والعزة والرغبة فى السمو والارتقاء ، ونستطيع أن نقول إن الشخصية الإسرائيلية قضى عليها فى خلال المدة التى قضتها فى مصر .

وحاول موسى الكثير مع تلك الشخصية ، ولكن على ما يبدو إن المدة التى قضوها فى مصر كان أثرها أكبر من أثر موسى على تلك الشخصية ، أو إن الشخصية فقدت تلك المقومات والدعائم الأساسية التى يمكن أن يعتمد عليها فى البناء أو التقويم .

من أجل هذا كان الحكم بأن يتيهوا أربعين سنة فى الصحراء ، وقد قال المفسرون والباحثون إن أربعين سنة هى المدة التى يستغرقها انتهاء جيل وبداية جيل آخر ، " والعلماء يقررون أن حضانة العلم بعد خمس عشرة سنة ، فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة ، فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجنى الثمرة إلا بعد أربعين سنة حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد ،

وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية ،وهكذا كان حال بنى إسرائيل فإن الجيل الذى ولد فى الذل وكبر حتى مرن عليه هلك فى البرية ، وجاء الجيل الذى كان صغيرا أيام عبوديتهم فى مصر ، والذى نشأ أو ولد فى البرية فى الحرية والعزة فلم يبال بأولئك الناس ودخل عليهم بلادهم مع يوشع بن نون فتى موسى فملكها ، وهنا لطيقة أريد التنبيه عليها : وهى أن يوقف عند قوله (أنها محرمة عليهم) ويبدأ بقوله تعالى (أربعين سنة يتيهون فى الأرض)

لأنها حرمت عليهم تحريما أبديا لا تحريما مقيدا بأربعين سنة ، وذلك أن الرجال الصالحين للحرب الذين عصوا أمر موسى وقالوا (اذهب أنت وربك فقاتلا) ماتوا فى البرية أثناء السنين الأربعين ، ولم يدخل أحد منهم إلى أرض الموعد . فكانت محرمة عليهم باطلاق " [1]

فبنو إسرائيل كانوا صنفين :

- **الأول** : الشيوخ والرجال ، ولا شك أن هؤلاء أخذوا موقفا معاندا ومتعنتا لما يقوله ويريده موسى ، وعارضوا كل مشاريعه التى تهدف إلى تغيير حياتهم والارتقاء بها ، إما بسبب حقد البعض وغيرته على مكانته ومنزلته بين قومه ، فقد جاء موسى ليكون القائد والزعيم ، ناهيك عن النبى والرسول . وإما بسبب جمود وتحجر فكر البعض فلا يستطيعون أن يتوافقوا ويتواءموا مع ما يأتى به موسى من جديد ومستحدث من شأنه أن يغير ويبدل ما تعودوا عليه وما ألفوه وما تربوا عليه سواء فيما يخص العادات الاجتماعية ، أو العقائد والعبادات - **الثانى** : وهم الشباب والفتية

---

١ قصص الأنبياء - د . عبد الوهاب النجار - صفحة (٢٢٨)

وهؤلاء من شأنهم الانتصار لكل ما هو جديد ومستحدث ، من ناحية أن ليس لديهم مرجعية قوية أو صلبة تجعلهم يرفضون ما يعرض عليهم ، ليس لديهم تراكمات عقائدية أو فكرية ، وليس هناك ما يتمسكون به تمسكا جامدا يجعلهم يعارضون أو يصادمون ما يجدونه ذات يوم أمامهم ، ومن ناحية أخرى لديهم من الحيوية والمرونة والقدرة والرغبة أن يستقبلوا كل شئ ويجربوا كل شئ ، ويناقشوا ويتحاوروا ويجادلوا ، أى أن نوافذهم وأبوابهم مفتوحة على مصراعيها .

لذلك نستطيع أن نقول أنه كان هناك فى بنى إسرائيل قطاعات من الشباب ، إن لم تؤيد وتناصر ما يقول به موسى إلا أنها لم تعارضه ، وإن لم تعلن موافقتها إلا أنها لم تصرح برفضها . ولكن مجتمع بنى إسرائيل – شأن أى مجتمع فى تلك الفترة – يسيطر عليه الشيوخ ويصبغون المجتمع بصبغتهم ويهيمنون على مقدرات ومقاليد المجتمع ، لذلك فكانوا لا يسمحون أو طبيعة المجتمع لا تسمح أن يكون لهؤلاء الشباب أى تأثير فى المجتمع .

ولكن تلك القطاعات من الشباب وما ترغب فيه ، وما تميل إليه لم تكن تخفى على موسى ، وربما استمراره وحماسته ودأبه وإصراره غير المسبوق مع قومه رغم ما ظهر منهم من معارضة وتعنت وتشدد ، مرتبط بوجود هؤلاء يعلم تمام العلم أن كل ما يفعله ويقوله له تأثير وصدى واستجابه من هؤلاء ، يلمح هذا فى ملامح وجوههم ، ونظرات عيونهم ، وتحركاتهم ، ولكنه يعلم أنهم مغلبون على أمرهم ، وإن كان هذا الأمر لن يستمر .

ولأمر ما كان الذى صحب موسى فى رحلته فتى (قال لفتاه) ، ولأمر ما شاهد هذا الفتى ما حدث من الحوت من عجب ، بينما موسى كان نائما لم يشهد شيئا .

إذن هذا المجتمع كان محاطا بطبقة سميكة متعنتة من عناد الشيوخ ، مفروض عليه سياج وحصار من جمود وتحجر هؤلاء ، ومدة الأربعين سنة فى رأى البعض – بمثابة فرصة للتنقية والغربلة وإفراز خير ما فى المجتمع ، وفى خلالها تزول تلك الطبقة ، ويزول معها التحجر والجمود والتعنت ، وينشأ جيل آخر لم يخضع للضغوط والمؤثرات التى خضع لها الأباء والأجداد ، " لقد فسر هؤلاء المفكرون التيه اليهودى فى الصحراء بعد خروج

بنى إسرائيل من مصر على أنه التطبيق الربانى لنظرية الاختيار الطبيعى ، وبذلك لا يكون التيه عقابا لليهود على ضلالهم وفسادهم الإخلاقى ،وإنما يصبح محاولة من جانب الرب للقضاء على الضعيف من بينهم ، حتى لا يدخل أرض كنعان : ((لقد كان اليهودى فى الصحراء فى حالة الميت الحى . إن الصحراء هى مكان الموت وفى مكان الموت هذا يحدث التجدد الروحى ، والصحراء أيضا هى مكان طاهر غير موجود ، وهناك يقوم الشعب باستعداداته من أجل الذهاب إلى البلاد ، والرب يطلب استعدادات دقيقة بالفعل . إن الدخول إلى البلاد هو دخول ذو مغزى كبير ، إنه ليس احتلالا ماديا فقط فقط للبلاد بواسطة شعب جوال ، بل هو احتلال ذو مغزى روحى . ووعد الشعب بالبلاد مقرون بشروط خطيرة لأن القوة بمفردها لن تضمن سيطرته عليها إن الشعب يستطيع أن يصمد فى البلاد فقط إذا ما أطاع صوت الرب

وأقام شرائعه . وإذا لم يفعل – فإنه سيتحمل عقوبات شديدة زروتها الطرد من البلاد "[1]

- **الحياة فى التيه :**

أربعون عاما تائهون ضالون متحيرون ، لا يجدون سبيلا ولا طريقا للخروج من هذا المأزق .

ولا نستطيع أن نتخيل مدى قسوة الحياة المادية فى تلك الأرض ، رجال وشيوخ وشباب وفتية وأطفال ونساء ، وكذلك المشقة النفسية ، ومشاعر الندم والحزن والحسرة والألم والتى لا مهرب ولا مفر منها ؟، إنها لم تكن متاهة فى الأرض بقدر ما كانت متاهة للنفس والروح والضمير .

" ومعنى (يتيهون فى الأرض) يسيرون فيها متحيرون لا يهتدون طريقا ، والتيه : المفازة التى يتاه فيها ، روى أنهم لبثوا لأربعين سنة فى ستة فراسخ يسيرون كل يوم جادين حتى إذا سئموا وأمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه ،وكان الغمام يظللهم من حر الشمس ويطلع لهم عمود من نور بالليل يضئ لهم وينزل عليهم المن والسلوى ولا تطول شعورهم ، وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله ، فإن قلت : فلم كان ينعم عليهم بتظليل الغمام وغيره وهم معاقبون ؟

---

١ الشخصية اليهودية الإسرائلية والروح العدوانية – د . رشاد عبد الله الشامى – صفحة (١٤٠)

قلت : كما ينزل بعض النوازل على العصاة عركا لهم وعليهم مع ذلك النعمة متظاهرة ، ومثل الوالد المشفق يضرب ولده ويؤذيه ليتأدب ولا يقطع عنه معروفه وإحسانه "[١]

نعم ، لا نستطيع أن نتخيل مدى قسوة الحياة الحياة المادية ، ولا مبلغ تلك الشدة والمحنة النفسية التى كانوا يعانونها .

ولكننا نستطيع أن نتخيل أو نستنتج أو نقدر أثر تلك الحياة والمعاناة على الشخصية الإسرائيلية ، فقد كان هذا الزمان وهذا المكان بمثابة بوتقة أو شرنقة تكونت خلالها الشخصية ، والظروف التى تعرضت لها نادرة وغريبة وعجيبة ، لذلك ليس من المستغرب أن تتسم تلك الشخصية بتلك الظروف .

- ما تعرضت له تلك الأمة أو الجماعة لم تتعرض له أمة من قبل ولا من بعد ، لذلك فتلك الأمة لا مثيل لها ولا نظير ، وليس الأمر هنا مدحا أو ذما بقدر ما هو وصف هذا التفرد أو الندرة خلق ما يشبه العزلة ، فلا هم يفهمون الآخرين ، ولا الآخرون يفهمونهم، ليس هناك جسور بينهم والآخرين ، لأن تلك الجسور تصنعها أو

- توجدها الظروف المشتركة ، المؤثرات المتشابهة التقارب النفسى ، التجاور الفكرى أو العقائدى .

- النمطية ، العيش فى مكان واحد ، ولا سيما إذا كان هذا المكان فقيرا فى كل شئ ، فظا فى ملامحه ، غليظا فى تضاريسه ، مع عدم الاختلاط الاجبارى بالآخرين ، ويتم

---

١ تفسير الكشاف – المجلد الأول – صفحة (٦٠٦)

- هذا خلال مدة تبلغ الأربعين عاما ، هـذا مـن شـأنه أن يخلـق نمطيـة فى الشـكل الخارجى فى الجسم ، كذلك نمطية فى التفكير والشعور. نعم يوجد جماعـات إنسـانية تعرضت لما تعرض له بنى إسرائيل ، ولكن ليست بالشدة والقسوة والإجبار الخارجى والداخلى التى كانت عليه المؤثرات هنا .

- الاستعلاء ، قد يفهم وقد يبرر إذا كان له ركيزة يستند عليها من ثراء مادى أوتقدم حضارى ، أو تراث أدبى وفكرى ، أو ذخر عقائدى ، أو تفوق مـن أى نـوع ، مـع أن توافر كل هذا لا ينبغى أن يعطى الحق للإنسان أن يستعلى عـلى الآخـرين ، ولكـن أن يكون الاستعلاء دافعه الانحطاط والدناءة ومسوغه غضب الله ونقمتـه فهـذا يـدعو للعجب ، ولكن يزول عجبنا إن عرفنا أن هناك شـيئا مركـوز فى الطبيعـة الإنسـانية ، فلكى تحافظ النفس على كيانها فإنها تقوم بعملية تعويض ، فـإذا كانـت فقـيرة ، فإنهـا تتصرف تصرف الغنى ، وإن كانت جبانة فإنها تسـلك سـلوك الشـجاع ، وإذا كانـت مغضوبا عليها من الله ، فإنها تدعى أنهـا مختـارة مـن الله ، وصـاحبة امتيـازات ربانيـة ،والتيه أصبح رعاية وحفظ واهتمام من الله ، بتلك الأمة دونا عن غيرها مـن الأمـم ، وكل هذا ليس من الحقيقة فى شئ وإنما يستند عـلى الخيـال والأسـطورة التـى قويـت بمرور الوقت حتى توهم الناس أنها حقيقة . " ولقد شقت عقدة الانعزال عن البشرـ ،والامتياز ، والاستعلاء على

أمم العالم طريقها إلى النفسية اليهودية ،وأصبحت عاملا أساسيا فى تكوين

- شخصية هذه الجماعة من البشر منذ القدم عن طريق الأنساب والأعراق ،وعن طريق الذكريات الدينية والسياسية التى تضخمت وغلظت مع الزمن . وهنا يتضح مدى أهمية الخرافة والأسطورة فى خلق الإطار النفسى العنصرى اليهودى لدرجة تتجاوز الحقيقة التاريخية وخاصة لأن هذه الخرافة والأسطورة اصطبغتا مع الزمن بقدسية الدين ، وقد رأى اليهود أنفسهم فى مجتمعاتهم المتفرقة فى أنحاء العالم ، التى كثيرا ماتعرضت لكراهية الأمم الأخرى ، وقد عاشوا ، منذ السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد والتشريد الرومانى منذ القرن الأول الميلادى ، يصارعون عوامل الفناء ويتغلبون بتضامنهم الاجتماعى والدينى على كل مشاريع الإبادة التى خططت من أجلهم ، فكان من الطبيعى أن يأخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم ، فظهرت فى تعبيراتهم اللغوية ألفاظا يطلقونها على أنفسهم ، لتؤكد هذا الغرور ،وتزيد من الالتحام والتضامن اللذين يربطان بعضهم ببعض ، وجعلوا هذه الظاهرة مرتبطة باختيار إلهى دون سائر شعوب الأرض ، وبإرادة إلهية لا قبل للبشر بمقاومتها . ومن هنا يتردد اليهود فى تسمية أنفسهم ((شعب الله المختار)) . حيث يعتقدون أن هذا الاختيار هوبرنامج إلهى فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى ، وهم الذين يبقون وحدهم فى آخر الزمان متسلطين على رقاب العالم ، وكذلك فإنهم يسمون أنفسهم ((الشعب الأزلى)) ((عم عولام)) ، ((الشعب الأبدى)) ((عم نيتسح)) حيث يعتقدون أنهم مثل الله ، لا أول لهم ولا آخر ن ولا بداية ولا نهاية ، و ((الشعب المقدس)) ((عم قادوش)) .

ولا تقف فكرة الشعور بالاستعلاء العنصرى فى التكوين النفسى عند ذلك الحد ، بـل تنعكس فى العديد من التعبيرات التى تعكس الإيمان العميق لـدى اليهـودى بحقـارة أمم

العالم مثل : ((جوى)) التى يشار بها إلى الشـخص غـير اليهـودى ، وتعنـى القـذارة المادية والروحية والكفر و ((عاريل)) ومعناها ((الأقلف)) أى غير المختتن ، الذى يبقى بدائيا فطريا فيظل قذرا وكافرا فى آن واحـد ، وكـانوا يطلقونهـا عـلى المسـيحيين لعدم شيوع الختان بينهم ، ((ممزيز)) أى ((ابن الزنـا)) وهـى تـدل فى أسـفار العهـد القديم على الشعب المخـتلط الأنسـاب وقـد خصـها اليهـود للمسـلم ، نسـبة إلى مـا يعتقدون من أن أبو العرب ولد من هـاجر التـى تعتـبر فى نظـرهم جاريـة وأجنبيـة ، وهكذا نجد أن الفكر الدينى اليهودى قد صاغ العقلية اليهودية فى إطار من العنصرية التى تسبغ على اليهود صـفات المـديح والتعظـيم فى الوقـت الـذى تتعامـل فيـه مـع الشعوب غير اليهودية بسيل من الأوصاف العنصرـية والشـتائم التـى تؤكـد عـلى أن الاستعلاء العنصرى هوأساس ثابت فى تكوينها "[1]

- الشخصية الإسرائيلية حدث لها رجة قوية ، زلزال عنيف ، فبعد أن وصـلت إلى قمة التدليل الإلهى وذروة الإنعام الربانى ، جوبهت بالنبذ الإلهى والفطم الربانى ، وهذا أفقدها اتزانها ، وأوجد فيها شروخا أبدية ، وأخاديد عميقة ، وندوبا غـائرة ، لم تعالج أو تداوى على مر الزمن ، وإنما زادها الزمن عمقا وغورا .

---

١ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية – د . رشاد عبد الله الشامى (٢٩)

لم يكن التيه – كما قلنا – مساحة مكانية ، يشملها حيز زمنى ، وإنما كـان تيهـا للـروح والنفس والضمير ، وكان فرصة للاستشفاء من كل الأمراض والعلل والآفـات التـى لحقت بكيانهم ، وكان فرصة للمراجعة والتقييم ، كان فرصة لإعادة تشـكيل وتخليـق الشخصية ، كان فرصة لميلاد أمة جديدة ، تحمل مشـعل التوحيـد لتنشرـ أنـواره عـلى العالمين .

ولكن بعد مرور تلك القرون ، أثبت الـزمن أنهـم مـازالوا يعيشـون فى التيـه ؛ لأنهـم يحملونه داخلهم ، ومنذ أن دخلوا التيه ، لم يخرجوا منه ، ولم يخرج منهم ، ومـازالوا – وسيظلوا – يعيشون فى مأزقهم التاريخى ، لن يخرجوا منه .

ختام

تعتز البشرية وتتيه فخرا بعلمائها ومفكريها ومخترعيها ، لأن هؤلاء جعلوا حياتها أكثر رقيا وأسرع تطورا وألين معيشة وأسعد أياما وأنضر أحلاما .

ولكن ينبغى أن يكون اعتزازها وفخرها أشد وأقوى بأنبيائها .

لأن لولا هؤلاء – الأنبياء – لظلت البشرية صماء بكماء عمياء ، تتقاذفها الميول المضللة ، والأهواء المهلكة ، تخرج من هوة الكفر والإلحاد ، لتسقط فى مستنقع الظلم والطغيان .

ولولا هؤلاء لأصبح الوجود كالغاب لا قانون إلا قانون الظفر والناب ، فيه البشر كالوحوش الضارية ، تأكل بعضها بعضا .

ولولا هؤلاء ما نبض فى تلك الجبلة الطينية الإحساس بالآدمية ، وما أشرق نور الضمير يبدد ظلمات الحياة ، وينير مدارك العقول ويفك طلاسم الوجود .

ولولا هؤلاء ما رن هتاف التوحيد فى بقاع الأرض ، وأضاءت النفوس بأنس العبودية وهى تتلمس السبل التى تصلها وترشدها وتهديها إلى خالق الكون ومبدع الوجود .

إن كل ما تنعم به البشرية من أمن وأمان وعدل وسلام وخير وجمال هو من فيض عطائهم ، لأنهم كانوا – وسيظلون – مركزا وبقعة مباركة تنطلق منها أنوار الهدى والرشاد .

والبشرية ستظل تنعم بالعدل والخير ما دامت قريبة منهم ، تضعهم فى وعيها وضميرها ،لا كشخصيات مقدسة فحسب لا يجوز الاقتراب منها ، وإنما كشخصيات حية واقعية فاعلة ومؤثرة فى الحياة والوجود . أظن أن أعوص المشاكل وأعضل المآزق وأعقد الأزمات وأشدها عسرا التى تعانى منها البشرية من اليسير حلها ، ومن السهل الخروج منها ،ومن الهين القضاء عليها لو عرضناها على هؤلاء ، وسألنا أنفسنا : ماذا كان سيفعل – مثلا – رسول الله – ﷺ _ لو وضعت أمامه تلك المشاكل والأزمات ؟

ماذا كان سيفعل موسى – عليه السلام – ؟

ماذا كان سيتصرف عيسى – عليه السلام – ؟

لذا لابد وأن يكون لكل هؤلاء العظماء الأطهار أثر وتأثير فى حياتنا ، أن نفتح ما بيننا وبينهم من أبواب مغلقة وأن نزيل تلك الحجب والحواجز من الغفلة والنسيان ، وأن نمد طرقا وجسورا من الرعاية والاهتمام لتصل ما بيننا وبينهم ، ولن يتسنى لنا ذلك إلا بدراسة شخصياتهم دراسة ناضجة واعية متفتحة عقلانية ، **وتلك الدراسة تحقق هدفين**

الأول :الاستفادة من فكر ورؤية ونظرة وتصرفات وأعمال وأفعال هؤلاء فى معالجة ما عن لهم من مشكلات وأزمات سواء كانت متعلقة بالناس أو بالعقيدة ، فهم لديهم العلاج الناجع لكل ما تعانى منه البشرية فى حاضرها ومستقبلها .

الثانى :تمنحهم – الدراسة – ما يستحقون من إجلال وتقدير وتعظيم ، فلابد أن يستند الإجلال والتقدير والتعظيم على قناعة واقتناع أن هؤلاء أهل لكل هذا ، وهذا لن يتأتى إلا بعد دراستهم دراسة عميقة وأصيلة حتى يحدث ما اسميه (التشرب) لشخصية هؤلاء ، لينعكس هذا فى حياتنا وفكرنا وضميرنا .

وفى النهاية أرجو أن يكون الكتاب قد وفق – بعض التوفيق – فى أن يجلو جانبا واحد – وليس كل الجوانب – من شخصية هذا النبى العظيم ، وأن يكون حقق أى من هذين الهدفين الاثنين .

دمنهور في : ١٧ من رمضان ١٤٣٠ هـ

السيرة ذاتية

الاسم : محمود محمد محمود القليني .

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة عضوية عاملة رقم ١٩٧

الإيميل : elkellenymahmoud@yahoo.com

الهاتف :٠٢٠١٠٦١٤١٤١٢٤ - ٠٢٠١٠٢٥٥٤٤٨٥٦

الأعمال المنشورة :

أولا : في المسـرح :

١) مسرحية : (إخناتون والكهنة) جهة النشر : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٤

٢) مسرحية : (مصرع الخُرساني) جهة النشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة عام٢٠٠٢.

٣) مسرحية :(محنة الإمام أحمد بن حنبل) جهة النشر : الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٩٧

٤) مسرحية : (بلد راكبها عفريت) جهة النشر : الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة عام ٢٠١٠.

٥) مسرحية : (بوظا في مجلس الشعب) دليل النصوص المسرحية – الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

٦) مسرحية : (غائب لا يعود) دليل النصوص المسرحية – الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

٧) مسـرحية : (محاكمة الحمير) منشورة في المجلة الإلكترونية (الفنون المسرحية) مدير الموقع : (حسين نصار) .

٨) مسرحية : (البلطجية اشتكوا) منشورة في المجلة الإلكترونية (الفنون المسرحية) مدير الموقع (حسين نصار) .

٩) كتـاب : (الأدب في مسرـح الطفـل) جهـة النشـر : العلـم والإيـمان للنشـر والتوزيع بدسوق عام ٢٠١٥

ثانيا : في الروايات والقصص :

١) رواية :(الإسكندرية عناقيد العشق والغضب) جهة النشـر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١١.

٢) رواية :(الجنوب الهادئ) جهة النشر :الهيئة العامة لقصور الثقافة عام : ٢٠١٤

٣) رواية : (الدجال والشيطان) جهة النشر : مكتب معروف للنشر والتوزيع عـام ١٩٨٥

٤) (إنهم يذهبون) مجموعة قصص قصيرة ، جهة النشر : دار الشعب بالقاهرة عـام ١٩٨٣.

٥) رواية : (قوس قزح) مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠١٧(تحت النشر)

٦) رواية : (الخروج من الجلد) مكتبة بستان المعرفة بكفر الـدوار ٢٠١٧) (تحـت النشر)

ثالثا : في الكتب :

١) (الفكر الإسلامي ومستجدات العصر) جهة النشر :المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام ٢٠٠٥ .

٢) (أمير الصحافة العربية) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠٠٩

٣) (العمرية ..في رحاب عمر بن الخطاب) جهة النشر: مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠٠٧

٤) (عش حياتك سعيدا ولا تحزن)جهة النشر: مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠٠٤.

٥) (الثورة في وجدان المصريين) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١٢.

٦) (الباحثون عن الله) جهة النشر مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠١٣.

٧) (شخصية موسى النبي) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١١ .

٨) (شخصية المسيح) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١٤.

٩) (شخصية النبي محمد ﷺ) جهة النشر : مكتبة بستان المعرفة عام ٢٠١٤

١٠) (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) جهة النشر : مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠١٥.

١١) (الذاتية والقيم الوجودية في أدب إبراهيم عبد القادر المازني) جهة النشر: مكتبة دار العلم والإيمان عام ٢٠١٥.

١٢) (النساء فقدن عروشهن) جهة النشر :مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة .

١٣) (نحو تفسير علمي للأحلام) جهة النشر : مكتبة دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٧(تحت النشر)

١٤) (الخليل إبراهيم ..رحلة في المكان وسياحة في الزمان) جهة النشر : مكتبة دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٧ (تحت النشر) .

الجوائز الحاصل عليها :

١) جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (محنة الإمام أحمد)

٢) جائزة (ملتقى جائزة أبها) بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية (محنة الإمام أحمد) عام ١٤١٧ هجرية .

٣) جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (إخناتون والكهنة) .

٤) جائزة التأليف المسرحي من مجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية (مصرع الخرساني) .

٥) جائزة الدراسات النقدية عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) من المجلس الأعلى للثقافة .

٦) جائزة الدراسات النقدية عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية في أدب المازني)

٧) جائزة المقالة النقدية عن دراسة في قصة (الطريق) لنجيب محفوظ ، من المجلس الأعلى للثقافة

٨) جائزة من نادي القصة بالقاهرة عن رواية (قوس قزح) عام ٢٠٠١

٩) جائزة مسابقة التأليف المسرحي للكبار من الهيئة العربية للمسرح – الشارقة – ٢٠١٦ عن نص بعنوان : (غائب لا يعود) .

١٠) الوصول إلى القائمة القصيرة لمسابقة الكتابة المسرحية للأطفال خيال علمي ، التي تنظمها الهيئة العربية للمسرح-الشارقة ٢٠١٧ عن نص مسرحي بعنوان (الأرجواني السماوي)